وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

البيت والعالم

رواية

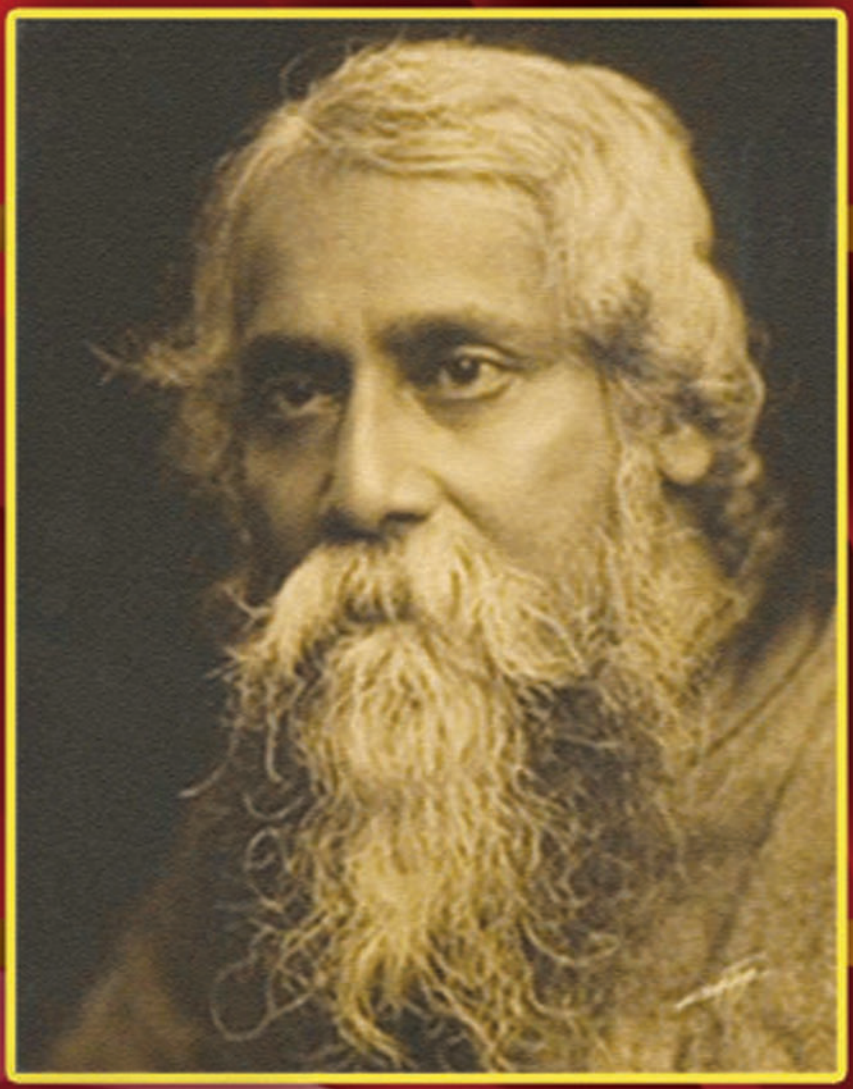

تأليف : رابندرانات طاغور
ترجمة : د. ماري شهرستان

روايات مختارة ٨

البيت والعالم

الهيئة العامة
السورية للكتاب

البيت والعالم

رواية

تأليف : رابندرانات طاغور

ترجمة: الدكتورة ماري شهرستان

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب:

The Home and the World

Ghare Baire

البيت والعالم : رواية / تأليف رابندرانات طاغور؛ ترجمة ماري شهرستان .- دمشق الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م .- ٣٣٦ ص؛ ٢٤سم.

(روايات مختارة؛ ٨)

١- ٨٩١ ط ا غ ب ٢- العنوان ٣- طاغور

٤- شهرستان ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

روايات مختارة

«٨»

نشأة طاغور وثقافته

استقرت عائلة طاغور في نهاية القرن السابع عشر في كوفندبور[١]، وهي إحدى الضواحي الثلاث التي شكلت فيما بعد مدينة كلكتا. ازدهرت أحوال العائلة في الأعمال وفي المصارف، وامتلكت ثروات وأرباحاً تجارية هائلة[٢].

كان الجد دواركانات طاغور من كبار ملاك الأرض يعيش حياة فاخرة، سافر إلى أوروبا مثل معاصره راموهان روي[٣] المصلح الاجتماعي والديني في القرن التاسع عشر، وتجاوز المحظورات الدينية الهندوسية التي كانت سائدة في تلك الفترة. عاش جانباً من حياته في بريطانيا، وتوفي فيها، والواضح أنه كان شديد الاقتراب من المجتمع الإنجليزي، حتى أنه كان يدعى بالأمير وإن لم يحصل على اللقب رسمياً، ودخل القصر الملكي وقابل الملكة

---

(١) Govindpur

(٢) بعملها مع القوة المتنامية للشركة البريطانية لشرق الهند: British East India Company المصدر: المجلة الفصلية للتربية المقارنة (باريس اليونيسكو، المكتب الدولي للتربية) جزء ٢٤ رقم ٣\٤ – ١٩٩٤ صفحة ٦٣١ – ٦٤٨).

(٣) أطلق روي عام ١٨٢٨حركة إصلاح ديني أصبحت مشهورة باسم براهما ساماج Brahma Samaj دعمه بهذه الحركة دواركانات جد طاغور ثم أصبح والد رابندرانات، ديبندرانات، مشايعاً نشطاً فيها. ولتشجيع الانتماء إليها ونشرها أنشأ عام ١٨٦٣ مركزاً للتأمل حيث يمكن الإقامة فيه على أراض يمتلكها وهي تبعد حوالي ١٥٠ كم عن كلكتا في موقع باسم : «سانتينيكتان Santiniketan أي مرسى السلام. (المصدر السابق).

فكتوريا، كما خالط الفنانين والأدباء الإنجليز في ذلك العصر، وكان قريباً من تشارلز ديكنز.

أما ديبندرانات والد رابندرانات، فهو من الوجوه البارزة والمؤثرة في مجتمع بنغالي كان قد بدأ وعيه لذاته. لقد درس في المدرسة الهندوسية - الإنكليزية لراموهان روي التي أثرت في بناء شخصيته من ناحية العقائد والتدين. كان متضلعاً من الفلسفات الغربية ومع أنه متدين لم يكن يقبل بكل المبادىء الهندوسية.

كان إخوة وأخوات رابندرانات شعراء وموسيقيين وروائيين وكتّابَ دراما، كما كان للعائلة توجهات «مشبعة» بالقومية. ورغم تأصل عائلة طاغور بالتراث والتقاليد الهندية فقد ساهمت بسخاء في إدخال تعليمٍ ذي نموذج غربي إلى الهند وخصوصاً بإنشاء مؤسسات يمكن فيها دراسة العلوم والطب، فبرز أعضاؤها رواداً لحركة النهضة البنغالية ساعين إلى خلق تفاعل بين الثقافة الهندية التقليدية والأفكار والمفاهيم الغربية. أثر هذا الوضع في نظرة رابندرانات إلى الحياة جعله يحترم التراث مع إرادة في التجديد [١].

ولد رابندرانات طاغور، في القسم البنغالي من مدينة كالكتا، عام ١٨٦١م في هذه الأسرة رفيعة المستوى، أنجبت والدته سارادا ديفي ١٣ ولداً وبنتاً قبل أن ترزق برابندرانات الذي عرف أيضاً بلقب غوروديف[٢].

كان البنغال في زمن ولادة رابندرانات مسرحاً لتحولات كبيرة. كان «إيسوار شاندرا فيدياساغار[٣] يحاول تغيير وضع النساء في المجتمع.

وإلى جانب المدارس التقليدية التي توفر تعليماً بالسنسكريتية تمَّ إنشاء مدارس تدرّس المواد باللغة الانكليزية. كما أسس فيدياساغار مدارس تدرِّس بالبنغالية في مختلف بقاع البنغال ودون معونة من الدولة، بالإضافة إلى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) Gurudev

(٣) Iswar Chandra Vidyasagar

مراكز لتخريج المعلمين. انتسب رابندرانات إلى إحدى هذه المدارس وفيها اكتسب حسب قوله حبه للغة والأدب البنغالي. كما تم إرساله إلى العديد من المدارس الإنكليزية لكنه لم يحبذ الدراسة بلغة أجنبية.

والواضح أن الأب كان له تأثير كبير وعميق على أسلوب تفكير ابنه وسلوكه في الحياة[١]. فقد حرص على تعليمه على غير القواعد السائدة، فعندما بلغ رابندرانات سن الثانية عشرة أخذه إلى مركز التأمل في (سانتينيكتان) [٢] الذي أنشىء عام ١٨٦٣. تلقى هناك من والده دروسا باللغة السنسكريتية وبالفلك والكتابات الدينية التي تشكل قاعدة الديانة بعد الإصلاح. وفي تلك الرحلة التأملية بالهمالايا غرس الأب في نفس ابنه المفاهيم البنغالية التقليدية وحرَّك فيها القيم الروحية والحب وقلب الألم وتحويله فرحاً.. كما نمَّى فيه نزعة استقلال الذات والاعتماد على النفس بتركه وحيداً في جولات طويلة يجوب فيها مسالك تلك الجبال الخطرة ويتنزه بعد الدروس. واستمر الأمر على هذا الحال عندما مكث في دالهوزي في سفح الهمالايا: هنا أيضاً اكتشف الجبال والغابات بعد دروس السنسكريتية[٣] والأدب الإنكليزي والديانة، فتحوَّل هذا الاتحاد مع الطبيعة إلى إلهام وإطلاق لمواهبه بعد تجربة الحياة المدنية في كالكتا. اطلع على العديد من السير كما درس التاريخ والعلوم الحديثة؛ وقرأ الشعر البنغالي ودرس قصائد كالداسا، وألف أولى قصائده في عمر الثماني سنوات. وفي سن السادسة عشرة نشر قصائده الأساسية تحت اسم مستعار «بهانوشينغو» أي «أسد الشمس» وكتب القصص والدراما منذ عام ١٨٧٧.

---

(١) المجلة الفصلية للتربية المقارنة (باريس اليونيسكو، المكتب الدولي للتربية) جزء ٢٤ رقم ٤١٣ – ١٩٩٤ صفحة ٦٣١ – ٦٤٨.

(٢) Santiniketan وهي الناحية التي أنشأ فيها الابن فيما بعد مؤسسته التعليمية المعروفة باسم (فيسفا- بهاراتي) أو (الجامعة الهندية للتعليم العالمي).

(٣) لميس علي: الثورة - ثقافة: الأربعاء ١١-٨-٢٠١٠.

في سن الرابعة عشرة ترك المدارس النظامية وتابع دراسته في البيت وحده بمساعدة أساتذة في مختلف الموضوعات ومنها الموسيقى والرسم. فلقد كان مدرِّسوه هم أشقاؤه الذين عُرِفوا بتفوقهم العلمي والأدبي وبإسهامهم في رفد وإغناء الثقافة والأدب والموسيقى البنغالية، إضافة إلى مدرس من خارج الأسرة هو (دفيجندرانات) الذي كان عالماً وكاتباً مسرحياً وشاعراً أثر في طاغور، وكان يتردد عليه أيضا معلم الجودو. كل هذه السنوات من الدراسات أثرت في منحى شخصيته بشكل عميق.

أرسله والده عام ١٨٧٨ في سن السابعة عشرة ليدرس الحقوق في لندن بغية إعداده للعمل في الشأن العام الهندي. أنهى دراسته الثانوية ثم التحق بجامعة لندن لكنه أحبَّ الأدب الانكليزي والحياة الاجتماعية والموسيقى الغربية. عاد فجأة إلى الوطن بعد عام ونصف دون إتمام دراسته لكنّه اكتسب شعوراً وقناعة بأن الطبيعة البشرية هي نفسها في كل أنحاء الأرض[١].

تابع تعليمه في الهند بنفسه ومارس مواهبه الإبداعية ككاتب وكموسيقي. ظهر ديوانه بالبنغالية بعنوان «أغاني المساء» عام ١٨٨٢. في هذه الفترة كان قد تلقى تجربة دينية أدرك خلالها وحدة الوجود وأنه هو نفسه جزء لا يتجزأ من هذا الكل. نشر العديد من القصائد والأعمال النثرية والمقالات والنقد والمسرحيات والروايات بين أعوام ١٨٨٤ إلى ١٨٩٠.

تزوج طاغور عام ١٨٨٣ وهو في الثانية والعشرين بفتاة في العاشرة من عمرها، مرينا ليني، التي كانت شبه أميّة، أنجب منها ولدين وثلاث بنات، أحبته بشدة وخاض معها في أعماق الحب الذي دعا إلى الإيمان القوي به في ديوانه «بستاني الحب». توفيت وهي في مقتبل العمر ولحق بها ابنه وابنته وأبوه في فترات متلاحقة متقاربة ما بين عامي ١٩٠٢- ١٩١٨ فخلف ذلك جرحاً عميقاً في نفسه.

---

(١) المجلة الفصلية للتربية المقارنة (باريس اليونيسكو، المكتب الدولي للتربية) جزء ٢٤ رقم ٤١٣ – ١٩٩٤ صفحة ٦٣١ – ٦٤٨.

سافر عام ١٨٩٠ مرة أخرى إلى بريطانيا لكنه عاد خلال شهر. انتقل عام ١٨٩١ إلى البنغال الشرقية (بنغلادش) لإدارة ممتلكات العائلة حيث استقرَّ فيها مدة عشر سنوات. كان يقضي معظم أوقاته هناك في مركب معدّ للسكن يجوب به نهر بادما (نهر الغانج)، وكان على احتكاك دائم ومباشر مع القرويين البسطاء، ما وفَّر له تجربة مباشرة وحميمية مع الحياة البائسة لفقراء الأرياف في البنغال. لقد شكلت الأوضاع المعيشية المتردية للفلاحين وتخلفهم الاجتماعي والثقافي موضوعاً متكرراً في العديد من كتاباته دون أن يخفي تعاطفه معهم.

ظهرت هذه التجربة في أعماله (باقة قصص عام ١٩٠٠) كما في العديد من رسائله التي صدرت بعنوان (رسائل ممزقة ومجموعة رسائل) وهي تُعدُّ من الأعمال الرئيسة في الأدب البنغالي بأسلوبها وطريقة وصفها الريف البنغالي.

كان طاغور مثقلاً بهموم الفقر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للفلاحين وهذا ما كتبه لاحقاً:

«طبقاتنا المسؤولة المزعومة تعيش برخاء لأن الإنسان العادي لم يعِ وضعه بعد، لذلك فالمالك يجلده والدائن بالرهن يمسكه من عنقه، ورئيس العمال يسيء معاملته، والشرطي يبتزه، والكاهن يستغله والقاضي يفتش جيوبه[١]».

كان طاغور مقتنعاً بأنّ هذا الوضع لن يتغير بتحريض المشاعر الدينية للمالك والشرطي أو الدائن بالرهن. الإحسان لا يصنع القانون في المجتمع بل الضرورة والحاجة. ينبغي في البدء وقبل كل شيء أن تعي الكائنات الرابط الذي يجعل منها مجتمعاً، والتربية هي الطريقة الوحيدة التي يمكن لها أن

---

(١) طاغور، العمل الاجتماعي، ١٩١٥ – مجلة فصلية - فيسفا بهاراتي (سانتينيكيتان) جزء ٧، ١٩٦١، صفحة ١٩ إلى ٣٠. ترجمها إلى الإنكليزية كانكولي.

تؤدي إلى هذا الوعي. لقد فهم واستنتج انطلاقاً من تجربته الخاصة بمواقف الفلاحين وسلوكهم الاجتماعي بأنَّ القوة لا يمكن لها أن تلد إلا في مجتمع ريفي مستقل يتخذ قراراته بنفسه ويحدد إيقاعه الخاص بنموه. فهو في العديد من نصوصه يطرح هذا الموضوع بالاكتفاء الذاتي المحلي، والمبادرات المحلية والحكومات المحلية المرتكزة على التعاون. بهذا الأسلوب تتكوّن نقطة انطلاق لإعادة تنظيم المجتمع الريفي المفتت في الهند من أجل حياة أفضل. كان طاغور يعرف أنّ التربية ومجالس البلدة أو ما يسمى «بانشايات» كانت الأدوات الوحيدة الموجودة للتغيير الاقتصادي والاجتماعي وأنَّ القرويين بحاجة لمساعدة خارجية بعدة أشكال لإتمام التغيير. وفق تعابيره: «ينشأ الفقر من التفرقة وينشأ الغنى من التعاون، ومهما تكن الزاوية التي فيها نقف، تلك هي الحقيقة الأساسية للحضارة الانسانية[1]».

أسَّس طاغور مدرسة تجريبية في سانتينكايتان حيث سعى من خلالها إلى تطبيق نظريته الجديدة في التربية والتعليم وذلك عبر مزج التقاليد الهندية العريقة بالتقاليد الغربية الحديثة. واستقرَّ مبدئياً في مدرسته التي تحوّلت عام ١٩٢١ إلى جامعة باسم «الجامعة الهندية للتعليم العالمي» «فيسفا بهاراتيا».

على الرغم من غزارة إنتاجه وتنوعه، إلا أنه لم يكن معروفاً تماماً خارج محيطه. لكن هذا الوضع تغير فجأة وبدا أن الشهرة على الصعيدين المحلي والعالمي كانت تتحين الفرصة لتطرق بابه. ففي عام ١٩١٢ سافر إلى بريطانيا للمرة الأولى برفقة ابنه منذ أن ترك الجامعة. وفي الطريق، بدأ يترجم آخر دواوينه «جينجالي» إلى اللغة الإنكليزية. وكانت كل أعماله السابقة قد كتبت كلها تقريباً باللغة البنغالية؛ فقرَّر ترجمة المجموعة الأخيرة من باب التسلية، لقتل وقت السفر الطويل بحراً. عند وصوله إلى انكلترا علم

---

(١) المجلة الفصلية للتربية المقارنة (باريس اليونيسكو، المكتب الدولي للتربية) جزء ٢٤ رقم ٤\٣ – ١٩٩٤ صفحة ٦٣١ – ٦٤٨.

صديقه المقرَّب بأمر الترجمة، وهو رسام شهير كان قد التقى به في الهند، فطلب منه الاطلاع عليها فوافق طاغور على ذلك، لقد أعجب الرسام كثيراً بها بقوله إنها أكثر من رائعة وبدا كما لو أنه وقع على كنز ثمين فاتصل بصديقه الشاعر «دبليو.بي.بيتس» الذي دهش بتجربة طاغور فنقَّح الترجمة وكتب لها مقدمة بنفسه.

ظهر ديوان «قربان الأغاني» باللغة الإنكليزية في أيلول عام ١٩١٢، فوجد الغربيون أنفسهم أمام لمحة موجزة ومكثفة من الجمال الصوفي الذي تختزنه الثقافة الهندية في أكثر الصور نقاءً وبوحاً ودفئاً، فقد عكس شعر طاغور حضوراً روحياً هائلاً وحوت كلماته المنتقاة بحساسية فائقة جمالاً غير مستهلك، لم يكن أحد قد قرأ شيئاً كهذا من قبل.

في هذا الدور ظهر طاغور بمظهر البطل الشرقي الفاتح فلهجت بذكره الألسن وتحدث في المجالس بنبوغه الفكري وفنه الأدبي الشعري، وفي هذا الدور وضح ميله إلى صداقة انكلترا التي جلبت عليه نقمة الوطنيين الهنود وحملهم على محاولة اغتياله في سان فرانسيسكو سنة ١٩١٢، أي قبل نيله جائزة نوبل بسنة واحدة.

أخذت نقمة القوميين الهنود على طاغور تشتد في أثناء الدور المشار إليه إلى أن بلغت حداً اتهم عنده الشاعر بالمروق من الوطنية وعدَّ فاتراً، وألحق الناقمون عليه هذه الوصمة الأخيرة بأدبه حتى شاع حينئذٍ أن في أدبه ضعفاً واضحاً من جهة الروح الباطنية، وهو نتيجة فقده حرارة الروح القومية وانفصاله السياسي عن الفكرة الوطنية[١].

نال طاغور جائزة نوبل للآداب عام ١٩١٣، كانَ بذلك أول أديب شرقي ينالها. ونال عام ١٩١٥ وسام الفارس من ملك بريطانيا جورج

---

(١) أنطون سعادة – الأعمال الكاملة – ص ٤٤٠-٤٤١ – المجلة- بيروت – المجلد ٨ العدد٢ – ١٩٣٣/٤/١.

الخامس، لكنه خلعه عام ١٩١٩ في أعقاب مجزرة «أمريتسار» سيئة الصيت التي قتلتْ فيها القوات البريطانية أكثر من ٤٠٠ متظاهر هندي.

أمضى طاغور ما تبقى من حياته متنقلاً بين العديد من دول العالم في آسيا وأوروبا والأمريكيتين لإلقاء الشعر والمحاضرات والاطلاع على ثقافة الآخرين، وزار العراق عام ١٩٣٢ والتقى في هذه الزيارة الملك فيصل الأول، كما التقى الشاعر والفيلسوف جميل صدقي الزهاوي؛ كل ذلك دون أن ينقطع عن متابعة شؤون مدرسته؛ لقد أبدع على مدى نحو ستين عاماً.. حتى قال عنه غاندي إنه «منارة الهند»..

قدَّم للتراث الإنساني أكثر من ألف قصيدة شعرية، و٢٥ مسرحية والعديد من الروايات والقصص من بينها شاتورانغا (رباعية)، وشيكير كوبيتا (إلى اللقاء يا أصدقاء)، وشار اودهي، ونوكادوبي (الغرق)، وجيتنجالي (القربان الغنائي)، وغورا (الوجه الشاحب)، ورواية البيت والعالم هي من بين الأعمال الأكثر شهرة.

خرج طاغور من مجال الخيال وكتب عشرات الكتب والمقالات والمحاضرات في الفلسفة والدين والتربية والسياسة والقضايا الاجتماعية، وبحوثاً وكتباً في علم اللغة. وإلى جانب أعماله في السير الذاتية، هناك مذكرات رحلاته، وبحوثه ومحاضرات جمعت في مجلدات عديدة منها: رسائل أوروبا[١]، ومانوشهر دهورمو[٢] أي ديانة الإنسان.

كان طاغور أيضاً مصلحاً ثقافياً أجرى تحديثاً على الفن البنغالي برفضه كل القيود التي كانت تربطه بالأشكال الهندية الكلاسيكية. وجدد في الموسيقى، وله أكثر من ألفي أغنية، اثنتان من مجموعته «رابندرازانجيت»

---

(١) Iurop Jatrir Patro

(٢) Manusher Dhormo

أصبحتا النشيد الوطني لكل من الهند وبنغلادش: آمار شونار بانغلا[١]، وجانا غانا مانا[٢].

وإلى جانب عبقريته في الأدب اتجه إلى الرسم الذي احترفه في سن متأخرة نسبياً وهو في الستين من عمره فأنتج آلاف اللوحات وأقام العديد من المعارض الناجحة أحدها في باريس. وكان يقول في موضوع الرسم: «عندما بدأتُ أرسم لاحظتُ تغيراً كبيراً في نفسي، حيث بدأتُ أكتشفُ الأشجار في حضورها البصري، وأرى الأغصان والأوراق من جديد، والأزهار تنبثق في كل فرع من فروعها، وصرتُ أتخيّل خلق وإبداع الأنواع المختلفة منها، وكأنني لم أرَ هذه الأشجار مطلقاً، فمن قبل كنتُ أرى الربيع فقط، بدأتُ أكتشف هذه الثروات البصرية الهائلة الكامنة في الأشجار والأزهار التي تحيط بالإنسان».

بقي غزير الإنتاج حتى الساعات الأخيرة من حياته ، توفي بسبب فشل عمل جراحي في السابع من آب عام ١٩٤١م، وهو في سن الثمانين.

---

(١) Amar Shonar Bangla

(٢) Jana Gana Mana

الهيئة العامة السورية للكتاب

مقدمة وشرح نيفيديتا سين[١]

نشرت رواية رابندرانات طاغور أولاً مسلسلة في الصحف ثم في كتاب عام ١٩١٦ .

يظهر في هذه الرواية ثلاث شخصيات رئيسية هامة ستكون أقطاباً لمثلث غرامي يشمل: بيمالا زوجة المهراج نيكهيليش وهو أرستقراطي، ذو ثقافة إنكليزية مع رؤى وآراء ليبرالية وإنسانية وعالمية. أما سانديب، الرجل الثاني في حياة بيمالا هو صديق نيكهيليش، مناضل وطني ناشط لكن بشخصية وتوجهات مختلفة تماماً عن زوجها ذي الطبع الحميد والتوجه الاستبطاني، فهو بليغ ومحرِّض وعدواني، ومع ذلك فتنها بتجسيده للشخصية الوطنية الناشئة الطامحة إلى الوحدة والاستقلال التام. وهو بالمقابل يَعتبر بيمالا كاملة الصفات كرمز للأمة –وكأم وكمعبودة، ولو اتخذ ذلك وضعاً وموقفاً ظاهرياً بعض الشيء.

بُنيَ هذا التفاعل بين الشخصيات الثلاث وتشكَّل حول بوح ذاتاني[٢] متوجه إلى القراء وإلى شخصيات الرواية، وازداد وتوسَّع بشكل خطر ضمن وضع متفجر من القضايا.

---

(١) نيفيديتا سين Nividita Sen أستاذة اللغة الإنكليزية في كلية هانس راج في جامعة نيودلهي؛ وهي بصدد تهيئة رسالة الدكتوراه في الأدب المقارن. تعمل الآن على إصدار مجموعة قصصية للأطفال. درست طاغور وترجمت هذه الرواية من نصها الأصلي أي من اللغة البنغالية إلى اللغة الإنكليزية، وذلك عام ٢٠٠٤.

(٢) لقد اقتبست هذا التعبير من يورغن هابرماس Jurgen Habermas، التحول البنيوي في المجال العام: استقصاء داخل طبقة من المجتمع البورجوازي. توماس برغر Thomas Burger (لندن، ١٩٨٦ Polity Press) ص: ٤٩، بغية التأكيد على أن المجالين العام والخاص يتداخلان مع بعضهما بعضاً في الرواية.

هذا الاتجاه الأليم المتوقع لحياة إنسانية خيالية يُضمُّ إلى مسار تاريخ الأمة المتقلب الذي تستعيده الرواية؛ ومثل شار آدهي[١] وغورا[٢]، تسجل أحداث الحركة القومية في مطلع القرن، مشيرة إلى أحداث دارت رحاها عشية محاولة كورزون[٣] تقسيم البنغال عام ١٩٠٥ عندما بدأ المتطرفون اللجوء إلى أساليب قهرية لاستهداف الجماهير من أجل نتائج سريعة.

سياسياً، الرواية هي نقد لمحاولات حركة «سواديشي[٤] التي اتخذت مظهراً وطنياً ولكنها كانت ذات أهداف اقتصادية قصيرة المدى برؤى لا تستشرف الأهداف البعيدة، وتدوس فوق المعيشة الهزيلة للإنسان دون رحمة ولا رادع أخلاقي مستخدمة الطقوس الشعبية لاستخدام واستغلال التزلف للأمة لكن مقاصدها النهائية هي تغطية أرباح القادة الذين يسحرون الشعب.

إن ذلك يجسد عملياً المؤرخين في زمننا الحاضر الذين في أسلوب مراجعتهم يناقشون فكرة الأمة[٥] إما كمفهوم نظري أو كممارسة كره الأجانب.

العديد من مبادىء نيكهيل في هذه الرواية هي صدى لأفكار طاغور الشخصية التي توحي بمفهوم أوسع للأمة من ناحية البناء النظري. في بحثه «القومية في الهند» (١٩١٧) نظر طاغور إلى أبعد من نظرة هؤلاء المؤرخين عندما أكد في مقولته التالية:

---

(١) Char Adhyay

(٢) Gora

(٣) Curzon

(٤) Swadeshi الحركة الوطنية لمقاطعة البضائع الأجنبية

(٥) من بين العديد من المؤرخين الذين تساءلوا حول الإيديولوجيات النظرية التي بزغت في موضوع الأمة. يعتقد إيرنست جيللنر Ernest Gellner ان القومية «تخترع أمماً حيث لا تكون موجودة». (فكر وتغيير ص:١٤٧- ٧٨ Thought and Change)، وبينيديكت آندرسن Benedict Anderson يسمي الأمة «مجتمع متخيَّل» (المجتمعات المتخيَّلة، أفكار حول نشوء وانتشار القومية. Reflexions on the Origin and Spread of Nationalism. Verso: New York، 1991، p.5

سيحقق مواطنو بلادي انتصار وطنهم الهند فعلاً عندما يناضلون ضد التربية التي تعلمهم أن البلاد هي أكبر من مُثل الإنسانية العليا. [١]

وفي ميدان المرأة، تلقِّن هذه الرواية مبادىء ترقية بسيطة للنساء لكنها تحقق قفزة جبارة للجنس اللطيف في البنغال، على أقل تقدير لأولئك النساء الثريات بالولادة والمتمتعات بامتياز في التربية وبزواج متساو نسبياً. وتتميّز أيضاً بالحساسية – الجندرية كما في روايات طاغور الأخرى وقصصه القصيرة مثل «شوكر بالي وسترير باترا وناشتانيد[٢]». أراد نكهيل من بيمالا أن تتجاوز عتبة نساء الحي وأن تتحرك بحرية في قاعة الاستقبال، حيث فيها، يمكنها أن تجتمع بأصدقائه وأن تهتم بقضايا أكبر من توافه الحياة المنزلية. رغم مقاومتها في البدء، رضخت بيمالا للدافع الشخصي عندما عبَّرت عن رغبتها في لقاء سانديب بعد تلك الخطابات الحماسية حول القضايا القومية المتقدة التي ألقاها في حشود الجماهير، حيث شعرت أنها ألهمت لاتخاذ الخطوة الجريئة في الجهاد الوطني. لقد افتتنت به لأن موقفه القومي كان أكثر حماسة وإبهاراً وسحراً من موقف زوجها الساكن المسالم والمعتدل. شاركت بيمالا، وبراحة تامة، في مناظرات ونقاشات في حفلات استقبال رسمية مع سانديب حول أجندتهم السياسية بعد استهانتها بنظم الأجنحة الداخلية من البيت[٣] وبواجباتها المنزلية الرتيبة. وبالتالي، كسبت بجهدها ثقافة سياسية – اجتماعية، بانية لنفسها ركناً خاصاً كمحراب في نطاق عالمها المنزلي والاجتماعي والسياسي، بل وأكثر مغزى من ذلك،

---

(١) رابندرانات طاغور، «القومية في الهند» إصدار س.ك. داس. الكتابة الانكليزية لرابندرانات طاغور جزء٢ (نيو دلهي: ساهيتا اكاديمي، ١٩٩٦)، صفحة ٤٥٦ وقد نشر البحث أولاً عام ١٩١٧، ويحتوي على الموضوع الأساسي في العديد من أفكار طاغور حول الأمة في مراحل نشوئها. Nationalism in India. The English Writing of Rabindranath Tagore Vol.2 (New Delhi:Sahitya Akademi 1996)

(٢) Nashtanid Streer Patra، Choker Bali،.

(٣) المترجمة: اندرمحل: باللغة الهندية يعادل التعبير «حرملك» باللغة العربية.

ساعدت في تكوين أفكار مستقبلية ومثل وقيم للأنوثة الهندية بل للصفة النسوية الهندية عامة. هذه المعادلة الجندرية الجديدة بين بيمالا ونيكهيل والتي بادرت بالخطوة الأولى منها بطريقة صحيحة عندما دعت سانديب بواسطة زوجها، فأعطت بذلك استقلالية ذاتية لنساء العصر، وطرحت فوق ذلك «مفهوماً بديلاً للذكورة... ومفهوماً جديداً لمنظومة القيم بكاملها كي تكون أكثر ملاءمة للرجولة الحقيقية»[١].

استمرت التقنية الروائية المبتكرة في هذه الرواية بجذب اهتمام النقاد كما اهتمام القراء العلمانيين، ودعمت شعبيتها عبر الزمان. ومنذ زمن بعيد قدَّر «مُلك راج آناند[٢]» قيمتها وأعجب بها لواقعيتها السايكولوجية[٣]. ومنذ عهد قريب ركزت سابريا شودهاري[٤] فيها على البدائل الممكنة في استخلاص شكل من الفردية ينبثق من المواجهة الاجتماعية العنيفة والمدمرة[٥].

في هذه الرواية، هناك أيضاً ممارسة لأشكال بارعة متنوعة من السرد بصيغة المتكلم بمعزل عن تشابك السرد لأبطال الرواية الثلاثة والذي فيه يروى الحدث الواحد من منظورين مختلفين[٦]. كان نيكهيل وسانديب يكتبان في الجرائد والمجلات بشكل غير منتظم، بينما تحتل بيمالا موقعاً متميزاً في البنى السردية حيث تراجع باستمرار ما قد حصل مؤخراً... مجهزة بمعرفة

---

(١) ساميت ساركار Sumit Sarkar «كير بير في أزمنته» إصدار P.K. Datta البيت والعالم: دليل الانتقاد (نيو دلهي: بيرماننت بلاك، ٢٠٠٣).

(٢) Mulk Raj Anand

(٣) ملك راج آناند، «رواية رابندرانات طاغور» في مجلد الذكرى المئوية. (كالكوتا: لجنة مئوية طاغور المواطن، ١٩٦١).

(٤) Supriya Chaudhuri

(٥) سابريا شودهوري Supriya Chaudhuri «تربية عاطفية»: الحب والزواج في رواية البيت والعالم إصدار P.K. Datta ed. The Home and the World: A Critical Companion.

(٦) انظر المقطع السادس VI من تابوبراتا غوش، «الشكل في البيت والعالم» إصدار P.K. Datta. The Home and the World: A Critical Companion.

النتيجة المأسوية المحتملة[١]»؛ يظهر الفصل الأول شخصيتها كمعارضة لتحيي ذكرى المحادثات المؤلمة والأحداث في مرحلة تحوّل عندما كان سلوكها الماضي يبدو لها ساخراً. لكن ليست المقطوعات السردية الباحثة عن الروح المحركة كلها استثنائية، بل هي متداخلة مع بعضها بعضاً بقدر ما هي مستقلة بذاتها.

عنوان الرواية كير بير يعني حرفياً «في البيت والخارج» غير انه منذ أن نشر ماكميلان وبنغوين[٢] البيت والعالم عرف خارج البنغال بهذا الاسم وأنا شخصياً قد حفظته بهذا الاسم أيضاً ولو أنني كنت أفضل ترجمة العنوان كالتالي: «ما بين البيت والعالم»، لأننا عندما نفسر«البيت والعالم» في الرواية بشكل منفصل وكأنه قطاع خاص وقطاع عام، نكون قد اعتدينا بذلك على كل المجالات الأخرى مخلفين صراعاً في المعاني وبلبلة فكرية، وانتقاصاً من الموضوع بمجمله. وفي إطار امتداد الممتلكات الريفية العائدة للإقطاعيين الأثرياء في ذلك الوقت، فإن اسم «البيت» الوارد في العنوان قد يفترض منه ضمناً داخل شقق المنزل، أي المكان الذي فيه تمكث النساء وتسود، وتتشاجر مع بعضها بعضاً وتتخاصم وتتفاعل بتناوب العمل القصير مع مدير المنزل والخدام. من جهة أخرى كلمة «العالم» قد توحي بتعدد المعاني، يتم جمعها وكشفها من المحادثات والحركة في الرواية. قد تعني خارج غرف المنزل، قاعة استقبال على سبيل المثال، أو بعض غرف الضيوف، ربما مكتبة عامة أو قاعة مطالعة أو مقر لمكتب أو رواق أو ولاية أخرى أو بلد آخر أو ربما مجموعات الطوائف والأعراق المكوِّنة للنسيج الهندي...إلخ. كما أن التفاعلات الحادة خارج الأحياء السكنية في الرواية، هي مخصصة حصراً للمناضلين القوميين ولمحاولات طرد الحكم الاستعماري البريطاني. هناك

---

(١) ساميت ساركار، كير بير البيت والعالم عبر الزمن، إصدار
The Home and the World: A Critical Companion. P.K. Datta

(٢) Macmillan and Penguin

أيضاً عالم الوطنية الحالية الكبير والمنحرف والذي ينمو ويتعاظم في الخارج وحيث تم لبيمالا الوصول إليه نظرياً فقط وليس فعلياً.

غير أن هناك «عالم» وراء ذلك كله وهو عالم الفقراء الكادحين وراء لقمة العيش والمهددين بالحرمان منها، ونيكهيل فقط هو الذي يمتلك النظرة البعيدة التي يستطيع من خلالها اكتشاف أن حياة الضيق والمعاناة التي يعيشها الناس العاديون والمعدمون هي إلى حد بعيد مهددة من استغلال سانديب لإيديولوجيته الوطنية التي يمارسها عليهم بطريقة حادة ومغلوطة، ومن جهة أخرى هناك الواقع الذي لا يتغيّر لهذا «العالم» الذي تم إفقاره وتشكله بأفكار أصولية متعصبة للطبقة الاجتماعية والطائفية، وبالخرافة وعدم التسامح الديني وحتى بالتعصب للمنتجات المحلية ورفض البضائع المستوردة، وهي أمور يرفضها نيكهيل ويطرحها بأسلوب وأفكار راقية.

إن المراتب قامع- مقموع أو المضطهِد – المظلوم موجودة أيضاً في العوامل المتغيّرة لهذا العالم اليومي كما في استبداد المستعمِر ضد المستعمَر. فبناء عليه، يتضمن «العالم» معنى ليس مجرد مناطق جغرافية معينة الحدود داخل وحول المنزل، بل أيضاً مساحات ذهنية كبيرة عديمة الشكل وغير منظمة. كما إنه لا أحد من هذه الحقول يمكن تصنيفه على أنه متين لا لبس فيه أو لا يمكن دحضه. كل ميدان يتداخل ويتراكب داخل الآخر ويمتد متغلغلاً بالتبادل ليسبب ثورة وهيجاناً غير متعمد في عالم أبطال الرواية كما في الجماهير.

بالنسبة إلى الشؤون الأدبية – الاجتماعية في الرواية، فإن «العالم[١]» في عنوانها قد يؤثر لو تمَّ تطوره بتفاصيل أكبر. فالرواية تعطينا نظرة خاطفة عن هذا «الخارج» عبر مكتب نيكهيل، بواسطة ردود فعله على المحن والكوارث التي اعترضت حياة بونشو[٢]، وهي مبنية على حس الفردية في

---

(١) baire

(٢) Ponchu

أبطالها أكثر مما في تحريكهم أو من سير الأحداث فيها. ويعلم نيكهيل في منتصف الرواية عن كفاح بونشو من أجل البقاء، بينما هو يندب باستمرار فقدان حب بيمالا وتعاطفها، فيثيره هذا الموضوع كثيراً لدرجة يجعله يعي أن هذيانه من جرّاء حرمانه من الحب هو نوع من الانغماس الأناني في الملذات، بينما هناك حقائق ووقائع تحتاج اهتمامه المباشر بشكل ملح. وهذا ما أشعل في داخله عاطفة ودية شفوقة جعلته يصرف النظر عن خسارته وفقدانه لحبه غير الهام والذي هو ثانوي بالنسبة إلى المهمات التي تتطلب منه إعادة بعض من كرامة المحرومين. فنيكهيل هو الناطق بأفكار طاغور وقد تم ترسيخه أبعد من الحدس، لكن نادراً ما ذكر في النقد أنه مركز الصراع في الرواية أكثر مما هي عليه بيمالا.

يبدو أن نيكهيل يلعب دوراً محورياً بالغ الأهمية في حل عقدة الرواية والوضوح النهائي رغم ان حديثه بصدد قصته الذاتية هو الأكثر تجزئة. فهو يريد أن يدفع تدريجياً بالمهمشين إلى داخل التيار الرئيسي وذلك بسبب التزامه بقيم الحرية والمساواة والأخوة، ولما كان قد أخذ بالحسبان «قابلية فساد الحالة الوطنية[١]» طرح الإنسان على أنه مواطن عالمي، مستخدماً العبارات الاصطلاحية المعاصرة والمبسطة. وبالرغم من أن نيكهيل لا يمتلك العقل المناسب لإدارة الأعمال فهو يعزو السبب الحقيقي للفقر في مقاطعته إلى ظروف سببها سوء التخطيط وفعل الإنسان أكثر مما هو من قساوة الطبيعة أو ظروف الولادة والنشأة، فهو بذلك قد استبق واستشرف نظريات لاحقة في الاقتصاد. في «راجا براجا» جعل طاغور مثالاً أعلى من رؤيته الخيالية للكائن الإنساني وكأنه، مثل نيكهيل، يعكس الروح المعنوية لذاك الإنسان العالمي الذي رغم اضطرابه الشخصي واهتياجه العظيم يبحث ويحاول أن يحمي ويوحِّد الحقيقة الفريدة الرائعة:

---

(١) آمارتيا سين Amartya Sen «طاغور وهنده» في النيويورك تايمز، في ٢٨ من شهر آب ٢٠٠١. Tagore and His India in New York Times.

لو يستطيع المرء، خلال حياة واحدة بكاملها، أن يكرِّس نفسه للمعرفة والحب والعمل، عندها يمكنه أن يرى الحقيقة السرمدية... والذي يستطيع أن يجبر الاختلافات للحفاظ على الوحدة في جميع النزاعات داخل الكون يسمى «الحق»[١].

لكن هذه القيم ذات النزعات الخيرة التي يحملها نيكهيل والمتسمة بوهم العظمة، تطيل حدود النزاع بين العام والخاص، فكل كائن بشري في النهاية مسؤول عن الآخر في رؤية نيكهيل الوهمية. إنه استحضار شاعري للحقيقة والفضيلة والجمال والفرح أي القيم الصادرة عن الحركة الإنسانية المحِّبة بكليتها للخير العام.

إن التفصيل الشامل المتضمن لفكر نيكهيل في الرواية والذي ينم عن فلسفة متحررة واسعة الأفق ومتسامحة هو في الوقت نفسه لا يجعل منه رومانسياً. فقد تحمس نيكهيل بشدة لأفكار تتعلق بالحقيقة والجمال لكنها أفكار مطلقة استبدادية ما ورائية مبهمة ما دفع بسانديب لاتهامه بالعند والتصلب بما يتعلق بمبادئه؛ كما إنه لم يفلح في تكوين شخصية ديمقراطية رغم إنه سعى لتحقيقها؛ فإن كان الأمر متعلقاً بموضوع مغادرة الآنسة جيلبي[٢] أو بحرق بضائع أجنبية، فإن بيمالا لم تفرض سيطرتها عليه ولم تفلح في حمله على تغيير رأيه، وفوق ذلك عزم على ألا يتنازل وألا يستسلم لضغوط الشبيبة الذين يعيشون في المنطقة في نطاق سلطته القضائية، وفرض على الآخرين سلطته كمالك للأرض.

---

(١) رابندرانات طاغور، «راجا براجا» في رابندرا راشانابالي، الملف المئوي جزء XII (بيسوابهاراتي: كالكوتا، ١٩٦١)، صفحة ٩٩١. المقطع ذو الصلة بالبحث والمعنون بـــ"Path O Patheya" هو احد استنتاجاته الختامية. كتب العمل النثري المطول بين أعوام ١٨٩٣ و ١٩٠٨، قبل سنوات عديدة من تصور طاغور لشخصية اسمها نيكهيل في البيت والعالم Ghare Baire.

(٢) Gilby

أما بالنسبة إلى قضية المرأة، فرغم أنه جاهد باذلاً ما في وسعه لتحرير بيمالا، لكن لم يكن لديه أي برنامج مماثل يناسب زوجات أخويه المهمشات بشكل مضاعف لكونهن نساء من جهة وأرامل من جهة أخرى. كما إنه لم يأخذ على عاتقه أي مشروع بالنسبة إلى النساء القابعات في أسفل المراتب الاجتماعية واللواتي يخدمن في الأعمال المنزلية فقط.

كما اعترض قراء رواية «البيت والعالم»، العلمانيون منهم، ومنذ زمن إصدارها، على الأساليب التي تمت فيها حبكة الرواية وسير الأحداث وعلى الشخصيات وكيف تطورت مما أدى إلى استنتاجات بديهية متوقعة عنهم[١]. فعلى سبيل المثال، يتساءل الطلاب الذين يدرسون النص عن مغزى القصة والحكمة منها، التي تجعلهم يعتقدون بأنه ربما إن أعطيت المرأة قسطاً كبيراً من الحرية، فهي على الأرجح ستنتهك الإخلاص الزوجي. ولما تنبهوا إلى الخطر الناجم عن صورة سانديب الذي يبدو فيها رجلاً جشعاً محباً لاكتساب المال واختزانه، يلاحق النساء، ويحب الحياة الفاخرة والذي أقسم بالأمة احتيالاً وخداعاً، تساءلوا إن كان طاغور يذم القومية في حد ذاتها. هناك سؤال آخر كان يبرز في أغلب الأحيان هو أنها رواية تتحدث عن علاقة زوجية ممتازة وغير مألوفة، فهل جعل طاغور اختيار بيمالا سهلاً بتحويل سانديب إلى شبه شيطان؟ ويسأل الطلاب أيضاً عن النهاية المشؤومة وكأنها توضيح

---

(١) من أجل الترجمة والمناقشات لبعض ردود الأفعال المباشرة والمناوئة للبيت والعالم وأجوبة الكاتب عليها، انظر «محق ري Mohik K. Ray» «طاغور والبيت والعالم»: فلسفة الجمال منجزة بناء على طلب «وباريد ياران غوش Barid Baran Ghosh» البيت والعالم ورسالتين مجهولتي الاسم إصدار راما كوندو Rama Kundu. البيت والعالم: وجهات نظر انتقادية (نيودلهي: نادي كتاب آسيا ٢٠٠١).

وتفسير أو إعطاء مثل أخلاقي مفاده أن أي امرأة تخون زوجها حتى لو كانت الخيانة معنوية فهي ستواجه كارثة لا مفر منها. إنها قصة تختلف عن حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي، فهي لا تكوِّن مبادىءَ ومعاييرَ للسلوكيات بل الانحرافات عنها لذلك ليس هناك من سبب إذاً لنقرأ في البيت والعالم صوراً وأمثلة نموذجية عن النزعات الإنسانية الطبيعية وتفاعلاتها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الأول

بيمـالا

آه يا أمي الحبيبة، لا أزال إلى اليوم أذكر ذاك اللون القرمزي على مفرق شعرك، وساريك الفضفاض بحوافه الحمراء، وعيونك الهادئة اللطيفة والعميقة التي تضيء في قلبي أنوار الفجر القرمزية. لقد بدأتُ رحلة حياتي وأنا زاخرة بهذا الثروة البراقة كوهج الذهب، أمّا بعد ذلك؟ هل انقضّت الغيوم الداكنة كاللصوص لتختطفها وتذهب بها بعيداً دون أن توفر لي شعاعاً واحداً من ذاك الضياء؟ هذه الهبة من فضيلة أمي في ربيع حياتي، قد تصاب بالكسوف من جراء عاصفة، لكن هل يمكن أن تُدمَّر؟

صفة الجمال في بلادي هي للشقراء فقط، لكن السماء التي تهبنا النور هي داكنة الزرقة، ووالدتي سمراء البشرة لكنها كانت تشع عفة وطهارة، فسحرها قد يُخجل غطرسة الجمال نفسه.

كل شخص كان يقول إنني أشبه أمي، فكنتُ في طفولتي أعاتب مرآتي أحياناً لهذا السبب؛ إذ كنتُ أشعر أنني مظلومة بطريقة ما وكأن لون بشرتي لم يكن لوني الحقيقي، وأنه يعود لشخص آخر وأن فيه خطأ مؤكداً.

لم أكن جميلة لكنني كنت أصلي إلى الله بحماسة من أجل نعمة واحدة فقط هي أن أعرَف كزوجة فاضلة (تحرق نفسها) [١] مثل أمي تماماً. عندما تم ترتيب زواجي جاء إليّ منجِّم من بيت حماي وقرأ طالعي وقال إن نجومي

---

(١) تضحية تقوم بها الأرملة بحرق نفسها بعد وفاة زوجها في الطقوس الهندوسية.

تبشر بمستقبل ميمون وبالنجاح، وإني سأصبح زوجة مخلصة. فقالت النساء جميعها: «طبعاً ستكون مخلصة، ستشبه والدتها في نهاية الأمر».

لقد تزوجتُ من عائلة راجا التي تعود أمجادها إلى أجيال خلت، وصولاً إلى زمن البادشاه. لقد سمعتُ في طفولتي عن أمراء الحكايا الشعبية ورسخ بعض من صورهم في مخيلتي، حيث يبدو الأمير فيها ذا جسد خُلِقَ حتماً من زهور نخيل الزينة، ووجهه دقيق السمات، ثمرة لاستجابة الرب شيفا للصلوات المركزة التي كانت تتضرع من خلالها عذراوات العصور السحيقة من أجل أن يرسل لهن الزوج المثالي بعينيه الساحرتين وأنفه الدقيق مع أثر باهت لشارب الشباب على وجهه بحيث يبدو ناعماً وداكناً كجناح نحلة.

عندما رأيتُ زوجي، لم يستوفِ تماماً هذا الوصف. والأمر الأسوأ أن بشرته كانت سمراء كبشرتي تماماً. ساعدني ذلك على التحرر من عقدتي المتعلقة بشكلي العام، لكنني في الوقت نفسه تحسرتُ بعمق، كان من الممكن أن أموت عذاباً لأنني لا أمتلك الجمال، لكن لماذا لا يكون لي أن أرى بعيني أمير أحلامي؟؟

ربما أفضل للجمال أن يتجنب يقظة العيون البصيرة ويتجلى خلسة في القلب، حيث يحتل هناك مقاماً في صدر جنة الإخلاص، ويتحرر من حاجته لأي نوع من أنواع الزينة. لقد رأيتُ في طفولتي كيف يشعّ جمال الإخلاص على كل ما حوله جاعلاً كل شيء جميلاً. كانت والدتي تقشر الفاكهة خصيصاً لوالدي وترتبها في طبق حجري كبير أبيض وتغطيها بحنان بقطعة قماش تذر رذاذاً من ماء الكيورا[١] وتبعد عنه الذباب بلطف بواسطة مروحة من ورق النخيل بينما هو يأكل. كنتُ أستطيعُ التفهم حتى وأنا طفلة كيف أن عنايتها النقية اللطيفة والشعاع الجاهز من عطر الآلهة الذي يتدفق من قلبها يندمج في بحر من جمال لا يضاهى.

---

(١) Keora

هل كان قلبي غير متناغم مع مثل هذا التفاني؟ بل كان متناغماً، لم يكن عندي أي تساؤل أو أي نزاع داخلي ولا حتى أية محاولة للتحليل، بل أحاسيس في انسجام متناغم وحيد ومتميّز. إن كان هناك شيء ذو شأن في حياتي قد تم غناؤه كأنشودة فريدة عند عتبة معبد خالقي، فهو حينذاك لحن الصباح الذي بدأ يفي بعهده مبكراً في حياتي.

أذكر أنني عندما كنت أستيقظ فجراً وألمس قدم زوجي بحذر خشية أن أوقظه، كنت كعادتي أتلمس اللون القرمزي في شعري الذي كان يبرق كنجمة الصباح.

استيقظَ زوجي ذات يوم وبادر بسؤالي مبتسماً، «ما هذا يا بيمال؟ ماذا تفعلين؟» لن أنسى ما حييت ذاك الارتباك الذي حصل لي. ربما اعتقدَ حينها أنني أحاول خلسة أن أكتسب التقوى. لكن لا، لا! لم يكن الموضوع مسألة تقى – لقد كان فقط قلبي كامرأة يعبِّر عن حبه عبر الوفاء والإخلاص.

كانت عائلة زوجي تقليدية جداً، يعود بعض من آداب المعاشرة وقواعد التشريفات عندها إلى المغول والبتهان[١]كما أن بعضاً من عاداتها وأعرافها وقوانينها تعود إلى مانو وباراشار[٢]. لكن زوجي كان عصرياً بامتياز. كان أول فرد في العائلة قد تثقف بالمعنى الحقيقي للكلمة وحصل على شهادة الماجستير. أخواه الأكبر منه سناً واللذان ماتا في وقت مبكر من جراء الإفراط في شرب الكحول، لم يخلفا أولاداً. لم يكن زوجي يشرب الكحول ولم يكن في طباعه وشخصيته أي تهور أو طيش، بل كان متميزاً، ذاتاً شاذةً في عائلته، ولم يكن مقبولاً من كل الأفراد، لأن المعتقد السائد لديهم أن الإنسان دون عيب أو شائبة ينتمي إلى الذين لم تتم مباركتهم تماماً. القمر وحده ذو نزعات خيّرة إلى حد يستطيع عنده أن يسوّي الضعف ويكيفه، لكن النجوم لا تستطيع ذلك.

---

(١) أفغاني مقيم في الهند

(٢) Parashar،Manu

توفى الله والد زوجي منذ زمن بعيد، فأصبحت جدة زوجي بعده سيدة البيت، وكان زوجي كنز قلبها، ونجمة عينها، لذلك تجرأ وتجاوز نظم العائلة،عندما عيّن الآنسة جيلبي كي تكون مرافقتي ومعلمتي. عملتْ بعد ذلك الألسنة عديمة الرحمة في داخل البيت وخارجه على تدمير التناغم في كل المحيط، لكن قراره انتصر في نهاية الأمر.

نال زوجي شهادة البكالوريوس ثم تابع دراسته لنيل شهادة الماجستير. كان عليه أن يعيش في كالكتا كي يحضر الدروس في الكلية. فكان يكتب لي كل يوم تقريباً، وكانت رسائله قصيرة ولغته بسيطة، لكن أحرفه الكاملة والواضحة والتي يشكلها بيده كانت تبدو وكأنها تحدق في وجهي بوداعة وحنان، كنت احتفظ بها في صندوق من خشب الصندل، وكنت أغطيها بزهور حديقتنا التي أقطفها كل يوم.

غدَتْ صورة أمير أسطورتي في هذه الأثناء باهتة تماماً كما يبهت القمر في أشعة الشمس،لأن أمير حياتي الحقيقي قد تربع على عرش قلبي، فكنتُ ملكته وأجلس بقربه، غير أن سعادتي العظمى كانت تكمن في مكاني الصحيح عند قدميه.

أنا إنسانة مثقفة، ومتآلفة مع لغة العصر الحديث وعباراته الاصطلاحية، وما أكتبه يبدو لي الآن شاعرياً إلى حد ما. ولو أنني لم أواجه الظروف الراهنة، لبدت لي مشاعري في ذلك الزمن أكثر نثراً. وأعلم بالفطرة أن قدري المحتوم قد خلقني امرأة وهو أمر خارج عن إرادتي، وأعلم أيضاً إنه أمر طبيعي وبديهي كالقدر بالنسبة إلى امرأة أن تسمو بحبها ليكون ذخراً لإخلاصها وهو ليس بالشأن الاستثنائي المميز أو حدث ملهم من سحر قصيدة شعرية.

أما اليوم فإنني أجد نفسي في زمن آخر ووضع مختلف عما كنت عليه من رحلة الطفولة إلى ريعان الشباب، حيث أبذل جهداً كبيراً لابتداع فنٍ كان

فيما مضى طبيعياً كالتنفس بالنسبة إلي. الرجال المتصوفون في زمننا الراهن يتحدثون دوماً بأفكار متسمة بالغلو عن الميزة الشاعرية الرائعة لإخلاص المرأة المتزوجة لزوجها، وعن عزوف الأرملة عن ملذات الدنيا. يجعلنا هذا الأمر نرى كيف جزأ الجمال والحقيقة طرق حياتنا، وهل يمكننا الآن استرداد الحقيقة باحتكامنا إلى الجمال؟

لا أعتقد أن جميع النساء قد تشكلت شخصياتهنّ في القالب الطبيعي نفسه. لكنني أعلمُ أن قلبي يمتلك الرغبة نفسها في الإخلاص التي كانت عند والدتي. واليوم، ولما اختلف الأمر تماماً عن السابق ولم يعد عندي تلك الرغبة، يمكنني أن أفهم بوضوح هذا الموضوع على أنه كان استجابتي الغريزية.

لم يتح لي زوجي فرصة لأعبده، وتلك كانت عظمته. فالجاسوس الجشع الذي ينتزع المال لمراسم الطقوس في ديار الحج، لا يستحق احترامنا. في الحياة الواقعية، الجبناء فقط هم الذين يطلبون التبجيل المطلق من زوجاتهم على أنه حق لهم، وهي مذلة كبيرة للطرفين المخلص والشخص الآخر موضوع الإخلاص.

وأتساءل اليوم، لماذا كنتُ محاطة بهذا القدر من العناية؟ كما لو أن حبه يغمرني عندما يفيض سخاءً عبر الوصيفات والخادمات، وعبر الثياب والزينة والمتاع والتجهيزات. كيف كان من الممكن أن أحرر نفسي من هذا الحمل وأكرِّس نفسي له؟ كنت بحاجة لفرصة العطاء أكثر بكثير من حاجتي لفرصة التلقي. فالحب بطبيعته الحقيقية بريء من القيود الدنيوية، فهو يتفتح في عدد لا يحصى من الزهور على جانب طريق مغبر في الحياة، ولا يمكن له أن يزهر داخل مساحة ضيقة في حوض من الخزف ضمن قاعة الاستقبال.

لم يستطع زوجي تجاهل كل العادات القديمة ولا التخلي عن التقاليد السائدة في الأسرة. لم يكن ممكناً لكلينا أن نتقابل بكل صراحة وحرية خلال النهار. كنت أعلم متى كان يود مقابلتي فكنت أهيىء نفسي وأتزين لأبدو

بأبهى حلة تليق بموعد الحب. فكان لقاؤنا كنظم قصيدة، مقيّد بنموذج معيّن من موازين الشعر. وعندما كنتُ أنهي عملي اليومي الخفيف في المنزل، أسرع لأستحم وأسرِّح شعري ليبدو أنيقاً أملسَ ناعماً، وأجدِّد العلامة القرمزية على جبيني، وأرتدي الساري بعد أن أحكم طياته بعناية، وأستعيدُ مزاجي اللاهي وجسدي من العمل المنزلي لأهبه لإنسان واحد كما لو كان على طبق من ذهب في وقت مخصص من اليوم. ورغم أنه لم يكن لدينا سوى أوقات قليلة لنتمتع بها، غير أنها رغم قصرها كانت تبدو لنا لا متناهية.

كان زوجي مؤمناً على الدوام بفكرة ثابتة هي أن الرجال والنساء لهم الواجبات نفسها تجاه بعضهم بعضاً، وبناء عليه يكون لهم الحقوق نفسها لأنهم متساوون في الحب. لم أجادل في ذلك أبداً، لكن غريزتي تقول إن الإخلاص لا يعيق المساواة، بل في الواقع، يرفع مستوى الأرض التي يلتقيان عليها ويخوِّل المحب الوصول إلى مستوى الآخر نفسه ويجعل الاثنين متساويين، وتظل السعادة في بلوغ المساواة نهجاً مستحباً كي لا تتحول العلاقة إلى شأن رتيب عديم الأهمية. أما الحب المتوقد المخلص فهو قنديل ليل ينير بضيائه هياكل العبادة، لأنه يشع بالتساوي على المخلص وعلى من اُخلص له. وإني لمتأكدة اليوم أن حب المرأة يمجَّد لأنه يمجِّد حبيبها – وقد يصبح عاراً إن لم يكن على هذا النحو. عندما يتوهج مصباح حبنا، فإن ذروة لهبه تتجه صعداً، والزيت المحترق هو وحده الذي يسيل قطرات إلى الأسفل.

يا حبيبي الغالي، رفضك لعبادتي كان من شيم قيمك، لكن لو قبلتها لكان فضلك عليّ أكبر. لقد عبّرتَ عن حبك لي بتزييني وتثقيفي وإعطائي ما أطلبه وما لا أطلبه، وأعرف سهد الليالي التي أمضيتها حباً لي. لقد عبدتَ جسدي كنبتة أزلية سماوية، وأحببتَ طبيعتي كأنها هبة الأقدار إليك. أشعر بالفخر لهذا الفيض، وأشعر بالفتنة والسحر وبحسن طالعي الذي حملك إلى بابي. فتربعتُ على العرش كالملكة المتوجة، وفرضتُ عليكَ آيات الخضوع ومطالبي التي ظلت في تزايد لا تعرف لها حدوداً.

هل تجد النساء متعة في السيطرة على الرجال، أم تجدها مجرد وسيلة لتوفير الراحة والأمان؟ ربما يكمن حفظ الفضيلة في دفع الكبرياء للتواضع أمام التقوى والإخلاص.

وقف الإله شيفا[١] أمام باب آنابورنا[٢] على أنه مجرد متسول بسيط، لكن هل كان باستطاعة آنابورنا أن تقاوم شدة ذاك الفقر اللاذع لو لم تصلِّ من أجل زوج مثله؟

تحضرني اليوم ذكرى نيران الحسد التي ثارت بين أقربائنا بسبب حظي السعيد. كان الأمر طبيعياً بالنسبة إليهم أن يغاروا لأني مهما يكن حصلت على سعادتي بمحض المصادفة، وربما دون استحقاق. كنت أعلم أنه لا يمكنني أن أمضي هكذا بسهولة إلى الأبد دونما دفع الثمن، ولن يسمح الله بغير ذلك. على المرء أن يفي دينه عما رُزِقَ من نِعَم، يوماً بيوم ولسنين طويلة؛ عندها فقط تصبح الحقوق ثابتة لا ريب فيها. الله يمنحنا الهبات لأنها إرادته، لكن يتوجب علينا استحقاقها لكي نملكها ونحتفظ بها. فوا أسفاه على النعم التي تنزلق من أياد غير جديرة بها، لنندب بعدها سوء طالعنا!

تحسَّر آباء العديد من البنات بمرارة حسداً من حظي السعيد، لأنني لا أمتلك أي نوع من حسن المظهر أو أية موهبة تجعلني أستحقُ مكانة في هذه العائلة، لدرجة أضحى فيها هذا الأمر موضوعاً حساساً على نحو موجع في كل بيوت الجوار. كانت حماتي ووالدتها مشهورتين بجمالهما الاستثنائي الأخاذ. وكانت سلفتاي أرملتين نادرتي الجمال. لكن عندما صدمتا بالفجيعة واحدة تلو الأخرى، أخذت جدة زوجي عهداً على نفسها ألا تبحث عن فتاة جميلة من أجل حفيدها الذي كان لا يزال عازباً. كان باستطاعتي أن أدخل هذا البيت كعروس فقط بسبب قوة آيات حسن الطالع المبشرة بالخير والتي لولاها لما حظيت بشيء.

---

(١) Lord Shiva

(٢) Annapurna

في هذه العائلة المنغمسة في الملذات الدنيوية، قلة قليلة جداً من النساء كن يتلقين حقهن من الاحترام الواجب تجاههن. لكنني أعتقدُ أن ذلك هو قانون هذا البيت وقد ألِفنَ عاداته. لهذا السبب، حتى عندما كن يتخلصن من أحزانهن تحت زبد الخمر ورنين خلاخيل المومسات، استطعن أن يبقين رؤوسهن مرفوعة باعتزاز وكبرياء خالصة لكونهن سيدات عائلة مرموقة ذات مقام رفيع. فهل كان بفضل مني أن زوجي لم يقرب الخمر كما أنه لم يلوث رجولته ولم يعرِّضها للشبهة بالجري وراء شهواته لاقتناص الجسد الأنثوي في ظروف تُعرَض فيها الخطيئة للبيع؟ ما هي الأنشودة السحرية التي ألهمني إياها الله لأسيطر على سلوك الرجال الجامح والمتقلب وصعب المراس؟ ألم يكن الأمر سوى ضربة حظ لا أكثر ولا أقل؟ لماذا لم يكن هذا القدر في إدراكه وحسن تقديره عندما تبددت ثروة تلك النساء الأخريات؟ لقد انحرفت خطوط مجرى حياتهن وانقلبت، وانتهى فرحهن بالمتعة الجسدية قبل أن يبدأ الليل، واحترق نور شبابهن وجمالهن بلا أمل في ظلمة حياتهن الخاوية من النغم والعامرة بالألم.

كانت سلفتاي تسخران من أفكار زوجي ومن رجولته: «من كان يتصوَّر أن يقاد مركب أسرة، عريقة بثقل مكانتها وأمجادها، ويكون شراعه ساري زوجته!» لقد كنتُ على الدوام موضع تهكمهما وسخريتهما – وكأنني كنت باستمرار أسرق حب زوجي لي! أو كأنني أمثل لهما صفاقة الزوجات العصريات – مخادعة متصنعة وزائفة! كان زوجي يحب أن يلبسني ثياباً منسجمة مع الدُرْجَة المعاصرة. فكانتا تتحرقان حسداً وغيرة عندما تشاهدان تنظيم ملابسي وعلى الأخص صفوف السواري التي كنت أمتلكها والتنانير والستر من مختلف الألوان الحديثة – وكأنهما تريدان القول بأنني إنسانة عادية بسيطة ليس من حقي أن أزهو بهذه الأناقة التافهة حسب رأيهما. كانتا تودان الإعلان بقوة أنني غير محتشمة عندما أعرض جسدي للعيان كبضاعة للبيع: «ألا تستحي أن تجعل من نفسها شباك متجر وهي بهذا المنظر؟»

كان زوجي يعلم كل شيء لكنه كان يتعاطف مع النساء بمشاركة وجدانية لأن طيبته لم تعرف حدوداً. فكان يتوسل إلي بإلحاح كي أسامحهما حتى أتجاوز الإساءة ولا أشعر بها. أذكرُ ذات مرة أنني قلت له: «إن عقول النساء ضيقة الأفق ومعوجة»، فأجابني بأن أقدام النساء الصينيات هي كذلك صغيرة ومشوهة، ومجتمعنا هو المسؤول عن محاصرة النساء من كل الجهات كي يجعل منهن ذوات عقول ضيقة محدودة ومنحرفة. القدر يقامر بحياتهن – وكل شيء هو رهن رمية النرد. هل يمتلكن أية حقوق؟»

كانت سِلفتاي تحصلان على كل ما تطلبانه من زوجي. وكان سريع الاستجابة لم يكن حتى يتريث للتيقن إن كان ما تطلبانه معقولاً ومشروعاً. وأشد ما كان يثير غضبي أنهما لم تكونا تقرّان بالجميل. حتى أن سِلفتي الكبيرة[١]، والتي كانت تقيم كل الطقوس الشعائرية في الصلاة والتأمل والصيام والزهد الذي أصبح خاصاً بالأرامل، معبِّرة عن نكران ذاتها بالكلام أكثر منه بالقلب، كانت تتعمد الإعلان على مسمعي ما نصحها به أخوها المحامي، الذي قال لها إنها لو تقدمت بدعوى إلى المحكمة.... كما قالت أشياء كثيرة، لا يمكنني أن أكتبها كلها. لقد وعدتُ زوجي بألا أرد أبداً على ما تقولانه. – لذلك أصبح عذابي وضعاً لا يحتمل، وشعرتُ أن للطيبة حدوداً إن تم تجاوزها أنقصت من الرجولة الشيء الكثير.

كان زوجي يقول إن المجتمع والقانون لا يدعمان سلفتيَّ. عندما كان زوجاهما على قيد الحياة كانتا تستطيعان أن تنالا بعض الحقوق كهبة. أما

---

(١) كان لبيمالا سلفتان وكلاهما اكبر منها سناً. وسيشار إليهما خلال الرواية بالسلفة العجوز والسلفة الكبيرة. كما يتم مخاطبتهما من قبل العديد من الأشخاص بالأميرة الكبيرة والأميرة العجوز باروراني Barorani وميجوراني Mejorani أو باروراانيما Baroranima وميجورانيما Mejoranima أو أيضاً باروراانيديدي Baroranididi وميجورانيديدي Mejoranididi. كذلك الأمر بالنسبة إلى بيمالا فهي تخاطَب بالأميرة الصغيرة Chotorani أو شوتورانيما Chotoranima.

الآن، فللمطالبة بهذه الحقوق نفسها ينبغي عليهما أن تسألا وتسترضيا وأن تكونا تحت رحمة أناس آخرين. كان ذلك منتهى الإذلال بالنسبة إليهن. فأن نتوقع منهما التعبير عن امتنانهما من أجل القليل مما تبقى لهما كان كمن يطلب من أحدهم أن يحيِّك ويدفع بقشيشاً بعد أن تكون قد جلدته.... ينبغي أن أقول الحقيقة، أعتقد أنه كان على زوجي أن يمتلك الشجاعة كي يكون أقل كرماً وطيبة.

كانت سلفتي الصغرى ذات شخصية مختلفة، فهي كانت أكثر شباباً لذلك لم تكن تدّعي لا الزهد ولا القداسة. بل كان مزاحها وضحكها أقرب إلى الجرأة، وكان لحديثها ومزاجها وقع غير مألوف علينا. لم أكن أؤيد أساليب الوصيفات اللَّواتي كانت تحيط نفسها بهن ولا الشابات اللواتي كانت تستخدمهن، لكن لم يكن ثمة أحد يعترض، ألم يكن هذا دستور البيت؟ كنت أعرف أن حظي النادر الذي وهبني زوجاً نقياً كان أمراً غير محتمل وشهرته النظيفة كانت تقرِّح جفنيها، واعتادت أن تنصب على دربه أفخاخاً.

كنتُ أشعر بقلق نفسي تجاه زوجي، وينتابني الخجل من ذلك الشعور، فالجو بمجمله كان ضبابياً ولم تبدُ لي الأمور الطبيعية بتلك الشفافية المفترضة. كانت سلفتي تدعو سلفها أحياناً لتناول طعامٍ قد طهته بنفسها، وكنتُ أتمنى أن يقدِّم لها أعذاراً وألا يذهب إليها، لكنه في كل مرة كان يلبّي الدعوة مع ابتسامة ليفي بوعده؛ يستحق خبثها في نهاية الأمر بعضاً من جزاء... كنت اضطربُ من ذلك... وأعلمُ أنه خطئي لكن لم يكن بمقدوري أن أروِّض نفسي على هذه الأمور. كنتُ أعتقد أن التمرد في طبيعة الرجال هو شأن فطري غريزي. وحتى لو كان لدي مائة من الأشياء الأخرى الواجب عليَّ انجازها في ذلك الوقت، كنت أختلِقُ الأعذار للذهاب والجلوس في غرفة سلفتي. وكانت تقول لي مازحة إن زوجي لا يستطيع أن تفوته ملاحظة أو أن يشيح بنظره عن الأم

الصغرى[1] حتى ولا للحظة. هما أيضاً كان لديهما زوجان ليس من زمن بعيد، لكن لم يعتادا أبداً على حراستهما بهذه الطريقة!..

كان زوجي باستطاعته أن يرى فقط التعاسة التي تلف حياتهما، لكنه كان كليل النظر عن عيوبهما. صحيح أن وضعهما هو نتيجة مثالب المجتمع، لكن هل من الضروري أن يبدي زوجي لهما كل هذا التعاطف؟ حتى لو أن الكائن البشري عليه أن يتألم هذا لا يعني... لكن كان من المستحيل أن أسجل هدفاً ضده. عوضاً عن المناقشة كان يكتفي بالابتسامة فقط. ربما عرف أن هناك شيئاً ما يوخز في قلبي ويشعرني بالضيق. لم يكن غضبي موجهاً إلى المجتمع ولا إلى أي إنسان آخر بل كان موجهاً فقط إلى... عليّ ألا أتحدث عن هذه الأمور...

شرح لي زوجي ذات يوم ما يلي:

- «لو كانتا حقيقة تعتقدان أن خصالك وقسمات وجهك المرفوضة على أنها في منتهى القبح لما كانتا بهذا الكيد ضدها».
- «لكن وماذا عن الغضب غير المبرر؟»
- «كيف يمكن لي القول إنهما ظالمتان؟ هناك عدل في الحسد يفترض ضمناً أن السعادة هي حق لكل شخص».
- «لكن لماذا لا تناضلان من أجل حياة أفضل بالتوجه إلى الله عوضاً عن التوجه إليّ ومحاربتي؟»
- «لأن الإنسان ليس لديه الحرية المطلقة للوصول إليه».
- «لماذا إذن لا تأخذان ما ترغبان به؟ فأنتَ في نهاية الأمر لا تريد حرمانهما من شيء. لماذا لا ترتديان الساري والسُتر والزينة والجوارب والأحذية؟ وإن تبغيا الدراسة على يد المِمْصاحب[2]

---

(١) الشوتوراني - Chotorani أي الأميرة الصغيرة.

(٢) سيدة أجنبية بيضاء وبخاصة بريطانية.

فهناك واحدة في المنزل جاهزة ومتاحة لهما. حتى لو رغبتا في الزواج ثانية... حسناً، ومثل فيدياساغار[1]، أنتَ تملك الوسائل لإتمام كل ذلك ».

- «حتى لو أن ما يرغبان فعله قدِّم إليهما على طبق، فلن يستفيدا منه، ففي الكذب فخ أكيد».

- «هل هما تريدان أن تتظاهرا بالخجل والاحتشام في كل وقت؟ وإن لم تحصلا على شيء فهذا أمر سيء ثم تتحرقان حسداً إن امتلكنا نحن ذلك؟»

- «هكذا تكون الأمور بالنسبة إلى شخص محروم يريد الوصول إلى وضع أفضل من حالته المعدمة المحرومة. إنه نوع من المواساة والسلوان فقط لا غير».

- «مهما يمكنكَ قوله، فإنني أجد النساء بالأحرى تائهات. لا يردن أن يسلمن بالحقيقة وهن على الدوام مزيفات».

- «هذا يعني في النهاية أن النساء هن الأكثر حرماناً».

كنت أغضب دوماً عندما كان زوجي يصرف النظر عن سوء النية وعن تفاهة النساء في الحياة المنزلية بهذه الطريقة. فلا فائدة من الحلم بمجتمع مثالي، إنه من عالم الأوهام.

كيف كان يمكن لي أن أشعر بالمحبة مع كل هذه الأشواك التي اعترضت طريقي؟ - السخرية اللاذعة والتلميح الحاد مع التعريض والغمز لإذلالي بكلام لطيف....

عندما سمع كل ما تحدثت عنه قال:

---

(١) إيشوارشاندرا فيدياساغار Ishwarchandra Vidyasagar (١٨٢٠-١٨٩١) كان مصلحاً اجتماعياً في البنغال في القرن التاسع عشر، حاول ان يلغي قانون منع النساء الأرامل من الزواج ثانية.

- «كل سماحتك تظهر بوضوح في مسائل تؤثر فيك شخصياً وتحرك مشاعرك. لكن طالما أنك لا تجدين أي سبب أو داع للتعاطف مع أشخاص قد تأذوا من الظلم الاجتماعي، لماذا ينبغي على أولئك الذين تأذوا من الترمل والحرمان أن يصبروا ويتحملوا كل هذا الظلم والاضطهاد؟»
- «كفى. ربما أكون ذات تفكير محدود. كل فرد ما عداي هو شخص جيد»، هذا كان ردي غاضبة:
- «فأنتَ لست مجبراً على العيش في أندرمحل[١] لذلك غابت عنك أشياء كثيرة».

بمجرد محاولتي الكلام عن حادث نوعي ينهض ويقول إن شاندرانات بابو[٢] ينتظره منذ مدة طويلة.

جلستُ بعد ذلك وأطلقتُ العنان لدموعي. كيف يمكنني متابعة العيش وأنا أشعر بضعفي في مواجهته؟ لم يكن أمامي أسلوب أتبعه لأبرهن له أنني لن أحذو حذو سلفتيّ حتى لو أنني نكبت مثلهما.

كنتُ أتمنى أحياناً لو أن أولئك النسوة يملكن نعمة الافتخار بمظهرهن، قد يوفرن الحديث عن سوء الطالع الذي أصابهن في مناحي أخرى من الحياة. قد أتباهى بحلي الذهب والألماس لكن ذلك ليس له أي معنى في عائلة راجا. التباهي والافتخار كان في إخلاص الزوجة فقط. وكنت أعلمُ أن حتى زوجي كان يتوجب عليه أن يقبل بالهزيمة عندما يكون إخلاصه لي هو المعني في موضوع النقاش. لكن كلما كنتُ أحاول أن أحدثه عن أي نوع من التخاصم

---

(١) الأقسام الداخلية من البيت، التي كانت بشكل أساسي مكان إقامة النساء وحيث كان محرماً عليهن أن يجلن خارجه. التعبير المستخدم في النص البنغالي هو«أنتابور antahpur» بينما استخدم سوتندرانات طاغور الأوردو بكلمة «زينانا». في العربية يسمى الحرملك.

(٢) Chandranathbabu هو الماستر موشه أستاذ المهراج.

والتشاجر في العائلة كنتُ أنا دائماً التي تشعر بالهزيمة من قوة حجته وبرهانه. بالمقابل كنت أود هزيمته وكنت أقول بيني وبين نفسي «لن أعتبر كل ما تقوله لي إنه صحيح لأنني أعتقد أنه صادر من صميم براءتك، لكن يا حبيبي، هذا ليس عملاً خيرياً طوعياً، إنه فقط انخداعك من قبل الآخرين.

كان زوجي شديد التحمس والثقة بإمكانياتي في المبادرة للخروج من أندرمحل والمضي قدماً إلى الأمام. سألته ذات يوم:

- «ما حاجتي أنا إلى العالم الخارجي؟» فأجابني:
- «لعل العالم الخارجي يحتاجك». فاعترضتُ قائلة:
- «إن كان العالم الخارجي قد أنجز بدوني منذ زمن بعيد فهو بإمكانه أن يستمر على هذا الحال بقية الدهر بدوني أيضاً، فهو لن يهلك نفسه لاهثاً في طلبي».
- «قد أجد نفسي معنياً لو دمَّر العالم نفسه – لكني أفكر في نفسي شخصياً وقلق بشأنه».
- «أحقيقة ما تقول! ماذا لديك كي تقلق بشأنه؟»

ابتسم زوجي ولم يرد. لقد كنتُ أعرف حق المعرفة أساليبه، لذلك واصلت الإلحاح وتمسكتُ برأيي:

- «كلا، لن تخدعني بصمتك، عليك أن تفصل في هذه المسألة قبل أن تذهب».
- «هل يمكن الإجابة على كل شيء بكلمات؟ الكثير من الأشياء في الحياة تبقى غير مكتملة».
- «لا تتحدث بالألغاز، أجب على سؤالي من فضلك».
- «أريد لكلينا أن نعيد اكتشاف بعضنا بعضاً في العالم أبعد من أندرمحل[1]. لدينا الكثير من القضايا والأعمال غير المنجزة هناك».
- «لماذا، هل هناك أي نقص أو تقصير في التفاعل داخل البيت؟»

---

(١) الحرملك في القسم الداخلي من البيت وخاص بالنساء.

- «لقد أحطتُ بحياتك فِي هذا البيت وجعلتها ذاخرة بكل شيء، فكانت عيناكِ كليلتين وأذناك بهما صمم لأي شيء وأي إنسان آخر – أصبحتِ منطوية، لا تعرفين ماذا تملكين ولا من تريدين، وحتى أنك لا تعلمين على من حصلتِ.»
- «آه، أعلم، أعلم.»
- «تعتقدين أنكِ تعلمين، لكنك حتى لا تعلمين إن كنتِ تعلمين أم لا».
- «لو سمحت من فضلك، أنا لا أحتمل تحدثك معي على هذا النحو».
- «لهذا السبب لم أكن أريد التحدث في أي شيء».
- «إنه أصعب عليّ تحمل صمتكَ».
- «ماذا إذاً؟ عليّ ألا أتكلم وألا أظل صامتاً؟ لكني أتمنى عليكِ أن تخرجي إلى العالم الخارجي يوماً ما كي تفهميه وتلتقي بالحقيقة كلها. من أجلك أنتِ من أجل شخصيتكِ أنتِ. إنكِ لم تُخلقي لتقومي فقط بالمهمات المنزلية الروتينية وتقبعي داخل مساحة وهمية لتعيشي في عالم التقاليد القديمة. ومن أجلي أنا أيضاً، ومن أجل حبنا، فحبنا لبعضنا بعضاً سيكون حباً جديراً بنا عندما تثبت علاقتنا في واقع العالم الخارجي».
- «ربما أنتَ تريد أن تكيف نفسكَ مع أمور لا تعرفها عني، لكنني لا أشعر بحاجة ما تنقصني!..»
- «اتفقنا، هبي أنني وحدي الذي أشعر بنقص في علاقتي بك، لماذا لا تكملينها لي أنت بنفسكِ؟»

تكرر هذا الجدل مرات عديدة، لكنه كان يتخذ أشكالاً مختلفة. كان يقول لي إن الرجل الذي يحب السمكة بالكاري، يطهي السمكة بتقطيعها أولاً ثم بقليها أو سلقها ويضيف إليها البهارات ليحسِّن طعمها. أما الرجل الذي يحب السمكة حباً حقيقياً - لا يبغي طهيها في مقلاة معدنية ويقدمها في وعاء حجري- إنه يفضل أن تكون له وهي حرة في الماء، وإذا لم يتسنَّ له ذلك

فهو ينتظر بصبر على ضفاف النهر. وعندما يعود إلى البيت، فهو له السلوان والمواساة لأنه حتى في حال لم يحصل على ما كان يريد، لكنه على الأقل لم يشوِّهها أو يدمرها من أجل غاياته الأنانية. من الأفضل أن يحصل المرء على السمكة كاملة، لكن إن لم يكن ذلك ممكناً، ففقدانها أفضل من تقطيعها إرباً.

لم أحب سماع هذه الأحاديث أبداً ولا أميل لأسلوب زوجي في تناول هذا الموضوع، لكن ليس هذا السبب الذي من أجله قاومت خروجي من أندرمحل.

كانت جدة زوجي لا تزال على قيد الحياة. ورغم معارضتها، قام زوجي بملء المنزل بحاجيات القرن العشرين، فتحملتْ ذلك دون أن تشكو، ربما كانت تسامحت أيضاً مع كنة العائلة المالكة إن هي تخلت عن حجابها وخرجت، الأمر الذي قد يحصل آجلاً أم آجلاً، لكنني أتساءل هل الموضوع بهذه الأهمية وهل يستحق مني أن أجرح مشاعرها بسببه؟ لقد قرأتُ في الكتب بأننا مثل العصافير في القفص، لكني كنتُ أجدُ في قفصي هذا ما لا يتسع له الكون، وأنا لا أطالب بمعرفة أحوال غيري، لأن عالمي كان ذاخراً أغناني عن كل عجائب الدنيا؛ هذا ما كنتُ أعتقده في تلك الفترة على الأقل.

كان هناك سبب حيوي واحد جعل جدة زوجي تحبني إلى هذا الحد. كانت تعتقد أنني كنت قادرة على اجتذاب حب زوجي بفضل صفاتي المتميزة بالدرجة الأولى، وبفضل حسن طالعي وترتيب النجوم. وطبيعة الرجال بشكل خاص تشدهم إلى تحطيم أنفسهم بسبب إفراطهم بكل شيء. على أي حال لم تستطع كناتها الأخريات بحال من الأحوال أن يجذبن أزواجهن إلى البيت مع كل ما يتمتعن به من جمال وصبا. فحطمنَ أنفسهنَّ بلهيب ذنوبهنَّ، ولم يستطع أحد إنقاذهنّ. أما أنا، وبمجرد دخولي في هذه العائلة، أخمدتُ تلك النار المحرقة التي كان قد أشعلها رجالها، لهذا السبب منحتني كامل رعايتها كأم لي، وكانت تبدي قلقاً شديداً عند أدنى علامة تدل على انزعاجي أو توعكي..

لم يكن يروق لها على الإطلاق ما كان يجلبه لي زوجي من زينة وملابس من المخازن الانكليزية من أجل تزيني، لكنها كانت تعزي نفسها معتقدة بأنه لا بد للرجال من هواية ما تافهة يبعثرون بها أموالهم، ولا فائدة في محاولة الحدِّ من إسرافهم، يكفي أنهم لا يجلبون الخراب لأنفسهم، لذلك كانت تقول: «سوف لن أحاول منعه من ذلك لأنه قد يكون تعويضاً أو فدية عن تدمير نفسه وكل نهج حياته. لو أن حفيدي نيكهيليش[١] لم يزيّن زوجته لكان زين امرأة أخرى». فكان كلما اشترى لي سارياً جديداً ترسل في طلبه وتمازحه وتداعبه وتشد ساقه. وقد نتج كل ذلك في نهاية الأمر عن تحوّل وتطوّر في ذوقها؛ فشكراً لتأثير الزمن المعاصر، لأنها أصبحت تأبى أن تمر أماسيها دون أن تقرأ لها كنتها قصصاً من كتب انكليزية.

أراد زوجي بعد وفاتها أن ننتقل معاً لنعيش في كالكتا. لكني لم أستطع أن أقنع نفسي بالإقدام على هذه الخطوة. لقد كان هذا المسكن وما حوله من أرض موروثاً عن الأجداد. لقد أحاطته الجدة بعنايتها وحافظت عليه بحبها ورعايتها على مدى السنين وسط الكثير من الأحزان والنزاعات. لقد شعرتُ مراراً أنني لو تخليتُ عن مسؤوليتي إلى مهب الرياح وذهبت إلى كالكتا، قد أجلب لنفسي اللعنة. كان كرسيها الشاغر يحدق في وجهي بعتاب. لقد جاءت هذه الإنسانة القديسة إلى هذا المنزل في الثامنة من عمرها وتوفيت في التاسعة والسبعين منه. لم تكن حياتها سعيدة. لقد أصابها القضاء والقدر بمصيبة تلو الأخرى لكن كلما احترق لها جناح تسمو لتجدد الحياة وتبعث الأمل، لقد تطهر هذا البيت الكبير وتقدَّس من فضائل دموعها. هل أتركُ كل ذلك خلفي، وما عساي فاعلة وسط ضوضاء كالكتا؟

كان زوجي يعتقد بأننا يمكن أن نستغل هذه الفرصة لنقل قيادة إدارة المنزل إلى سلفتيَّ، الأمر الذي قد يمنحهما بعض العزاء والسلوان ويعطينا مجالاً أوسع نمارس فيه نشاطاتنا في كالكتا. وهذا تحديداً الأمر الذي لم أوافق عليه.

---

(١) Nikhilesh

هل ستُكافأ سلفتايَ على ما سببتاه لي من ألم وعلى عدم تحملهما سعادة زوجي؟

ثم ماذا عن اليوم الذي سنعود فيه هل أستردُّ مكانتي كسيدة البيت؟ كان زوجي يقول لي ويردد: «ما حاجتك إلى هذا الموقع؟ أليس في الحياة أشياء أثمن بكثير من ذلك؟»

بالإضافة إلى كل ذلك هنا منزلي الكبير الأليف، فيه كل أشيائنا وفيه نقابل الناس الذين ندعمهم ونقدم لهم العون المالي والمأوى وموظفينا وضيوفنا المحترمين الشرفاء، كل ذلك يجعلني أتشبث بفكرة الاعتصام في كنف هذا البيت. لن يكون لنا هذا الموقع القوي في كالكتا، كما أن الناس هناك لا يعرفون عنا أي شيء. نحن هنا رموز لها مقامها وهيبتها وثروتها. هل يمكنني أن أترك كل ذلك في أيديهما وأذهب إلى المنفى مثل سيتا[١]؟ ألن تضحكا وتسخرا مني في غيابي؟ هل استطاعتا الوصول إلى مستوى الفهم أو هل كانتا مستحقتيْن لشهامة زوجي وسماحته ورحابة صدره؟

فقلتُ في نفسي إن الرجال لا يفهمون هذه الأمور بشكلها الحقيقي أبداً. إنهم يظلون فقط في الهوامش الخارجية للحياة المنزلية ولا يعرفون حقاً كل ما يمثله البيت لنا، ففي المسائل الداخلية عليهم أن يتصرفوا تبعاً لما نمليه عليهم. فكان لب المسألة في نظري أنه على الإنسان أن يبدي أولاً روحاً معنوية شجاعة ويدافع عن حقوقه، فسألتُ نفسي: هل تتركين أولئك الناس يسيطرون على كل شيء وهم الذين كانوا أعداءكِ كل هذه السنين؟ هذا يساوي اعترافك بالهزيمة! حتى لو أن زوجي أراد التراجع عن مثل هذا التنازل لم يكن باستطاعتي أن أتركه يفعل ذلك لثقتي بقلبي وعواطفي وقوة وجداني في إخلاصي.

لكن لماذا لم يجبرني زوجي على الذهاب معه إلى كالكتا؟

---

(١) Sita

إني أعلم سبب ذلك، إنه لم يجبرني تحديداً لأنه كان يعرف أن لديه النفوذ والقدرة على ذلك. كان دوماً يقول لي: «لا أستطيع أن أحتمل فكرة امتلاكي القوة لأجعلك تطيعينني لمجرد كونك امرأة. سأنتظر وسيكون الأمر جميلاً ومسراً إن استطعنا أن نتوافق وإن لم يحصل ذلك فليس بإمكاني أن أفعل شيئاً حيال ذلك».

لكن أنا أيضاً أمتلك شخصية متشددة صارمة. فكرتُ يومها أن هذا البيت كان لي... لكني لا أسمح لنفسي الآن حتى مجرد قولها.

لو عمل المرء رويداً رويداً على ردم الهوة الشديدة في الاختلاف بين النهار والليل، فهل يمكن لهذا التوازن السلبي والايجابي أن يتم؟ لكن، وما هي إلا مسألة دقائق تشرق فيها الشمس وتتبدد الظلمة. كذلك، حسابات اللانهاية تحل في برهة من الزمن.

بدأ ذات يوم صاف حدث هام مفاجيء وهو استهلال عهد السواديشي[١] في البنغال - لا نعرف بالضبط كيف تم ذلك ولم نستطع تبينه على وجه التحديد. يبدو لي أنه لم يكن هناك ثمة تدرج ولا تواصل بينه وبين الفترة التي سبقته. ربما لهذا السبب قام العهد الجديد كالطوفان محطماً كل السدود، جارفاً مخاوفنا وقلقنا. كما أننا لم نجد الوقت الكافي لنفكر ونفهم ما حصل وما يوشك أن يحدث وكيف ستكون آثاره وانعكاساته علينا.

انطلقت جميع النساء بسرعة إلى سطوح المنازل والشرفات ونوافذ بيوتهن دون أن يتكبدن العناء بوضع الحجاب على رؤوسهن عندما سمعن عزف الناي معلناً قدوم عريس شاب، فهل باستطاعتهن أن يتابعن أعمالهن المنزلية الروتينية في ذلك اليوم عندما سمعن النايات تستقبل عريس الأمة بكاملها؟ ركضن إلى كل الأبواب أيا كانت وإلى النوافذ والفتحات التي وجدنها في الجدران واسترقن النظر، مزغردات ونافخات في البوق.

---

(١) السواديشي: الحركة الوطنية في البنغال لمحاربة البضائع الأجنبية، غايتها اقتصادية أكثر منها سياسية.

أما أنا، أية حماسة اجتاحت عقلي وبصيرتي وآمالي ورغباتي في ذاك اليوم الهائج من العهد الجديد!

ورغم أنني لم أتخطَّ ولم أتجاوز قيم جدران المنزل الذي كان هو عالمي النهائي في ذلك اليوم أيضاً، ورغم أن كل أعمالي الفاضلة، وكل تطلعاتي وإخلاصي التزمت إلى الأبد في تنظيم وتجميل حياتي داخل حدود عالم عرفته نفسي على أنه لها حصرياً، إلا أني وقفتُ أنظر من فوقه إلى الآماد وفجأةً سمعتُ نداءاً آتياً من الأفق لم أستطع تبيان معناه الكامل بوضوح، لكن رغم ذلك أثارني وأقلقني.

لقد حاول زوجي جاهداً منذ أن كان طالباً في الكلية أن يجعل الأشياء التي يحتاج إليها شعبنا تنتج في بلادنا. هناك أعداد لا تحصى من أشجار البلح في منطقتنا؛ حاول زوجي وهو يعمل لأيام عديدة من أجل اختراع جهاز فيه أنبوب يجمع فيه نسغ سائل كل بلح الأشجار في مكان واحد وأن يغليه ويحوِّله بعد ذلك إلى سكر. لقد سمعتُ أن طريقته هذه كانت فكرة مبتكرة لكن ما نتج عنها أن كلفة المال المصروف يساوي أكثر من العصير، وهكذا أجبرنا بسرعة على تصفية هذا العمل الصناعي التجاري. لقد أنجز نمواً مذهلاً في إنتاج جديد بعد اختبارات وتجارب متنوعة، لكن مقدار المال المصروف عليها كان أمراً لا يصدق. فبدأ يعتقد أن السبب الرئيسي لعدم إمكانية البدء بأعمال ومشاريع كبيرة في بلدنا هو عدم وجود مصارف. في تلك الأثناء، بدأ يعلمني الاقتصاد السياسي. ليس ثمة ضرر في ذلك. لكنه كان يعتقد أن أهم واجب بالنسبة إليه هو نشر الوعي بين عامة الشعب كي يمارسوا عادة الادخار في المصارف، فأسَّس لهذه الغاية مصرفاً صغيراً. وفي هذه الأثناء أيضاً اقتنع العديد من القرويين بادخار أموالهم لأن سعر الفائدة في المصرف كان مرتفعاً جداً. لكن هذا الارتفاع في سعر الفائدة الذي حمَّس الناس على إيداع أموالهم أدى بالمصرف إلى الإفلاس. انزعج موظفوه وقلقوا عندما لمسوا الخسارة، لكن أعداءَه ضحكوا من ذلك وسخروا منه. قالت لي سلفتي الكبرى ذات يوم بوضوح وحِدّة إن ابن عمها المحامي الشهير زعم أنها إن رفعت هذه المشكلة

إلى القاضي في القصر العدلي، يمكن إنقاذ ثروة وممتلكات وشرف وهيبة هذه العائلة العريقة من أيدي هذا الرجل الأحمق.

كانت الجدة الشخص الوحيد الذي لم يكن لديه أي نوع من القلق. كانت تلومني في أغلب الأحيان قائلة: «لماذا تسعون جميعكم لمضايقته إلى هذا الحد؟ هل تعتقدون أن الأمر ينطوي فقط على الثروة والأملاك؟ لقد رأيتُ في حياتي هذه الملكية تذهب ثلاث مرات إلى المحصلين بسبب الحجز القضائي. هل الرجال كالنساء؟ إنهم مسرفون بطبيعتهم؛ هم فقط يعرفون كيف يبددون المال، إنك محظوظة لأنه لم يضيع نفسه في هذه العملية. إنك بالتأكيد لا تتذكرين ذلك لأنه لم يجرحك في حياته أبداً».

كانت هبات زوجي كثيرة ليس لها نهاية. فكان يساعد بكرم ويجزل العطاء لكل من يحاول صنع نول لحياكة النسيج أو آلة لنزع القشور (عن الأرز) دون الأخذ بعين الاعتبار الفشل أو الخسارة. وتنافست الشركات الهندية مع الشركات الأجنبية، فأطلقت فكرة المراكب للوصول إلى بوري[١] لكن لم يتم أخذ مركب واحد إلى المياه، فخسر زوجي في هذه العملية خسارة فادحة.

وأشد ما كان يغيظني أسلوب سانديب بابو[٢] الذي كان يحتال عليه ليبتز منه أموالاً طائلة. فهو مثلاً كان يعبِّر عن رغبته في إنشاء صحيفة أو نشر قضية السواديشي[٣] أو يقول إنه ينبغي عليه الذهاب إلى أوتي[٤] عملاً بنصيحة طبيبه المعالج، وعلى زوجي توفير التمويل دون تردد ولا تساؤل. كان سانديب بابو يحصل من زوجي على منحة شهرية كمصاريف شخصية. والأمر المفاجيء والمدهش في آن معاً أنهما برغم ذلك لم يكونا متفقين في

---

(١) بوري Puri

(٢) Sandip babu

(٣) Swadeshi

(٤) Ooty

آرائهما حول معظم الأمور. كان زوجي يقول دوماً إن هذا الفقر الشديد وصل إلى حد أصبح من الصعب فيه إنقاذ الكنز المخزن في مناجم بلدنا، لكن الحرمان الأشد قبحاً إن نحن لم نكتشفه ونقبل بالقوة الكامنة في قلب الأمة. فقلت له ذات يوم بغضب إن كل هؤلاء الناس يحتالون عليك، فضحك وقال: «ليس لدي مواهب». أنا أملك بعض الرصيد الدائن، وأعطي بعض المال فقط بكل بساطة – أنا هو الذي يحتال ويربح».

لقد أسهبتُ في الحديث عن الزمن الماضي بقدر لا بأس به لأن دراما العصر الحديث لا يمكن فهمها دون فهم صحيح للماضي.

حالما أضرمتْ حماسة العهد الجديد النار في دمي حتى قلت لزوجي:

- «سأحرق كل ثيابي التي صُنِعت بخيوط غزل أجنبية»، فقال لي:
- «لماذا تحرقينها؟ يمكنك ألا تلبسيها ما شئت».
- «لماذا تقول ما شئتُ؟ لن ألبسها ثانية في هذه الحياة».
- «حسناً، لنفترض أنك لن تلبسيها بقية عمرك. لكن ليس من الضروري لأن تنغمِّي وترقصي متحدثة عن حرقها».
- «لماذا تضع العراقيل في وجه مخططاتي؟»
- «ما أريد قوله إنه ينبغي عليكِ تكريس نفسكِ وكل طاقتكِ من أجل أمور بناءة وألا تبددي حتى ولو جزءاً منها في لحظة حماسة فقط لمجرد القيام بعملية إتلاف ملابس».
- «هذا الجنون هو الذي ساعدنا على القيام بأعمال منتجة».
- «بقولكِ هذا تقصدين أنه لا يمكنكِ إضاءة البيت بكامله دون أن تشعلي النار فيه. إنني مستعد لآخذ على عاتقي وأتحمل الكثير من العناء في إضاءة قنديل، لكنني لست مستعداً أن أشعل النار من أجل فائدة بسيطة تدل على قصر النظر. يبدو الأمر وكأنه عمل شجاع لكنه فعلياً ضعف يراد به أن يظهر بمظهر الشجاعة».

وقال: «يمكنني أن أفهم نفسيتكِ بأنكِ لستِ في مزاج لسماع ما يطرب من كلماتي، لكنني مصر على الاستمرار في طلبي بأن تفكري فيها. لقد وصلت البشرية إلى تلك المرحلة التاريخية التي فيها زينت الأرض كل بلد بثروته، تماماً مثل الأم التي تزين كل واحدة من بناتها بزينتها الخاصة بها. ففي يومنا هذا، غدت أفكارنا، وتحركاتنا، وعاداتنا في المأكل ودُرجاتنا في الملبس كلها منسجمة مع باقي العالم. لهذا السبب أعتقد إنه عصر باتت فيه كل الأعراق محظوظة لأنها جزء منه وليس من الشجاعة بمكان عدم قبوله كما هو».

ثم كان هناك مسألة أخرى، فعندما قدمت مس جيلبي إلى بيتنا، كثرَ الشغب واللغط من حولها، ثم خمد عندما اعتادوا وجودها. لكن وكر الدبابير عاد يتحرك من جديد. ظللتُ لمدة طويلة لا أهتم إن كانت مس جيلبي بنغالية أو انكليزية، لكن هذا الموضوع بدأ يقلقني. فقلت لزوجي ينبغي علينا أن نصرفها من هذه الوظيفة. لكنه ظل هادئاً صامتاً، الأمر الذي أثارني لدرجة أنه أصبح رد فعلي عنيفاً تجاهه، فغادر البيت والحزن ظاهر على وجهه.

انتابتني نوبة بكاء شعرتُ بعدها بشيء من الهدوء، عندما عاد إلي ليلاً قال لي: «انظري، لا أستطيع تخيل مس جيلبي على أنها تمثل شخصية انكليزية فقط. أليس بمقدورنا التخلص من هذا الوسم بعد أن عرفناها وعاشرناها كل هذه المدة؟ وفوق ذلك فهي تحبك كثيراً».

شعرتُ بشيء من الارتباك لكني احتفظت بقليل من الكبرياء، وأجبت: «حسناً، فلتبقَ - على أي حال لم يطلب أحد منها المغادرة؟»

وهكذا بقيت مس جيلبي. قام ذات يوم ابن أحد أقربائنا، وهو غير وثيق القرابة بنا، برميها بحجر وبشتمها وهي في طريقها إلى الكنيسة. وكان زوجي يوفر له مصاريف تعليمه، لكن الآن طلب منه مغادرة أراضينا. فواجه نتيجة ذلك الكثير من الاعتراضات لأن الجميع كانوا يعتقدون بل يوافقون على ما قاله هذا الصبي. قال بعضهم أن مس جيلبي هي التي شتمته وكانت تكذب بشأنه مفترية. حتى أنا نفسي اعتقدتُ إن هذا الحدث غير قابل للتصديق. كان

الصبي يتيم الأم، جاء عمه وتضرَّع إلي كي أتدخل، حاولتُ ذلك يائسة لأجله لكن دون فائدة.

لم يستطع أحد يومها أن يغفر لزوجي هذا الإجراء، حتى ولا أنا، فكنتُ ألومه بصمت. ذهبتْ هذه المرة مس جيلبي من تلقاء نفسها، وبكت عند وداعنا، لكنها لم تحرك في أعماقي أي نوع من المشاعر، فبقيتُ جامدة، أفكِّر كيف حطمتْ فرص هذا الفتى الصغير بزورها وبهتانها! وأي فتى كان! إنه مستعد أن ينسى طعامه وحمامه من شدة حماسته لقضية السواديشي.

رافق زوجي مس جيلبي في عربته الخاصة إلى المحطة كي يودعها ويطمئن على سفرها. فكرتُ وقتها أن هذا التصرف كان حركة متطرفة منه إلى أبعد حد. وعندما رُويتْ هذه الحادثة وكُتِبَ عنها تقارير مبالغ فيها، أثارت فضيحة عامة انتقلت إلى الصحف حيث تم فضحه والتشهير به، فشعرتُ حينها أنه قد لقي جزاءه الذي يستحقه.

قبل هذه الأحداث، كنت دائمة القلق بشأن تصرفات زوجي بهذا الخصوص، لكنني لم أكن أشعر بالخجل أبداً من شيء يعمله. أما الآن وبعد تلك الحادثة، انتابني شعور بالخجل. لم أعرف بالضبط كيف قام نيرين[١] بتوجيه الإساءة إلى مس جيلبي وإهانتها، وإن قام بذلك فعلاً فأنا لم أكن متأكدة من ذلك، لكن في الظروف الراهنة كان التصرف ملوماً حتى لمجرد إدانة مثل هذا الفعل. فما كان ينبغي أن تُقمع روح نيرين المعنوية وشجاعته التي أبداها في ازدراء امرأة انكليزية. هل كان جبن زوجي هو الذي جعله يرفض استيعاب ذلك، عندما أفكر بهذا الأمر، أشعر بالخجل.

وهذا لم يكن كل شيء: فأكثر ما كان يؤلمني بعمق أنه كان عليّ أن أقبل الهزيمة. ولأن نفسيتي قد تم قهرها، فهذا شأن لم يكونِي فحسب، بل يدفعني إلى عدم تبجيل زوجي، وكان ذلك تحدياً لفضائلي الزوجية.

---

(١) Naren

لم يكن الموضوع بُعد زوجي عن تيار السواديشي، لا، فهو لم يكن يعارضه تماماً لكنه لم يكن مقتنعاً أو لم يكن باستطاعته أن يقبل بشعار «باندي ماتارام[1]» أي «تحيا الأمة» كشعار أساسي ونهائي. لقد كان يقول باستمرار إنه مستعد لخدمة الأمة لكنه يفضل أن يعبد شيئاً واحداً أكبر من الأمة وهو – الحق - وأنه بعبادته للأمة قد يؤدي بها إلى الهلاك.

في هذا التاريخ تقريباً جاء سانديب بابو مع حاشية من أتباعه ليمكث بيننا. وتقرَّرَ أن يتم عقد اجتماع في فناء معبدنا مساء اليوم نفسه. وكانت نساء البيت يجلسن على طرف الفناء، خلف ستار من الخيزران. عندما سمعنا صيحات «باندي ماتارام» تقترب منا كزئير الأسد، بدأ قلبي يخفق. واندفع فجأة إلى الفناء الكبير مجموعة من الشباب على رؤوسهم عمائم يرتدون لباساً بلون الزعفران، حفاة مسرعين وكأنهم سيل مغري اللون تدفق في مجرى نهر جاف في بداية هطول الأمطار. امتلأ المكان بحشد كبير من الناس، وظهر سانديب بابو جالسٌ على مقعد كبير مرفوع على أكتاف عشرة إلى اثني عشر من الشباب. وتتكرر الهتافات «تحيا الأم - باندي ماتارام» بصراخ كاد يفجِّر السماء ويحولها إلى فتات.

لقد شاهدتُ صورة سانديب بابو سابقاً. لا يمكنني القول إنه أعجبني حينها. كلا، لم يكن دميم الخلقة بل على العكس من ذلك كان بهي الطلعة. وحتى في ذلك الوقت، ورغم الإشراق الذي ينبعث من وجهه، أوحت لي تقاسيمه بالزيف وأن هناك شيئاً ما في عينيه وفمه يوحي بعدم الصدق والأصالة. وكان ذلك هو السبب الذي جعلني غير راضية عن تلبية

---

(١) Bande Mataram نشيد وطني ألفه بانكيم تشاندرا تشاترجي (١٨٣٨- ١٨٩٤) Bankim Chandra Chaterjee والذي ضمنه في روايته أناندماذ (١٨٨٢) Anandamath ثم تم تبنيه لاحقاً كنشيد وطني. إنه يساوي الأمة بالأم، التي تعيل أبناءها وتكون مصدر رزقهم.

زوجي لكل طلباته دون أي سؤال. قد أتسامح مع الهدر، لكنني كنت دائمة القلق لأن هذا الرجل كان يخدع زوجي باسم الصداقة. لم يكن أسلوب حياته أسلوب زهد وتقشف ولا أسلوب شخص فقير أو متوسط الحال، بل كان مظهره كرجل مثقف ومتأنق يدل على أنه من طبقة منعمة. لقد كان جشعاً شديد التوق إلى رغادة العيش والبحبوحة، ولطالما راودتني الكثير من الأفكار المشابهة ولا تزال إلى اليوم تتوارد إلى ذهني العديد من هذه الخواطر، لكن لندعها حيث هي. غير أنه عندما بدأ سانديب بابو خطابه في ذلك اليوم، شيء ما فيه لامس مشاعر الجمع الغفير وتناغم معها وجعلها تتمايل وترقص وتتدافع مع تصاعد قوة كلماته. في هذا الوقت بالذات رأيتُ هيأته المذهلة خصوصاً عندما دنت شمس الغروب تدريجياً خلف دارنا ناشرة نورها على وجهه، مضيئة قسماته فبدا وكأن الله يعلن لجميع الحضور: هذا هو المخلوق السماوي المقدس. لقد كانت كل كلمة من بداية خطابه إلى نهايته وكأنها اندفاع عاصفة جامحة لا تقهر. لم يكن هناك حدود لجرأته، وإذا بي لم أعد أحتمل الستارة التي كانت تعيق رؤيتي له، لكني لا أذكر تماماً متى وكيف أزحتُ جزءاً منها جانباً بشكلٍ عفوي وكشفتُ وجهي وحدّقتُ في وجهه. لم يكن أحد في هذه الجموع لديه الوقت أو حتى يأبه لما أفعله، أو لديه أدنى رغبة في النظر إلى وجهي في مثل هذا الوقت. مرة واحدة فقط، رأيتُ عيني سانديب بابو المنيرتين تسطعان على وجهي كنجمتين في كوكبة. لكني لم أكن واعيةً تماماً لما يحصل. هل كنت أنا في ذلك الوقت كنة عائلة مرموقة؟ أم هل أنا سيدة بيت المهراج؟ بل شعرتُ وكأنني أمثل نساء البنغال جميعهنَّ، وهو بطلها. بدا وكأنه بحاجة ليتبارك بروح نساء البلاد التي كانت متساوية ومتناسبة مع شعاع الشمس الذي أنار جبهته. كيف ستنتهي هذه المسيرة المحاربة التي بدأها وهل ستصل إلى غايتها بنجاح؟

شعرتُ بوضوح أنه بعد أن وقع بصره عليّ أصبح خطابه أكثر حماسة واتقاداً. انطلق بقوة جامحة لم يعد بالإمكان كبحها – كانت كلماته كزئير

الرعد ووميض البرق، فشعرتُ في نفسي أنها اشتعلت لهباً من عيني، فنحن النساء لسنا ربات نار المنزل ورموز السعادة والوفرة فحسب، بل نحن أيضاً شعلة الروح، نجسد الإلهة بهاراتي[١] الشهيرة بقتالها.

عدتُ إلى البيت في ذلك اليوم مشرقة بكبرياء مليئة بفرح غير مسبوق، تغيرتُ في لحظات من حال إلى حال، ومن مركز إلى آخر بفعل زخم هذه العاصفة الصاخبة. أردتُ أن أكون مثل نساء الإغريق الباسلات وأن أقص شعري الطويل المتدلي إلى ركبتي لأصنع منه وتراً لقوس بطلي. لو أن ما يظهر من زينتي يمكن أن يعبر عن مشاعري الداخلية لكسرت سلسلة لآلئي وقلادتي وسواري أقفالهَا وترامت كوابل نيزك وسط الجمع الحاشد. بدا لي الأمر أنني ربما أستطيع تحمل فورة حماستي وعنف سعادتي في حالة واحدة فقط إن أنا ضحيّتُ وعانيتُ خسارة كبيرة.

عندما دخل زوجي الغرفة في المساء، كنتُ عصبية وقلقة خشية أن يبدر منه كلام ناشز غير منسجم مع الإيقاع المتوقد لأنشودة النصر التي كنت قد سمعتها في الصباح، وخوفاً من أن يعبِّر عن أي استنكار لما قيل يكون قد جرح حبه للحقيقة بطريقة ما. ولو فعل ذلك لكنت جابهته وازدريته بكل صراحة.

لكنه لم يقل لي شيئاً. فساءني ذلك إذ بدا لي الأمر في غاية الإبهام. كان حرياً به الاعتراف بأن كلمات سانديب بابو أيقظت ضميره وحررته من الأفكار الخاطئة التي كان يكتمها طوال المدة السابقة. انتابني شعور أن صمته كان عناداً وتصلباً في الرأي، وأنه كان يجبر نفسه على ألا يظهر أي حماسة. فسألته:

- «إلى متى سيبقى سانديب بابو هنا؟»
- «إنه سيغادرنا غداً باكراً إلى رانجبور[٢]»

---

(١) Bharati

(٢) Rangpur

- «غداً صباحاً؟»

- «نعم،غداً، هو موعد خطابه الرسمي حيث قد تم تعيينه هناك».

بقيت صامتة بعض الوقت ثم تشجعتُ وسألت:

- «ألا يمكن له أن يبقى هنا يوماً آخر فقط؟»

- «هذا لن يكون ممكناً، لكن لماذا تسألين؟»

- «أريد أن أدعوه إلى الغداء وأن أكون حاضرة لأخدمه بنفسي».

دهش زوجي لسماع ذلك مني. كان في الماضي يطلب مني أن أظهر أمام أصدقائه في مناسبات عديدة لكنني كنت في كل مرة أرفض ذلك. فحدَّق في وجهي بحِدّة بطريقة لم أفهمها تماماً. شعرتُ عندها بشيء من الارتباك واستدركتُ الموضوع على الفور قائلة:

- «كلا، كلا، ليس الأمر مهماً».

- «لكن لم لا؟ سأسأل سانديب – إن كان ذلك ممكناً بالنسبة إليه فإنه لا شك سيبقى ليوم واحد».

ظهر لي الأمر ملائماً وممكناً تنفيذه.

سأقول الحقيقة كما أشعر بها: تحسرتُ في ذلك اليوم لأن الله لم يخلقني جميلة ومثيرة. ليس الموضوع أنني أردتُ سلب قلب أحدهم، بل لأن الجمال هو مسألة زهو وتباه. ففي ذلك اليوم الحاسم،هل استطاع رجال الأمة أن يتمثلوا روح الإلهة جاكادهاتري[1] في صورة المرأة!؟ لكن عيونهم لا تستطيع أن ترى الإلهة في غياب الجمال الخارجي. هل سيكون بإمكان سانديب بابو أن يبصر فيَّ هذه القدرة الجديدة النشطة مؤخراً؟ أم أنه سيحسبني امرأة عادية سيدة منزل صديقه فحسب؟

بعد أن غسلتُ شعري في ذلك اليوم، وعقدت بعناية ضفائري الطويلة بشريط أحمر، لأنه لم يبقَ لي متسع من الوقت لأربط شعري الرطب في

---

(١) أم العالم Jagaddhatri

كعكة الشعر العادية، طالما أننا دعينا سانديب إلى وجبة الغذاء. ارتديت سارياً أبيض اللون مذهب الحاشية، من بضاعة مدراس[١] وبلوزة قصيرة الكمين وذات حاشية رفيعة مذهبة أيضاً. وقد صممتُ بشأن ملبسي أن يكون نوعاً محتشماً جداً من اللباس وأبسط ما يمكن ارتداؤه. في هذه الأثناء، مرَّت بي سلفتي الكبرى وأخذت تتأملني من رأسي إلى أصابع قدمي. ثم ضغطت على شفتيها وابتسمت، فسألتها:

- «لماذا تبتسمين يا أختي؟»
- «أنا فقط أتأمل أسلوب ملبسك» فغضبتُ منها وسألت:
- «ما الغريب في ذلك؟» فابتسمت ثانية وقالت:
- «لا بأس، في الواقع تبدين بديعة. لكني أرى أن لباسك قد يكتمل لو أنك ارتديت تلك البلوزة المكشوفة عند العنق والتي كنت اشتريتها من المخزن الانكليزي».

كانت السخرية بادية ليس فقط على تعبير وجهها بل في كل إيماءة من شفتيها، قالت ما عندها وغادرت الغرفة بعد ذلك.

غضبتُ غضباً شديداً وشعرتُ وكأنه ينبغي علي أن أبدِّلَ ثيابي وأن ألبس سارياً خشناً مصنوعاً من قماش رديء غير مصقول. ولكنني لا أدري تحديداً لماذا لم أقدم على هذه الخطوة ولم ألتزم بما عزمتُ عليه، وقلت في نفسي قد ينزعج زوجي لو أنا لم أقابل صديقه بلباس لائق فاخر، لأن النساء يجسدن جمال وزينة مجتمعهن.

كانت فكرتي أولاً أن أظهر أمام سانديب بابو بعد جلوسه إلى المائدة، فأتخلص من خجل لقائي الأول به في غمرة الإشراف على تقديم الطعام. لكن الغذاء في ذاك اليوم استوجب زمناً طويلاً كي يجهز – وكانت الساعة قد قاربت الواحدة ظهراً، في هذه الأثناء أرسل زوجي في طلبي ليقدمني إلى

---

(١) Madras

ضيفه. وعند دخولي الغرفة شعرتُ بداية بشيء من الخجل حين نظرتُ إلى وجه سانديب بابو، لكنني استطعتُ التغلب على ذلك وأقول جاهدة:

- «إني آسفة، لقد تأخر غداؤك اليوم».

أقبل بجرأة وجلس على مقعد بجانبي دون أي تردد وهو يجيب:

- «إننا نتناول غداءً ما في كل يوم، لكن ربة الخير[1] تظل محتجبة على الدوام. أما اليوم وقد ظهرت ربة الخير نفسها أمامي، فلنترك الطعام يحتجب بدلاً عنها فلا ضير إن تأخر الغداء».

كان في مسلكه كما في خطاباته واثقاً من نفسه حازماً لا يتردد. لقد بدا سيداً بارعاً مخضرماً في احتلال مكانه الذي يختاره وفي أي موقف وجد فيه. لم يكن يأبه بما قد يفكر الناس عنه، فهو يبادر إلى ما يعتبره حقاً طبيعياً له، يتصرف بثقة بالنفس تجعل اللوم أشبه بأن يقع على أولئك الذين ينكرون عليه هذا الحق.

شعرتُ بخجل بعض الشيء خشية أن يحسبني سانديب بابو مملة على غرار أغلبية نساء الطراز القديم. لكني لم أستطع أن أتألق بأجوبة تبهره دون أن أرتبك أو أتعثر بالكلام. تألمتُ كثيراً في داخلي ولعنتُ نفسي غيرَ مرة لأنني ظهرتُ أمامه بهذا المظهر السخيف.

حالما انتهيتُ من مهمة تقديم الطعام له، حاولتُ الانصراف بسرعة من هذا المشهد. فاقترب سانديب بابو بجرأة مرة أخرى من الباب، واعترض طريقي قائلاً:

- «لا تحسبي أنني جشع شره، أنا لم أقبل دعوتكِ لأن الطعام يغريني، بل في حقيقة الأمر، طمعي يتعلق في واقع واحد هو أنكِ أنتِ نفسكِ

---

(١) Annapoorna.

التي دعوتني إلى وليمة الغداء. فإن خرجتِ هاربة فوراً بعد الطعام، تكوني قد خدعتِ ضيفك».

لو لم يقل هذه الكلمات ببساطة ووضوح لافت للنظر لبدت لي ناشزة وفظة. لكن في نهاية الأمر كان زوجي صديقه المفضل، فكنتُ أنا بالنسبة إليه إذاً كزوجة أخيه. وبينما كنتُ أجاهد لأرفع نفسي إلى مستوى من الألفة الحميمة مع سانديب بابو تدخل زوجي وأنقذني من هذا المطب بقوله:

- «حسناً، اذهبي لتناول غدائك وعودي إليَّ هنا ثانية». فقال سانديب بابو:
- «لكن عديني بأنك لن تخذليني». فأجبته مبتسمة:
- «سأعود حالاً». فقال:
- «دعيني أشرح لك لماذا أنا لا أصدقكِ. لقد مضى على زواج نيكهيليش تسعة أعوام، وأنت تمتنعين عن تعريفي بنفسك، وإن مضيتِ تفعلين ذلك تسعة أعوام أخرى فلن نلتقي أبداً». فرددتُ بلطف ملمحة بعدم كلفة:
- «لماذا لا يمكننا أن نلتقي حتى وإن قررت أن أفعل ذلك؟ فقال لي»:
- «يقول حساب طالعي الفلكي (برجي) بأنني سأموت في سن مبكرة. لم يعش أحد من بين أبي وإخوتي بعد الثلاثين. وأنا الآن بلغت السابعة والعشرين من عمري».

كان يعلم أن هذه الكلمات ستلامس مشاعري وتجعلني أتعاطف معه. وهكذا حصل، فبدا ظلٌّ من الحزن في صوتي عندما هممت بالقول:

- «كن واثقاً بتجاوز هذا الخطر بمعونة بركات الأمة من خلفك». فقال:
- «يمكنني فقط أن أتلقى بركات الأمة بصوت ربة الأمة. لذلك أتوسل إليك بحماسة أن تعودي إلى هنا، كي أتمكن من البدء بتفادي كارثة ذاك اليوم».

حتى لو أن تيار الماء الجاري هو موحل بعض الشيء، يمكن للإنسان أن يستفيد منه في شيء ما. كل شيء كان يقوله سانديب بابو كان سريعاً جداً وسلساً فصيحاً لدرجة لا يمكن لأحد أن يعترض على أي شيء منه، رغم أنه قد يكون مرفوضاً إن قيل من قبل شخصٍ آخر. قال ضاحكاً:

- «انظري، سأحتفظ بزوجك كرهينة، فإن لم تعودي، فلن أطلق سراحه». وعندما هممت بالخروج قال لي ثانية:
- «لدي طلب صغير آخر منك».

استفزني ذلك فعدت ملتفتة إليه، فقال لي:

- «هدئي من روعك، أريد كوباً من الماء فقط. لعلك لاحظتِ أنني لم أشرب الماء مع الطعام، أشرب منه القليل، وبعد الطعام بقليل».

وكان عليّ إزاء ذلك أن أظهر اهتمامي وأسأله عن السبب موحية بقلقي:

- «لماذا تفعل ذلك؟»

فبدأ يروي لي تاريخ مرضه عندما أصيب بحالة خطيرة من سوء الهضم، وحدثني كيف عانى وتألم بشكل لا يحتمل لمدة سبعة إلى ثمانية أشهر. وبعد أن حاول المداواة بعلاج الآلوباثيا[١] والهوميوباثيا أي المعالجة المثلية[٢] وبعد أن خضع أيضاً لكل أنواع المعالجات، كانت الوصفة البلدية: الكافيراج[٣] دون غيرها هي الأنجع فقد أعطته نتائج خارقة مذهلة. وبعد أن قدَّم لي هذا الوصف المفصَّل، ضحك ثم قال:

- «إن الله قد صاغ لي اعتلالي الصحي بطريقة لا يتراجع فيها إلا إذا خضع لحبوب السواديشي».

وهنا خرج زوجي أخيراً عن صمته وقال:

---

(١) allopathy : المعالجة بأدوية تحدث آثاراً مختلفة عن تلك التي أحدثها المرض.

(٢) علاج الداء بالداء homeopathy: أي معالجة الداء بإعطاء المصاب جرعات صغيرة من دواء لو أعطي لشخص سليم لأحدث عنده مثل أعراض المرض المعالَج.

(٣) homeopathy.

- «ماذا عن العقاقير الأجنبية التي تخفيها؟ إن في حجرة جلوسك ثلاثة من الرفوف المليئة بالكامل من...» فقاطعه سانديب بابو قائلاً:

- «هل تعلم ما هذه الأشياء؟ إنها مثل عقوبة الشرطة. هي لا تأتي لأننا بحاجة إليها، لكنها عبء ثقيل علينا تفرضه سيطرة أحكام العصور الحديثة لتستمر إلى الأبد بابتزاز الغرامات ومعاقبتي في هذا العلاج».

لم يكن زوجي يطيق المبالغات في استخدام اللغة المجازية وإقحامها بالضرورة في الحديث. لكن كل ذلك لم يخلقه الله بل صنعه الإنسان. وأذكر أني قلت ذات مرة لزوجي دفاعاً عن أكذوبات كنت قد رويتها له: «الأشجار، والنباتات والطيور والحيوانات تقول الحقيقة على الدوام، لأن هذه المخلوقات البائسة ليس لديها لا الوسيلة ولا الغاية كي تكذب. الكائنات البشرية متفوقة على الحيوانات بهذا الصدد والنساء متفوقات على الرجال فيه. فكما أن المبالغة في التزيين تزيد من جمال المرأة فإن المبالغة في الكذب تناسب المرأة أيضاً».

ولما خرجت من الغرفة وجدت سلفتي واقفة على الشرفة، خلف القضبان الخشبية لمصراع النافذة التي كانت مفتوحة بشكل خفيف، فسألتها بدهشة:

- أنتِ هنا، هل هذا ممكن؟ فأجابت:

- «أسترق السمع». قالتها بهمس.

عندما عدتُ، قال سانديب بابو بلطف:

- «أنتِ على الأرجح لم تتمكني من أن تأكلي اليوم».

شعرتُ بالارتباك والخجل لسماع ذلك. فمن شدة تلهفي للعودة عدت أبكر مما ينبغي، لدرجة أنني لم أعط لنفسي هامشاً معقولاً من الوقت للأكل. أي إنسان لو راقب زمن طعامي في ذلك اليوم لعرف أنني لم أصرف دقيقة واحدة من أجل الطعام. لكن لم يخطر ببالي أن ثمة من يلاحق ذلك ويعنى بتقدير الوقت. ولعل ملاحظة سانديب بابو لخجلي زادني ارتباكاً وخجلاً. فقال لي:

- «أعلمُ انكِ أردتِ أن تجري مثل الظبية الجامحة لكن لا شك بأن حفاظك على وعدك ولو كلفك ذلك عناءً كبيراً، هو تكريم لي».

لم يكن باستطاعتي أن أجد جواباً مناسباً لكلامه، فنضح مني العرق واحمر وجهي خجلاً وجلستُ مرتبكة على طرف المقعد. لقد تخيلتُ أنني سأظهر شخصيتي بفخر أمام سانديب بابو وبأنني دون أدنى تردد، أمثل له تجسيداً لصورة المرأة في الأمة بكل عنفوانها وقوتها، مغتنمة فرصة اللقاء به لألف عنقه بإكليل النصر، لكن إلى هذا الحد لم يحصل شيء يتيح لي تحقيق أمنيتي.

تعمد سانديب بابو بتروٍّ أن يبدأ نقاشاً مع زوجي، لعلمه أن حدة ذكائه الوقاد ستبرع بإيجاد الحجج في المناقشة بشكل رائع. ولاحظتُ لاحقاً، ولمرات عديدة، أنه لا يدع فرصة تفوته لمثل هذا الجدال في أي وقت أكون حاضرة فيه. كان يعلم ما كانت عليه آراء زوجي بخصوص نشيد «باندي ماتارام» فقال مشيراً إلى هذا الموضوع:

- «ألا تعتقد يا نيكهيل أن في خدمة الأمة هناك مكان لخيال الرجال كي ينمو ويزهر؟»
- «أعتقد أن هناك مجالاً للخيال، لكني لا أؤمن أنه بتلك الأهمية الكبرى. أريد أن أعرف أمتي بألوانها الحقيقية في قلبي، وأريد أن أجعل كل واحد فيها يعرف الشيء نفسه. أشعر بالخوف والخجل أن أستغل أو أناور بمثل هذا الواجب العظيم فقط بواسطة الأناشيد السحرية المخدرة».
- «ما تسميه نشيد الوهم يمثل الحقيقة بالنسبة إليّ. فأنا أؤمن حقيقة أن أمتي هي كالإله. أنا أعبد الإنسان – وكما أن الكائنات البشرية هي تجلٍ لله بالتالي الأمة هي تجلٍ لله أيضاً».
- «إن كنتَ تؤمن حقيقة بذلك، فينبغي عليك ألا تميّز بين كائنين من البشر ولا بين أمتين من أمم الأرض».

- «هذا صحيح، لكن لدي مقدرة محدودة، لذلك فأنا أعبد إله الأمة بعبادتي لأمتي».
- «أنا لا أعترض على عبادتك، ولا أمنعك من تأليه الأمة ولكن هل يمكن لطقوس تقديسك أن تمارَس وفي الوقت نفسه تكره المقدسات الحاضرة في أمم أخرى؟»
- «الكراهية هي أيضاً جزء من التقديس. لقد طلب أرجون[١] بركات الربة مهاديفا[٢]، التي كانت بصورة صياد يتقاتل معه؛ وسيكون الله معنا آخر الأمر إن عزمنا على القتال».
- «إن كان ما تقوله صحيحاً، فإن الناس الذين يخدمون البلاد والآخرين الذين يسيئون إليها هم سواء في عبادته. فليس إذاً من حاجة لنشر القضية الوطنية بشكل خاص».
- «وطن الإنسان هو مسألة أخرى لأنه مفطور على حب وطنه فهناك أوامر نوعية تنبع من القلب لتقديس الوطن».
- «لماذا إذاً التحدث عن وطن الإنسان بينما هناك أوامر أكثر وضوحاً عن ذاتنا؟ كل ما نسمعه في الوطن وفي الخارج هو نشيد تزلف إلى الإله المتجلي فينا».
- «إن حججك يا نيكهيل هي حجج ذهنية جافة. ألا تسلم أن هناك شيئاً اسمه القلب؟»
- «بكل صراحة يا سانديب، عندما تجعل الظلم يبدو وكأنه واجب ومن الإثم فضيلة باسم الأمة كإله فإن ذلك يحطم قلبي ويدمر السلام الذي فيه. لو أنني سرقتُ لأخدم مصالحي الخاصة ألا أطعن الأساس الجوهري لنزاهتي وأمانتي تجاه نفسي؟ هل ذكائي يمنعني من السرقة؟ كلا- ذلك لأنني احتفظ باحترامي لنفسي وإيماني بالمثل العليا».

---

(١) Arjun أرجون: بطل أسطوري هندوسي في ملحمة الـ«مهابهاراتا Mahabharata» عن (Webster's New World Dictionary of the American Language).

(٢) Mahadeva مهاديفا: اسم آخر لشيفا Shiva الإله الهندوسي المعروف بالـ «مدمِّر» (معجم المورد ١٩٧٦).

أثارني هذا الحديث فلم أعد قادرة على البقاء صامتة فانطلقت بالكلام من غير تفكير:

- «قل لي أي بلد متحضر – إنكلترا أم ألمانيا، أم فرنسا أم روسيا كان تاريخها ليس تاريخ سرقة لنفسها؟ ألا ينبغي عليهم أن يعوضوا عن سرقاتهم، وأن يقوموا بذلك الآن. التاريخ لم ينته بعد».

فقال سانديب بابو:

- «حسناً، سنحذو حذوهم فلنملأ خزائن وطننا بالبضائع المسروقة، ثم نسدد لهم الثمن بعد قرون طويلة. لكن دعني أسألك، أين هي بينة الحقيقة والوقائع كما أشرت في كلامك، بأنهم لا يزالون يعللون ذلك مقدمين بيانات؟»
- «عندما كانت روما تعلل آثامها وتقدم عنها بيانات لم يكن أحد يستطيع أن يراها، ففي ذلك الوقت لم تعرف لثروتها حدوداً. عندما يكون زمن سرقات الحضارات الكبرى ويعللون نهبهم، فلا يمكن أن نرى ذلك من الخارج. لكن ألا ترى شيئاً واحداً فقط – أن سياساتهم مليئة بالأكاذيب والخداع، والغش، والتجسس، مضحين بالعدالة والحقيقة، كل ذلك بغية الحفاظ على هيبتهم ونفوذهم؟ إن وزر هذه الأخطاء التي يتحملونها لهي ثقيلة جداً. وهم ألا يستنزفون إلى الأبد دماء حضارتهم؟ وأقول إن الذين لا يعطون مكانة عليا لمعتقداتهم أكثر من أممهم فهم لا يؤمنون حقيقة بأمتهم».

لم تتح لي الفرصة من قبل أن أسمع زوجي يجادل رجلاً منافساً غريباً عن البيت. كانت عادته أن يناقشني لكنه طالما كان يكن لي الكثير من عمق المحبة ودفء الحنان فكان أشد ما يؤلمه إفحامي ودفعي إلى القبول بالهزيمة، أما اليوم فرأيت لأول مرة حذقه في التبارز بالأفكار مستخدماً كلماته كالسلاح.

لكنني لم أوافق على آراء زوجي، وشعرتُ أن هناك ردوداً سريعة على أي موضوع كان يطرحه، لكن لم يكن عندي سرعة البديهة لأشترك في المحادثة.

المشكلة أنه كان عليّ أن التزم الصمت، فإن قدمتُ حجة عن معتقدي، رغم صعوبة الموضوع بالنسبة إليّ، ينبغي علي أن أكون قد التزمتُ بها حتى الآن على أقل تقدير وليس إلى حد أبعد. صممتُ أن أكتب مستنداً أشرح فيه حججي المضادة بصدد هذا النقاش وأقدمه لسانديب بابو. لهذا السبب سجلتُ على الفور الحديث الذي جرى يومها وذلك عند عودتي إلى غرفتي.

وفجأة التفت سانديب بابو إلي سائلاً:

- «ما رأيكِ في هذا؟» فأجبته:

- «لا أريد أن أغوص في التفاصيل الدقيقة، سأقول لكم بصورة عامة وجهة نظري في المسألة. أنا لست سوى كائن بشري ذات نفسية جشعة، وسأكون جشعة لأجل مصلحة أمتي. إن أردتُ لها شيئاً أستطيع أن أنتزعه وأستولي عليه، فأنا بطبعي ميالة للغضب – وسأظهر حدة طبعي من أجل مصلحة بلادي. أريد أن أذبح وأقطع إرباً انتقاماً من الذين أمعنوا بإذلالي لسنوات طويلة. إنني بطبعي ملحة استحواذية، وسأغدو مفتونة بأمتي، لأنني أريد لها أن تظهر لي بشكل يصبح بإمكاني أن أسميها أماً، أو ربة أو دورغا وأقدم لها القرابين من البهائم أروي بدمائها كل الأرض من حولها. أنا كائن بشري، ولست إلهة».

هبَّ سانديب بابو من مقعده ووقف رافعاً ذراعه اليمنى باتجاه السماء صارخاً بأعلى صوته بهتاف الفرح المقاتل: «هوراه! هوراه»! ثم استدرك نفسه بعد برهة مصلحاً بترداده: «باندي ماتارام! باندي ماتارام!» تحيا الأم! تحيا الأم!

لاحظتُ سحابة ألم داخلي عميق تسكب ظلالها على وجه زوجي. فقال عندها بصوت وديع لطيف:

- «وأنا أيضاً لست بإله، أنا بشر: ولهذا السبب لن أسمح لعيوبي ومواطن ضعفي أن تساهم في التأثير على البلاد – كلا لن أفعل ذلك أبداً».

فقال سانديب بابو:

- «انظر يا نيكهيل، كيف تمتزج الحقيقة في المرأة فتصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانها أي أن الحق يتجسد فيها. حقيقتنا ليس لها لون ولا رائحة ولا حتى نكهة الإثارة – كل شيء فيها منطقي ومادي، بينما للحقيقة شكل واضح ثابت في زهرة اللوتس الحمراء في قلوب النساء. لهذا السبب تستطيع المرأة أن تكون قاسية إلى أبعد الحدود بخلاف الرجال الذين يجعلهم ضميرهم ضعفاء، وتستطيع المرأة أن تدمّر بسهولة دون أدنى عناء. الرجال أيضاً بإمكانهم أن يفعلوا ذلك لكن القلق والنزاع أمور تسيطر على عقولهم، أما النساء فقد يرتكبن الظلم المدمِّر كالعاصفة – لكنه ظلم جميل مرعب بعظمته، لأنهن مفعمات بنزوعهن إلى الإحساس بالعدل والجمال والصفاء. لذلك أقول لك إنه في عالمنا اليوم، النساء هن اللاتي سوف ينقذننا. ليس هذا وقت التورع والتفكر والإنصاف – حان الوقت لنا كي نعيش دون أي تفكير أو محاكمة للأمور، وأن نصبح بلا إحساس لدرجة العنف؛ حان زمن الثورة. نساء بلادنا ينبغي عليهن أن يرحِّبن بمثل هذا الإثم بشعار طقسي مناسب بلون خشب الصندل الأحمر. ألا تذكر ما أنشده شاعرنا إذ يقول:

«مرحبا بالخطيئة، مرحباً بالجمال

دعي دمي يسري من جديد

مع لهيب نشوة قبلتك

سواء أصابتني اللعنة

أو كتبت فضيحتي في كل مكان،

املأي أعماق قلبي

بالظلمة والغدر والرذائل الفاحشة

إليك أتضرع يا إلهة الحرب.

عار على معتقد لا يستطيع أن ينزل الهلاك والدمار وهو مبتسم»

بعد أن قال هذا الكلام، ضرب الأرض مراراً بقدمه بكل ما أوتي من قوة مما نتج عنه نثر الكثير من الغبار الذي كان راكداً على السجادة. وخلال ثوانٍ، وقف متحدياً بكبريائه، هزىء وقذف إلى الريح بما وقره البشر في كل بلد في العالم أجمع وفي كل عصر من العصور السحيقة حتى اليوم. شعرتُ بالقشعريرة تتغلغل في كل جسدي بمجرد النظر إليه.

رفع صوته عالياً مرة أخرى قائلاً:

- «إنني لأرى بوضوح أنكِ ربة تلك النار المحرقة التي تحوِّل وطننا إلى رماد كما تشعل اللهب في الخارج. امنحينا من فضلك اليوم الشجاعة الدائمة التي لا تكل والتي بواسطتها قد ندمر أنفسنا ونجعل آثامنا تشع جمالاً».

لم يكن أحد بإمكانه أن يتبين لمن وجَّه كلماته الأخيرة. من المحتمل أن تكون للربة التي يقدسها في نشيده في الباندي ماتارام[١]، أو إلى امرأة كانت حاضرة أمامه تمثل له ربَّة الأمة، أو إلى المرأة في بلاده. فكما برز الشاعر فالميكي[٢] وتفجر بقوة في أبيات موزونة يستهلها بشفقة موجهة ضد ذكاء الشرير، كذلك أطلق سانديب بابو فجأة تلك العبارات بطريقة قاسية خشنة تجاه

---

(١) تحيى الأمة.

(٢) Valmiki فالميكي الشاعر الشهير في القرن الثالث، كاتب الملحمة السنسكريتية "الرامايانا Ramayana"

المعنى الأخلاقي، أو ربما كان ذلك عرضاً لمهاراته التي مارسها كخطيب محترف. من المحتمل أنه كان ماضياً بحديثه ويريد أن يقول أكثر من ذلك، لولا أن زوجي نهض وربت على كتفه وقال له بلطف:

- «سانديب، إن تشاندرانات بابو هنا».

استفقتُ من ذهولي والتفتُ إلى الخلف لأرى شيخاً نبيلاً، سيمته الهدوء والوقار، واقفاً بالباب متردداً بين الدخول والانصراف. كان وجهه المضيء يشع تواضعاً كأشعة الشمس عند الغروب. قدمني زوجي إليه وعرفني به على أنه أستاذه قائلاً:

- «لقد حدثتكِ عنه مرات عديدة، فمن فضلكِ حييه بلمس قدميه».

فانحنيتُ ولَمستُ قدميه بإجلال. باركني ثم قال:

- «فليحمكِ الله على الدوام يا صغيرتي».

لأشد ما كنت بحاجة إلى مثل هذه البركة في هذا الظرف بالذات.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني
نيكهيليش

كنت أعتقد على الدوام بأني قادر على قبول كل ما يأتي به ربي. لكني لم أتعرض للتجربة، فربي لم يختبرني بعد، ربما حان الوقت ليحصل لي ذلك.

فعمدتُ إلى اختبار نفسي بتخيّل كل أنواع الشرور التي يمكن أن تنزل بي، الفقر، السجن، فقدان السمعة الطيبة، والموت، حتى حاولتُ في بعض الأحيان أن أتخيل موت بيمالا. لا أظن أنني بالغت عندما اعتقدتُ أنني قد أحني رأسي رضوخاً وإذعاناً وأقبل بهذه المصائب. إلا أنني أشعر بشيء واحد لم استطع تخيله أبداً، وها أنا ذا أفكر به اليوم وأسأل نفسي ترى هل سيكون بإمكاني تحمله حقاً؟ ثمة شيء ما يوخز في نفسي كالشوكة، يؤلمني دون توقف، إن في عملي اليومي أو حتى أثناء نومي، يا له من ألم يعمل دون إجازة! فلا أكاد أستيقظُ في الصباح حتى أرى ضياء النهار قد فقد بريقه، وذهب البهاء من وجه السماء، فما الأمر؟ ما هذا؟ ما الذي حدث؟ ما هذه الظلمة التي تحيط بي؟ من أين أتت لتلقي بظلالها على حياتي وهي في أوج سعادتها؟

لقد غدوت في منتهى الحساسية تجاه مكر الأسى الذي تربع على عرش قلبي متنكراً بلبوس الفرح طوال السنين الماضية، ويبدو الآن أنه يشد إمعاناً في إرهاقي على انفراد؛ رغم أن إحساسي العميق بالخزي والحزن لم يعد أمراً خفياً فهو يحاول يائساً أن يحجب وجهه؛ وعيون قلبي ترى وتسبر أغوار الأشياء الخفية، الأشياء التي أفضل ألا أراها.

هل كنت متسولاً فتياً في هاوية ثروتي؟ هل هي الحقيقة التي تفادتني طوال هذه المدة وفجأة كشفت لي عن نفسها الآن؟ لماذا بقيتُ على قيد الحياة لأشهد هذا اليوم الذي كشف بؤس حياة كانت وهماً خادعاً من لحظة إلى أخرى ويوماً بعد يوم وكلمة بعد كلمة ورؤية بعد رؤية؟

سيظل الواقع حتى آخر يوم في حياتي، ينتزع مع الفائدة كل ما نسجتهُ وزينتُ به أوهامي في تلك السنوات التسع من شبابي. وسأبقى في النهاية الشخص الذي خسر الكل وأرهق كاهله بالمسؤولية الكبرى. ومع ذلك، آمل بمقدرتي أن أشهد انتصار الحقيقة على الزور والبهتان، من كل قلبي وروحي.

جاء البارحة إلينا «كوبال» زوج ابنة عمي «مونو» ليطلب منا بعض المساعدات المالية لمصاريف عرس ابنته. نظر بشكل طبيعي إلى أثاث بيتي وفكر أنه لا يوجد شخص أسعد مني في العالم. فقلتُ له:

- «يا كوبال، قل لمونو سآتي غداً إليكم وأتغدى معها».

لقد حوّلت «مونو» منزلها الفقير إلى جنة حقيقية، بحبها ورعايتها. يتوق قلبي ليتقاسم وجبة تقدمها هذه الأيادي في بيت قد تزين بفقرها. دعني أذهب وأزورها اليوم. يا طاهرة القلب، لم يخلُ العالم بعد من ناس مثلك أبحث عنهم لأتبارك منهم.

ماذا يمكنني أن أنجز بالقوة أو بالكبرياء؟ في الواقع، قد أذعن وأعترف أنه ينقصني بعض الميزات الخاصة. ربما لا، لعلها ميزة الحزم التي تبحث عنها النساء في الرجال، لكن هل الحزم هو تفاخر وتباهٍ أم أنه مجرد نزوة؟ هل الحزم يعني أن باستطاعة الإنسان أن يضرب الأرض بقدمه دون تردد... لكن لماذا أناقش الأمور بهذا الشكل؟ لا يمكن إنجاز أي شيء بالتشاجر والتجادل. تافه! غير جدير! وضيع! حتى لو كنت بهذه الصفات، فإن عظمة الحب تكمن في رفع قيمة الحقير. العالم يهب الكثير من المكافآت للمستحقين – لكن غير المستحقين لهم فقط جزء يسير من الحب سمح الله لهم به.

قلت لبيمالا ذات يوم:

- «ينبغي عليك أن تخرجي من المكان المحصور، اندرمحل». لقد ظلت بيمالا إلى اليوم في الأقسام الداخلية من بيتي، وكأنها كانت مخلوقة لها ومحصورة ضمن حدودها، ومرتبطة بنظام بسيط ضيق الأفق من الواجبات اليومية الرتيبة. فسألتُ نفسي: هل كان الحب الذي اعتدتُ أن أحصل عليه منها نابعاً من أعماق قلبها أم أنه كان مثل قسط الماء اليومي المحدد والذي تزودنا به مضخات آلية الدفع الاجتماعية المحلية؟

هل أنا جشع أناني؟ هل كنت أطمح إلى أكثر مما حصلت عليه؟ كلا، أنا لست أنانياً، أنا عاشق فحسب. لذلك لم أبتغِ شيئاً من داخل صدر حديدي مغلق، بل أردتُ فقط إنسانة لا تؤخذ عنوة إلا إذا سلمت روحها طواعية لي. لم أرد زخرفة بيتي بأوراق الورد المقطوعة من صفحات خزائن ذاكرتي. أردتُ أن أرى بيمالا تزهر وتتفتح باكتسابها المعرفة، والقوة والحب من العالم.

لكن غاب عن حسباني شيء واحد فقط – إن أنا أردتُ أن أجد امرأة حرة وصادقة مع نفسها، كان ينبغي عليَّ أن أتخلى عن كل متطلباتي المبنية على العرف. لماذا فاتني التفكير بذلك؟ هل كان بسبب سلطتي عليها كزوج؟ كلا، لا يمكن أن يكون ذلك – إنما السبب لأني وضعت غاية ثقتي في الحب.

كنت من الغرور بقوتي بحيث ظننتُ أني أستطيع احتمال الحقيقة كاملة في قبحها الرهيب. واليوم، وأنا في موقع الاختبار، أجد نفسي مغروراً إلى حد الاعتقاد بأنني في حال الموت أو الحياة، سأخرج من هذه المحنة ظافراً.

لقد عجزت بيمالا إلى اليوم عن فهم بعض وجهات نظري. لقد اعتبرتُ دوماً أن استعمال القوة هو نوع من الضعف. فالشخص الضعيف وحده هو الذي لا يمتلك الشجاعة ليحكم بالعدل، فهو يحاول أن يصل سريعاً إلى مبتغاه بطرق ظالمة مختصرة. فبيمالا ليس لديها أي إيمان بالصمود والصبر. أرادت

أن ترى في الرجال العنف والوحشية وحتى الظلم. فهي تتوق لأن يرهبها الرجل بقدر ما تحمل له من الاحترام.

كنتُ أعتقد وآملُ أن تتحرَّرَ من استحواذ فكرة التسلط والاستبداد عليها حين تدخل أجواء أكثر انفتاحاً وتتعلم كيف ترى العالم من منظور أوسع. لكنني تيقنت الآن أن كل ذلك كان جزءاً من طبيعتها. فهي تعشق المعاكسة من أعماق كيانها، وتريد أن تطيب بالبهار كل متعها البسيطة اليومية، وأن تحسّ باللذعة من لسانها إلى أعماق أحشائها. كانت تقاوم أية متعة إلا تلك وبأسلوب الازدراء.

أما أنا فكنت مختلفاً عنها، لقد أقسمتُ أنني لن أقع في هذيان مخمور من أجل بعض الإثارة ولن أعمل للأمة مثل الممسوس، وكنت مصمماً ألا أؤدي واجبي باندفاع المتعصب وألا استعين عليه بالحماسة النارية، بل أفضل أن أصبر وأتابع العيوب الصغيرة في العمل من أن أسدد ضربات مادية جسدية موجعة عنيفة على خدامي. إن عقلي وجسدي ينفران بمجرد فكرة إظهار الحدة في الكلام أو بالفعل. أعلمُ أن بيمالا تزدري وجداني، الذي تساويه بالضعف. اليوم، هي غاضبة مني للسبب نفسه لأنها لم ترَني أجري وأصرخ: باندي ماتارام لأفعل بعدها ما أريد.

وقد أصبحتُ مكروهاً من جميع أفراد الشعب لأني لم أشاركهم اللحاق بطقس باندي ماتارام ورفضتُ تذوق خمرهم المقدس ونشوتهم الصاخبة. فهم يعتقدون أنني طامح إلى لقب ما أو أنني خائف من الشرطة. من جهة ثانية، تعتقد الشرطة بأنني أتظاهر بالبراءة لأنني أضمر خطة ما جهنمية وراء هذا الهدوء. لكنني بقيتُ على اختياري في المضي بنهج الارتياب والذل.

أعتقدُ أن الذين ليسوا مؤهلين لخدمة بلادهم لا يجدون في معرفة وطنهم على حقيقته غذاءً كافيا لحماستهم، وهم يحترمون الكائنات البشرية لمجرد أنهم بشر فحسب، فهؤلاء هم الذين يحتاجون إلى أن يتخدروا بأناشيد الأمة كأم أو

كربة، فهم لا يحبون البلاد أكثر من ولعهم بهذا الإدمان. كما أنهم يجدون لزاماً عليهم الصياح معبرين عن هذه العبادة ليحافظوا على حماستهم – أولئك يحبون الحماسة أكثر مما يحبون بلادهم.

إن نطلق العنان للأفكار الاستحواذية لتسيطر على عقولنا دون الالتزام بالحق، ألا يكون ذلك دليل تأصلنا في العبودية؟ وهل ننجز شيئاً للبلاد لمجرد مكوثنا بقلوب حرة؟ أليس حرياً بنا أن نفتح المجال لمجموعة من البارعين المبدعين ولبعض الأشخاص القادرين أو بعض المبادىء العقائدية الراقية لتراهن على إحياء وعينا المحتضر، لنشعر بعدها بحيويتنا تستفيق وبقلوبنا تتوقد؟ لكن ما دمنا لا نبحث عن الحقيقة الكاملة، وما دمنا بحاجة لأن نظل مخدرين بهذه الطريقة، لا نستطيع أن نطالب لأنفسنا باستقلال الأمة.

فإلى أن تحين الساعة، ومهما كانت ظروفنا، وطالما أننا عاجزون عن حكم أنفسنا، سيستمر الشبح الوهمي أو الدجال الحقيقي طارد الأرواح الشريرة أو الاثنين معاً بمواصلة هجومهم ضدنا والانقضاض علينا.

قال لي سانديب ذات يوم، أنه ينقصني الخيال رغم أني أمتلك مواهب أخرى، لهذا السبب لا أستطيع أن أرى الصورة الإلهية للأمة. وافقته بيمالا على هذا الرأي، أما أنا فلم أردّ بأي جواب، لأن الغلبة في الجدال لا توفر لي السعادة، فبواسطتها لن نتمكن من إظهار الفروق في ذكائنا بل نحدد فقط الفروق في طبائعنا. قد يبدو هذا الاختلاف زهيداً وعديم الأهمية ضمن حدود حياة منزلية ضيقة، وفي حال عدم انقطاع إيقاع اللحن الثنائي الزوجي. غير أن هذا التنافر في العالم الرحب الخارجي، لا يكتفي بإحداث صخب بدل عذوبة في الصوت بل يسبب أيضاً ألماً.

هل أنا عديم الخيال!؟ هل هذا يعني أن في مصباح قلبي زيتاً وربما ضياءً، لكن لا يوجد شعلة؟ وأقول لهم في ردي على هذا الوصف، إنه على العكس تماماً فمثل هذا الطبع هو شبيه بطباعكم. أنتم لستم متألقي الذكاء، إنكم

كأحجار الصوان، تحتاجون إلى الكثير من التصادم والكثير من الضجيج لتطلقوا لمعاناً ضئيلاً، يستطيع وميضه الخاطف أن يجعلكم أكثر تغطرساً لكنه لا يستطيع أن يوسع آفاقكم.

لقد لاحظتُ منذ زمن طويل أن في طبيعة سانديب بابو بعضاً من الجشع الفظ. وأن رغباته الكبيرة تجعله يبني نهجاً بليغاً بخصوص معتقده وتدفعه إلى إرهاب الآخرين باسم خدمة البلاد. ورغم خشونة طبيعته فهو بسبب ذكائه الحاد يقيّم نزعاته وميوله ويعطيها الأفضلية. ولأنه يحتاج إلى إرضاء شهواته الجسدية الحسيّة، فهو أيضاً يحتاج بشدة إلى مكافآت سريعة ورخيصة ملؤها البغضاء التي تعشش فيه.

ولطالما حذرتني بيمالا في ماضي الأيام من حبه الشديد للمال، لم يكن الموضوع أنني لم أفهم ذلك إنما لم يكن باستطاعتي أن أكون بخيلاً مع سانديب بابو بما يخص الناحية المالية. وكنت أشعر بالخجل حتى بمجرد التفكير بأنه كان يخدعني. وخوفاً من أن تأخذ مساعدتي المالية له شكلاً سيئاً، تجنبت أي جدال أو مماحكة في هذه المسألة. سيكون من العسير عليّ أن اشرح لبيمالا اليوم أن حب سانديب بابو للوطن ليس إلا طوراً آخر من جشعه غير المألوف وأنانيته. أشعر بالتدني عندما أنوي شرح أي شيء يتعلق به لبيمالا لأنني أعلم أنها تقدسه في قلبها، كما أن عبارات البطولة التي تنعته بها تزيدني تردداً إزاء الحديث معها عنه خوفاً من أن يقودني شيء من الغيرة إلى المبالغة في ظنوني. لعل شدة الألم في قلبي جعلتني أرى سانديب بابو بصورة مشوهة فعلاً. لكن من الأفضل أن أصرِّح بذلك كتابة لأفرج عن همي خيراً من أن أبقي مشاعري مخزنة تنخر في قلبي.

لقد عرفت أستاذي في المدرسة تشاندرانات بابو لكني حافظتُ على علاقتي به وعلى التعامل والتفاعل معه لثلاثين سنة من حياتي على وجه التقريب. إنه ذلك النموذج من الشخصيات التي لا تخاف النقد، ولا الخسارة ولا حتى الموت.

عزَّز هذا الرجل النبيل وجوده في صميم حياتي بصفائه وصدقه وحضوره المليء بالتقوى، وبفضله توصلتُ لما أنا عليه من إحساس حقيقي وملموس بالسعادة، لقد فعل الكثير من أجلي ولأني قد ولدت في عائلة لها تقاليدها الخاصة لم يكن هناك من نصيحة تنقذني وتحررني مما أنا فيه سوى نصائحه.

جاءني ذات يوم تشاندرانات بابو نفسه وقال لي:

- «أمن الضروري استبقاء سانديب بابو هنا لمدة أطول؟»

عندما يكون هناك شيء لا ينذر بالخير، فهو يكتشفه بقلبه لأنه يمتلك حدساً قوياً؛ وقد كان هادئاً لا يثور بسرعة لكنه في ذلك اليوم استشف بحدسه ظلال كارثة كبيرة محدقة بنا تنتصب أمامه. كنت أعلم مقدار حبه لي.

وعند جلوسنا لأخذ الشاي، سألتُ سانديب بابو:

- «ألا تنوي الذهاب إلى رانجبور؟ لقد تلقيتُ رسالة من هناك فهمتُ منها أنهم يعتقدون بأنني استبقيتك هنا قسراً».

كانت بيمالا تصب الشاي من الإبريق المخصص لذلك، وخلال لحظات أخذ وجهها يشحب، إلا أنها نظرت لبرهة نظرة ارتياب إلى وجه سانديب بابو. فقال سانديب:

- «وصلتُ بعد تفكير إلى نتيجة بأن التجوال هنا وهناك والتبشير بالسواديشي ما هو إلا هدر لطاقاتنا. إنني أشعر بأنه لو استطعنا أن نعمل في مكان واحد كمركز لنا، يمكننا بذلك أن ننجز نتائج أبقى».

بعد أن قال هذا الكلام نظر إلى وجه بيمالا سائلاً:

- «ألا تشعرين معي وتوافقينني الرأي بضرورة هذا الأمر؟»

بدت بيمالا متلكئة وكأنها لا تعرف بما تجيب، ثم قالت بعد برهة قصيرة:

- «يمكن أن تخدم الأمة بالطريقتين، فكلتاهما صالحتان – إن بالتجوال أم بالعمل في مركز واحد. على المرء أن يختار وفقاً لما يرغب أو وفقاً لطبعه، أي أسلوب من الأسلوبين تختار للعمل وفقه هو الأصلح لك».

قال سانديب بابو:

- «دعيني إذاً أصرح لك بالحقيقة. كنتُ أعتقد حتى الآن أن عملي كان أن ألهِمَ البلاد كلها بتجوالي عبرها. لكنني أسأتُ فهم نفسي. وسبب سوء فهمي هذا كان لأنني لم أجد في حياتي مصدراً واحداً للقوة أستمد منه ذخيرتي من الطاقة وأملأ به كياني. بالإضافة إلى ذلك عليّ أن أرفع من معنوياتي بإعادة الشباب إلى مزاجي النفسي وإلى حياتي بالحماسة التي يمكنني أن أغرسها في نفوس الناس الجدد في أماكن مختلفة من البلاد. أنتِ اليوم، بالنسبة إليّ، تمثلين صوت الأمة، لم أجد في حياتي مثل هذه الروح المتحمسة في أي رجل قابلته. إنني أخجل من افتخاري بكفاءتي كل هذه المدة، سأتنازل عن مطلبي بأن أكون بطل الأمة. أنا عازم على استغلال هذه المناسبة، لأظل هنا، وأوقظ كل بلادي مستعيناً بحماسة روحكِ.

لا - لا تخجلي من فضلك – مكانتك هي أسمى من أي التباس في معنى الخجل والتحفظ أو التواضع. أنتِ ملكة النحل في خليتنا. سنعمل من حولك وقوة عملنا سنستمدها منك – وإذا شردنا بعيداً عنكِ سيفقد عملنا بوصلته ويصبح كئيباً كدراً. اقبلي من فضلك تزلفنا دون تحفظ».

احمرَّ وجه بيمالا خجلاً وافتخاراً، واهتزت يدها وهي تسكب الشاي.

وفي يوم آخر، أتى تشاندرانات بابو أليّ وقال لي:

- «لماذا لا تذهبان كلاكما إلى دار جيلينغ لتمضية بعض الوقت – يبدو لي من النظر إليك أنك متعب، هل لأنك لا تنال قسطاً كافياً من النوم؟»

في المساء سألتُ بيمالا:

- «بيمال، هل ترغبين بإجازة في دار جيلينغ؟»

كنت أعرف أن بيمالا تتوق بشدة للذهاب إلى دار جيلينغ لتشاهد سلسلة جبال الهيمالايا. لكن في ذلك اليوم قالت:

- «كلا، دعك من هذا الأمر الآن».

يبدو أن الأمة نفسها كانت بخطر.

سوف لن أفقد ثقتي التامة سأختار الانتظار. إن المعبر المؤدي من الحلبة الضيقة إلى العالم الواسع هو مسلك صعب ومحفوف بالمخاطر.

كانت حياة بيمالا مركبة ضمن قيم منزلية ضيقة، وفجأة وجدت نفسها غير مؤهلة عندما واجهت العالم الخارجي. لكن عندما تتعرف تماماً على الخارج المجهول، وتتوصل إلى التكيّف بين بيتها والعالم، ربما سأعرف أين سيصبح مكاني؟ فإن رأيتُ أنني الأخير في نظام هذه الحياة الواسعة الطارئة، وإن تيقنتُ أن كل هذه الأمور هي خداع فقط، لن يكون بعد اليوم حاجة لي بها، وإن أنا عشتُ لأرى ذاك اليوم سوف لن أتعارك معه، سأنسحب بالتدريج. هل أستخدمُ القوة أم الإكراه؟ لكن من أجل ماذا؟ هل يمكن للقوة أن تغلب الحقيقة؟

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث

سانديب

«لا يمكنني أن آخذ إلا ما قسمه القدر لي» هذا ما يقوله العاجزون وضعفاء الرأي. لكن الحكمة الدنيوية النابعة من مجموع الناس تقول: «ما يمكنني انتزاعه فهو حق لي». لن تصبح هذه البلاد بلادي لمجرد أني ولدت فيها، بل ستصبح لي يوم أستطيع أن أكسبها بالقوة.

حب الثراء هو شأن طبيعي لأن للإنسان الحق الطبيعي بالكسب. وليس في حكمة الطبيعة ما يوصي بالحرمان بأي حال من الأحوال. يدفعنا التناغم بين طبيعتنا الداخلية وبين العالم الخارجي إلى التسليم بوجوب انتزاع ما يحتاجه داخلنا من الخارج المحيط بنا، لكن التربية الأخلاقية تمنعنا من الخضوع لهذا الواقع. وفي حقيقة الأمر لم يكن الإنسان قادراً على اتباع خُطا «نيتي[١]» أو الفضيلة. لندع «نيتي» تواسي مساكين العالم الذين يُعتبَرون في عداد الأموات أكثر مما هم في عداد الأحياء، الذين لا يستطيعون أن يفهموا الحياة فهماً تاماً ولا يمكنهم أن يحتلوا مواقعَ ولا أن يمسكوا بقوة بأي شيء بل يتنازلون عما في قبضتهم عند أدنى إثارة أو تحد . أما الذين يستطيعون أن يحققوا ما يحتاجونه من كل قلبهم وأن يستمتعوا بكل وجودهم، ولا يعرفون تردداً ولا خجلاً، ويظلون واثقين من أنفسهم، فأولئك هم أبناء الطبيعة

---

(١) Niti - معنى الأخلاقيات المفصلة في "بانش شيل Panch Sheel" أو فضائل شاناكيا الخمس Chanakya، وزير الملك شاندراغوبتا ماوريا Chandragupta Maurya.

المباركون. لهؤلاء زينت الطبيعة العالم بكل شيء جميل ونفيس؛ إنهم الوحيدون المؤهلون للسباحة عبر الأنهار والقفز لاجتياز الأسوار والوصول إلى الجانب الآخر، واقتحام الأبواب لينالوا كل ما يستحق أن يُنال. في مثل هذا الظفر يكمن الفرح الحقيقي وتعلو قيمة الأشياء الثمينة. لا تهب الطبيعة نفسها إلا للغانم، ولا يبهجها إلا الذي يأخذ ما يرغب منها عنوة ويجعله ملكاً له، لأنها لا تريد أن تختار عريساً زاهداً متقشفاً نصف – ميت لتكلل رقبته الهزيلة - الضامرة بالزهور الربيعية.

ها هي موسيقى الزفاف تدق فينبعث صداها من صالة العرس، لقد اقتربت الساعة الميمونة، والإنسان تواق لمعرفة من هو العريس؟ أنا هو! هو من يسرع والمشعل الوهاج بيده يدخل ويتربع على كرسي العريس المشتهى، فعريس الطبيعة يصل دوماً بلا دعوة.

كبت، كبح؟ أنا لا أعرف الكبت أبداً، أطلبُ ما أحتاجه بلا ارتباك، وأحياناً كثيرة آخذه دون أن أطلب من أحد.

ألا يعلم أولئك الذين يتحفظون على انتهاز الفرص والقبض على زمام الأمور القيمة الجديرة بالاحترام والمستحقة العناء، محاولين كبت ألم حرمانهم عن طريق تمجيد وتعظيم الخجل والحياء، أن العالم الذي ولدنا فيه هو عالم الواقع، والفرد الذي يخذل نفسه ويضللها بالكلمات الرنانة يخرج من مركز تجارة الوقائع صفر اليدين خاوي المعدة؟ فيتساءل المرء عن معنى ولادته في هذا العالم المصنوع من أرض بهذه الصلابة؟ هل يستلم مثل هؤلاء الناس رواتب من الصالحين الورعين ومن المتعلمين النبلاء ليعزفوا على ناياتهم أنغاماً اصطلاحية داخل شرفات قصورهم الوهمية؟ أنا لا أحتاج إلى هذه النايات: تلك البراعم وهذه الجنة ليست تكفي شهيتي، كل ما أريده، أريده بوفرة، لألتهمه بنهم حتى أشفي غلتي، وأريد أن أعجنه بيديّ وأن أدوسه وأسحقه تحت قدمي، وأن ادهن جسمي به، فأنا لا أحرج من طلب أي شيء، ولا أمانع في قبوله.

لن يصل إلى أذني ذلك الصوت الضعيف المنذر المستغيث، صوت أولئك الذين تراجعوا ضعفاً بفعل الصيام وحرمان أنفسهم مراعاة واحتراماً لحسّهم الأخلاقي فأصبحوا شاحبين وهزيلين كشبح عنكبوت، يسكنون أكواخاً مهجورة.

لا أريد أن أعمل أو أن أسعى لعمل شيء بالخفاء لأن ذلك يعتبر جبناً. لكن إن لم أستطع أن أخفي حين يكون الإخفاء ضرورياً، فهو أمر معادل للجبن. أنت تريد الاحتفاظ بما تطمح إليه وتطمره في الجدار، أما أنا فأريد أن أحفر وأنقب وأسطو ما أتوق للحصول عليه. أنتَ أناني جشع، تستخدم قوتك، لذلك تريد أن تدمِّر الجدار؛ أنا أيضاً جشع، لكنني أستخدم مهارتي لأحدث تجويفاً في التربة. إن كنتَ تستطيع أن تضع فخاً فأنا أستطيع أيضاً أن أخترع مكيدة ببراعتي – هذه هي حقائق الطبيعة، وعليها بنيت الممالك والإمبراطوريات وكل الأعمال البطولية العظيمة التي ينهض بها الناس في العالم.

أما أولئك الذين يظنون أنفسهم مبعوثين يهبطون إلينا من علياء سمائهم ويحدثونا بلغة قدسية فإن أقوالهم غير واقعية ولن تجد مكاناً لها في وسط كل هذا الصخب - مهما يلقوا من تصفيق - إلا في مساكن الناس الضعفاء، لكن ليس عند الأقوياء الذين يحكمون العالم، فهم لا يحترمون كلامهم لأنهم يجدون فيه مضيعة وهدراً لطاقتهم، كما ليس عند الذين يتعمقون في فهم أمور الطبيعة ولا يتحرجون من قبولها ويبرزون بنجاح في الحياة. أما المخلوقات البائسة التي تحاول وضع قدم في قوارب الواقع وقدم في قوارب الخيال متأرجحة بين ازدواجيات الطبيعة، تبقى في حيرة محزنة تدمّر نفسها لأنها لا تستطيع لا أن تتقدم إلى الأمام ولا أن تنقذ نفسها.

هناك مجموعة من الناس لم يُخلقوا في هذا العالم إلا مع قرار بإلغاء الحياة، ولعل هناك شيئاً من الجمال – كجمال الشمس عند الغروب – في هذا الموت داخل ثنايا الحياة – الذي يبدو أنه يسحرهم. وعزيزنا نيكهيليش هو من هذا النوع من الكائنات الحية إن جاز أن نسميها حية فهو فاقد للحياة تماماً.

وقد حصل بيني وبينه جدال حامي الوطيس حول هذه المسألة منذ أربع سنوات تقريباً. فقال لي:

- «أنا أسلم بأن الإنسان لا يستطيع بلوغ هدفه إلا بالقوة، لكن الخلاف بيننا يدور حول ما تقصده بكلمة قوة وماذا تريد أن تكسب بها؟ - فقوتي أنا تستحثني باتجاه التنازل والتضحية». فأجبته:
- «بتعبير آخر، أصبحتَ إنساناً يائساً مهووساً في ضرر نفسه ومفتوناً بعظمة الإفلاس». فقال نيكهيليش:
- «نعم، أشد فتنة، تماماً كالفرخ داخل البيضة الذي يصبح شديد الاهتياج ليندفع خارج قوقعتها. طبعاً القوقعة هي شيء واقعي، أما في الصفقة، فالكتكوت يتحرك من أجل الهواء وأشعة الشمس، بينما وفق نظريتك أنتَ يعاني الكتكوت من خسارة كبيرة!؟»

يلجأ نيكهيل بأحاديثه إلى استخدام المجاز على الدوام بحيث يصبح من الصعوبة بمكان أن تشرح له أنها كلمات فقط وليست واقعاً ملموساً. حسناً، فليبقَ سعيداً بمجازاته إن كان ذلك يرضيه. نحن الحيوانات اللاحمة في هذا العالم، عندنا أسنان وأظافر، نستطيع أن نجري، ونطارد ونمسك بالفريسة ونمزقها إرباً؛ إننا لا نقنع بأن نجتر طوال اليوم العشب الذي أكلناه في الصباح، ونحن على أي حال لن نسمح لكم يا من برعتم في المجاز بأن تسدوا السبل في وجه ما وهبه العالم لنا من غذاء، فإن فعلتم، عندها، لن يبقى لنا غير السرقة أو نأخذ ما نحتاجه عنوة وإلا فلن نتمكن من النجاة بأنفسنا لنبقى على قيد الحياة.. نحن لسنا مفتونين بالموت ولا نريد إنهاء المرحلة الأخيرة من حياتنا مستلقين على ورقة لوتس ثم نتراجع فجأة وننحط، حتى وإن جرح رفقاؤنا بذلك.

سيقول الناس إن كلامي هذا ليس سوى وجهة نظري. لأن الذين يتخذون في عملهم العالمي نهجاً موافقاً لهذه المبادىء، لكنهم يعلنون

ويبشرون ضدها بل يدعون لعكسها! لذلك فهم يعجزون عن فهم أن هذه الأعراف هي سنن بينما أنا أعلم ذلك. فالحياة لها اختباراتها العملية التي برهنت حقيقة أن هذه الأفكار ليست مجرد معتقداتي فحسب، بل أفكار ثبتت مصداقيتها لدى الكثيرين. كما وجدتُ أن أسلوبي في المضي في بعض الأمور يكسبني قلوب النساء دون عناء، فالنساء هن مواطنات العالم الواقعي، لأنهن لا يحلقن عبر السحب في بالونات حوار مليئة بالأفكار الفارغة كما يفعل الكثير من الرجال.

النساء يجدن في قسمات وجهي وفي عيوني وفي جسدي وعقلي وفي كلماتي وتصرفاتي رغبة عميقة، رغبة لم تجففها إماتة الجسد وكبح الشهوات، أو التراجع والانطواء على النفس من حدة بعض المناقشات. إنها رغبة قوية صحيحة، فيض يزأر كالمدّ في أقصى علوّه يلتمس بجشع بعضاً من المسرّات. والنساء يشعرن في أعماق قلوبهن أن هذه الرغبات الجريئة هي الشريان الذي يسري فيه دم العالم، وتنتصر لأنها لا تخضع إلا لقوانينها. لقد رأيتُ نساء يرمين أنفسهن في عباب شهوتي مستسلمات غير مباليات إن قادهن ذلك إلى الحياة أو إلى الموت. يمكن للنساء أن يخضعن بالقوة، والعالم الواقعي يحكم بمثل هذه الروح القوية التي لا تقهر.

لنترك الذين يتخيلون أن هناك طبيعة أخرى يمكن ربحها فليوجهوا رغباتهم إليها. ولننتظر ونراقب إلى أي مدى تحلق ينابيع أحلامهم، والى متى سوف تستمر. لم تخلق النساء لمثل هؤلاء الرجال السفسطائيين المتكلفين الذين يشبعون رغباتهم بالأفكار الشاحبة.

التجانس! إن الله خلق أزواجاً معينة من الرجال والنساء بطريقة يكون فيها اتحادهم أكثر أصالة من أي صلاة دينية يمكن أن يتحدوا وفقها. لقد قلتُ هذا الكلام في الوقت المناسب وعند الضرورة. السبب هو أن حتى الرجل

يريد الخضوع للطبيعة، لكن عليه أن يستتر خلف بعض الأشياء والأقوال كي يكون سعيداً، لذلك امتلأ العالم بالأكاذيب. لماذا ينبغي علينا أن نكون مقيدين بعلاقة واحدة فقط؟ قد يكون هنالك ألف علاقة. فهل قطعنا على أنفسنا عهداً مع الطبيعة بوجوب التضحية بكل العواطف التي نشعر بها لمجرد الاحتفاظ بعاطفة واحدة فقط؟

لقد كسبت الكثير من النساء في حياتي بالتجانس، لكن ذلك لن يمنعني من الحصول على واحدة إضافية كرفيقة. أستطيع أن أميزها بوضوح هذه المرأة؛ وهي أيضاً تعترف بالتجانس معي وبالانجذاب نحوي.

ماذا بعد؟ أكون جباناً إن لم أنجح باستمالتها بعد كل هذا.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع

بيمـالا

أتساءل أحياناً عما حدث لإحساسي بالخجل؟ الحقيقة إنه لم يكن لدي وقت لأفكر في أمري فقد كانت أيامي ولياليّ تمر خاطفة وكأنها في دوامة، لذلك لم يكن للخجل ثمة منفذ ليتغلغل منه إلى نفسي في ذلك الحين.

قالت سلفتي الكبيرة لزوجي ذات يوم وهي ضاحكة: «ذاكوربو[١]»، يا أخي، كان البكاء في هذا المنزل حتى الآن من حظ النساء، وها قد جاء دور الرجال، سنجعلكم الآن تبكون. ما رأيك يا أميرتي الصغيرة «شوتوراني[٢]؟» لقد ارتديتِ تروسكِ المسننة واستعدَدْتِ للمعركة، سددي الآن رمحك إلى قلب الرجل المقاتل».

بعد أن قالت هذا الكلام، تفحصتني بعينيها الحادتين من فرعي إلى قدمي فلم يفتها التدقيق بالتفاصيل ولا حتى ذرة ضئيلة من تألق الألوان التي كانت تضج بها ملابسي ولا حتى سلوكي. أشعر اليوم بشيء من الإحباط وأنا أكتب هذه السطور، لكني كنتُ فاقدة الإحساس بالخجل تماماً في ذاك اليوم، لقد كنتُ أتصرف في كل الأمور بشكل لا واع، ربما تصرفت انسجاماً مع ما كان يعتمل في عمق طبيعتي.

---

(١) وهي عبارة تدل على الاحترام لأخ الزوج الأصغر، الذي لا يتوجب التوجه إليه ومناداته باسمه. Thakurpo

(٢) بيمالا هي زوجة الأخ الأصغر فهي تسمى «الشوتوراني»، أو الأميرة الصغيرة. Chotorani

أعرف أنني في تلك المرحلة كنت أبالغ في انتقاء ملابسي لكني كنت أفعل ذلك وأنا أشبه بالآلة لا أرمي إلى قصد معين، ربما كان من باب اللهو فقط، غير أني ولا شك كنت أعرف بالحدس ما الذي سيستحسنه سانديب بابو من ثيابي. لكن ذلك لم يكن يحتاج إلى تخمين أو افتراض لأن سانديب بابو كان يتحدث عنه بصراحة تامة أمام الجميع. فقد قال ذات يوم لزوجي:

- «أتدري يا نيكهيل، عندما رأيتُ ملكة النحل للمرة الأولى، جالسة بهدوء في ساريها ذي الحاشية الذهبية، وعيناها تحدقان في اللانهاية وكأنهما نجمتان قد ضلتا طريقهما، تتفرسان تبحثان وترتقبان شيئاً ما على ضفاف الظلمات السحيقة الآتية من ألف سنة خلت – بدأ قلبي يخفق، شعرتُ أن الشعلة المنبثقة من داخلها حولتها إلى شكل الحاشية الذهبية التي في ساريها وأن تلك هي ظاهرة النار الواضحة التي نحتاج إليها، فيا ملكة النحل لو تتفضلين وتستجيبين لندائي: بأن تظهري أمامنا مشرقة مرة أخرى كشعلة ساطعة، من فضلك».

كنتُ حتى الآن كجدول صغير في قرية، وكان إيقاعي ولغتي مختلفين تماماً عما هما عليه الآن. لكن، في أحد الأيام، ودون أي إنذار، غمرتني موجة عارمة آتية من البحر، فتناغمت ألحاني طواعية مع قرع طبولها، وامتلأ قلبي زهواً وغروراً، غير أني لم أستطع حينها أن أفهم فهماً تاماً معنى لحن تلك الموسيقى في دمي. ماذا جرى لبيمالا السابقة؟ كيف فاض الجمال مني فجأة؟ كانت عينا سانديب بابو النهمتان تشتعلان كقنديلين تعبداً لجمالي، وتصرخ نظراته لتقول إني المحبوبة المنشودة، ويرن كلامه كناقوس في معبد، يبدو وكأنه يخترق السماء ينادي معلناً للجميع عن قوتي وجمالي الصاعق. أسكتَ هذا النداء في ذلك اليوم جميع الأصوات الأخرى في العالم.

وتساءلتُ في نفسي هل خلقني الله من جديد في ذلك اليوم؟ وهل أراد الآن أن يعوضني عن طول نبذه لي كل هذه المدة؟ المرأة التي كانت خلوا

من الجمال أصبحت فجأة جميلة، والتي كانت عادية لا شأن لها تلمس الآن بنفسها وبشكل محسوس بأنها فخر البنغال كله.

لم يكن سانديب بابو مجرد فرد عادي بسيط – لقد كان كمصب النهر التقت فيه المناهج الفكرية لمائة ألف من مواطني البلاد، لذلك عندما أعلنني ملكة النحل في حاشيته، ردد معه كل الوطنيين في البلاد آيات الثناء لي فشعرتُ أنني قد كُرِّمتُ وشُرِّفتُ بذلك.

بعد هذا التشريف مكثت سلفتي الكبيرة على السطح الخارجي للبيت صامتة محتقرة، وسلفتي الصغيرة تصرخ مدوية بتهكم وسخرية لكني لم أعد آبه لمثل هذه اللمزات الجهيرة ولم أتأثر بها أبداً. لقد اجتزت عملية تحول كبيرة في علاقاتي مع العالم بأسره دون استثناء. فأنا اليوم مواطنة تحمل قضية، وقد أوضح لي سانديب بابو أن الوطن كله بحاجة إليّ، وأنا لم أجد صعوبة في تصديق ذلك لأنني كنت شاعرة بأن لدي قوة لتنفيذ وإنجاز كل شيء، قوة لم أختبر مثلها في نفسي إنها حماسة هائلة، إحساس لم أشعر به من قبل، شيء أكبر مني لم يتسع لي الوقت لأتبيّن طبيعته، بدا وكأنه يخرج من داخل أعماقي ومع ذلك لم أكن استطيع الزعم أنه ملكي، وكأنه ملك لشيء خارج عني، إنه ملك أمة البنغال كلها. كنتُ كفيض ماء لا يمكن لبركة حديقة البيت أن تحتويه.

كان سانديب بابو يستشيرني في كل صغيرة وكبيرة بما يتصل بالحركة وبما يتعلق بشؤون البلاد. كنتُ في أول الأمر شديدة التردد وأشعر بالحرج، لكن سرعان ما تجاوزتُ ذلك وانطلقتُ بعد فترة قصيرة، فكان سانديب بابو يندهش إعجاباً لكل ما أقوله، وكان يردد على الدوام بأن الرجال يستطيعون فقط أن يفكروا بينما النساء قادرات على الفهم والإدراك ولذلك فهن لسن بحاجة للتفكير. إن الله خلق النساء من خياله، بينما كوَّن الرجال بيديه. عندما سمعتُ هذا الكلام، بدأتُ أدرك أني لم أكن واعية لذكائي الفطري ولقوتي ربما لأن ذلك كان شأناً طبيعياً بالنسبة إليّ.

كانت الرسائل ترد إلى سانديب بابو من كل أنحاء البلاد وفي مسائل متنوعة، فكان يعرضها عليّ لأقرأها كلها وأبدي رأيي فيها ولم يكن يجيب على أية رسالة منها دون استشارتي. ربما اختلفت وجهات نظرنا في بعض الأمور لكني لم أكن أحاول مجادلته بشأنها، غير أنه بعد بضعة أيام منها، ويكون قد استيقظ باكراً، ولاحت له فكرة مضيئة، يبعث في طلبي ويقول لي:

- «انظري، ما قلتِه لي في ذلك اليوم كان صائباً ومنطقياً تماماً – في الحقيقة كانت آرائي كلها مخطئة». وكان يعترف لي في العديد من المناسبات:
- «كنتُ أعاني من أخطائي في كل مرة لم أعمل بها وفق نصيحتكِ. هل يمكن لك أن تشرحي لي سر ذلك؟»

بهذا النهج وهذه المشاركة تكوَّن عندي اليقين بأن سانديب بابو كان القوة القائدة لكل ما يحدث في البلاد وأن في أساس عمله بداهة امرأة عادية، فامتلأت مشاعري بالفخر لأني تنكبت مسؤولية عظيمة هائلة.

لم يكن لزوجي مكان في كل هذه المشاورات. فقد كان سانديب بابو يعامله كأخ أكبر يحب أخاه الأصغر كثيراً لكنه لا يثق برأيه في أي مسألة مهمة. كان يتحدث عنه بكثير من الحنان ويقول إن زوجي ساذج بريء كبراءة الأطفال فيما يخص كل هذه المسائل، وأن إحساسه ومحاكمته للأمور كانت مخالفة بالكامل للمجرى الطبيعي للأشياء.

كان يبدو أنه يحب زوجي، ويجد في وجهات نظره وفي أفكاره وفي مآزقه شكلاً فكاهياً ظريفاً. وهكذا بمحبة وحنان عفا سانديب بابو زوجي من كل واجباته تجاه الأمة.

يبدو أن نظام الشفاء الطبيعي يوفر طرقاً عديدة للآلام الثقيلة، فحين تتذر العلاقة العميقة بالانقطاع يبدأ البلسم الطبيعي يفعل فعله فينا ونحن حتى

غير واعين له، إلى أن نستيقظ ذات يوم لنجد أن انقطاع العلاقة كان أمراً نهائياً مبرماً.

بينما كنتُ مصابة بالذهول من شدة العاطفة، وكان أعمق ارتباطي يتعرض لتلقي ضربة قاتلة، لم أعِ إلا بصعوبة بالغة ما كان قد تحقق وتراكم وحصل لي. هل هي الطبيعة الأنثوية التي تجعلنا نفقد القدرة تماماً على إدراك أي شيء آخر حين تكون عواطفنا مركزة في اتجاه واحد محدد؟ ألهذا السبب نُعتبر نحن تجسيداً للتدمير؟ لقد خلقنا الدمار بغرائزنا العمياء، وليس بذكائنا، فعندما نموج كالنهر في مجراه، فنحن نوفر الرزق بأفضل ما لدينا من كفاءة، لكن إن فضنا عن ضفافنا نستجمع كل مواردنا لنضعها في خدمة الدمار.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس

سانديب

لقد لاحظتُ أن ثمة خطأ قد حدث في مسألة من المسائل، وقد اشتبهتُ به منذ بضعة أيام. فمنذ قدومي إلى هنا أصبحت قاعة استقبال نيكهيل غير منظمة وقد اختلط فيها الخارج بالداخل. كان لي الحق في الدخول من الخارج ولكن لم يكن هناك أي شيء يمنع «النحلة» من الدخول إليها من الجناح الداخلي للبيت[١].

لو أننا استخدمنا هذا الحق ببعض من التروي واستمتعنا به بجرعات صغيرة، لاعتاد الناس عليه. لكن قوة الماء كانت أعظم عندما ظهر التصدع في السد. لقد كانت لقاءاتنا في قاعة الاستقبال عنيفة لدرجة لم نستطع فيها التفكير بأي شيء آخر.

كنت أعرف دوماً متى تأتي ملكة النحل إلى قاعة الاستقبال، من سماعي لرنين خلخالها أو بعض أصوات أخرى، فقد تفتح الباب وتدفعه بقوة لا مبرر لها أو تحاول فتح الباب الزجاجي لخزانة الكتب الذي يكون قد تسمر نوعاً ما فيحدث جلبة عند فتحه. فأدخل أنا لأرى ظهرها إلى الباب عاكفة على اختيار كتاب من على الأرفف، وحالما أتطوع لمساعدتها في هذه المهمة الصعبة تنفر وتأبى، ثم ننتقل للتحدث في موضوعات أخرى.

وفي ساعة مشؤومة من بعد ظهر يوم الخميس، وبينما أنا خارج من غرفتي بعد أن سمعتُ الجلبة التي تحدثت عنها للتو، رأيتُ حارساً واقفاً في

---

(١) اندرمحل.

الرواق، فتابعت طريقي دون أن أعيره أهمية ولا حتى نظرة سريعة، لكنه اعترض طريقي قائلاً:

- «بابو، لا تذهب إلى هناك».
- «لماذا؟»
- «لأن الأميرة في قاعة الاستقبال».
- «حسناً، أنقل رسالة إلى الأميرة مفادها أن سانديب بابو يريد مقابلتها...»
- «كلا، مستحيل، ليس لدي الأوامر بذلك».

شعرتُ بغضب شديد وقلتُ له بصوت عالٍ قليلاً:

- «أنا آمرك بأن تذهب وتسألها إن كانت تستقبلني؟»

أجفل الحارس إزاء مسلكي وتراجع إلى الوراء، فدفعته برفق جانباً وسرتُ باتجاه الغرفة، وعندما وصلتُ إلى حدود الباب تقريباً أسرع باتجاهي ممارساً واجبه ومهمته وأمسك بذراعي قائلاً:

- «لا يا سيّدي، لا تذهب لو سمحت».

ماذا! كيف تجرأ ووضع يده عليّ! جذبتُ ذراعي وصفعته صفعة قوية على خدِّه.

وفي اللحظة التي كان فيها الحارس موشكاً أن يعنفني، خرجت الملكة من الغرفة عند هذه النقطة بالذات وشاهدته يهمّ بهذا التصرف. لن أنسى ما حييت صورتها وهي غاضبة. كانت الملكة جميلة وأنا من اكتشف جمالها. ولعل معظم الناس في بلادنا قد لا يلتفتون إليها ولا يرون فيها شيئاً من الجمال، فقوامها الطويل الممشوق يسميه متذوقو الجمال عندنا بأنه «هزيلٌ» لكن هذا الشكل الرشيق هو الذي أسرني. لقد كانت كينبوع حياة انبثق من أعماق قلب الخالق، تبرعمت بسرعة وحيوية. كانت بشرتها سمراء لكنها سمرة براقة كبريق فولاذ الحسام – ثاقبة من عظمة قوتها. كانت هذه القوة

تهتز وتنفعل بكل تقاسيم وجهها في ذلك اليوم. وقفتْ بالباب مشيرة بإصبعها وقالت بلهجة آمرة:

- «نانكو، اذهب من هنا! فقلت لها»:

- «لا تغضبي من فضلك، إن كان هناك أوامر تمنعني من الدخول فأنا أفضل الذهاب».

- «كلا، لا تذهب، - أدخل الغرفة من فضلك».

قالت الملكة هذا الكلام بصوت مرتعش. هذا لم يكن طلباً بل أمراً. دخلتُ الغرفة، وجلستُ على الديوان، وأخذتُ أروِّح عن نفسي بمروحة يدوية. كتبت ملكة النحل شيئاً على قطعة ورق بقلم رصاص، ونادت خادماً قائلة:

- «اذهب وسلم هذه الرسالة إلى بابو». فقلت لها:

- «اعذريني من فضلك لم أستطع أن أتمالك نفسي فضربت الرجل المسكين».

«فأجابت الملكة:

- «لقد فعلتَ خيراً».

«لكن الرجل المسكين لم يكن مذنباً ولا ملوماً، لقد كان يقوم فقط بتأدية وظيفته ولا شيء غير ذلك».

دخل نيكهيل في هذه الأثناء، فنهضتُ سريعاً من مقعدي وذهبتُ لأقف قرب النافذة وظهري باتجاهه. بادرت الملكة بالقول:

- «لقد أهان الحارس نانكو سانديب بابو».

استفسر نيكهيل عن السبب ببراءة صادقة لدرجة لم أتمالك نفسي فيها من أن التفت إليه وأحدق في وجهه مباشرة. ففكرت حينها أن افتخار هؤلاء الناس الذين يدعون بالـــ «الناس الطيبين» باستقامتهم لا يجد له تصديقاً عند زوجاتهم، إن كانت زوجاتهم من هذا النوع. ومضت الملكة تقول:

- «لقد اعترض سبيل سانديب بابو وهو في طريقه إلى قاعة الاستقبال قائلاً له إن ذلك ممنوع وإن لديه أوامر...» فسأل نيكهيل:

- «أوامر من كان ينفذ؟»

كانت الملكة على وشك البكاء سخطاً وندماً أجابت قائلة:

- «من أين لي أن أعرف؟»

أرسل نيكهيل في طلب الحارس الذي قال:

- «أنا لم ارتكب أي مخالفة. كل ما فعلته أنني نقلتُ أمراً».

- «أمراً ممن؟»

- «من الأميرتين: الأميرة الكبيرة والأميرة العجوز[1]، استدعتاني وأمرتاني بمنعه من الدخول».

تبع ذلك برهة صمت. وبعد أن انصرف الحارس قالت الملكة:

- «ينبغي أن نطرد نانكو».

ظل نيكهيل صامتاً لبرهة من الزمن. وأعلم أن ضميره كان في صراع مع نفسه، ومثل هذه المآزِق كانت تقلقه وتعذبه إلى ما لا نهاية. لقد كان موقفاً صعباً هذه المرة، وبيمالا بما هي عليه من شخصية، وبطردها نانكو من الخدمة، أرادت أن تسجل هدفاً ضد الإهانة التي وجهتها سلفاتها ضدي.

استمرَّ نيكهيل صامتاً، لكنها كانت تنظر إليه بغضب جنوني. كانت دائماً وأبداً تزدري ما يفعله نيكهيل من أفعال. نهض نيكهيل بعد ذلك وغادر الغرفة دون أن يضيف كلمة.

اختفى الحارس نانكو عن الأنظار في صبيحة اليوم التالي. علمتُ أن نيكهيل قد أرسله إلى مكان آخر في المقاطعة. وأن راتبه لم يخفض وأن الرجل قد ربح أكثر مما خسر نتيجة لهذا النقل.

أستطيع أن أتخيّل جيداً أي عاصفة قد تكون عصفت داخل أجنحة البيت بسبب هذا الحادث العادي عديم الأهمية. وأنا لا أزال أعتقد أن نيكهيل هو كائن بشري شاذ عجيب، فهو في الواقع غريب الأطوار.

---

(١) الباروانيما والميجورانيما Mejoranima- Baroranima - هما الأرملتان سلفتا بيمالا.

وكان نتيجة لما حصل أن أصبحت الملكة تدخل إلى قاعة الاستقبال ثم ترسل الحارس في طلبي من أجل التحدث، دون اختلاق أي عذر ولا أي تلفيق للزعم بأنه مصادفة. وهكذا انتقل الحال بنا من الإيماء إلى التلميح، وما لم يكن جلياً أصبح تدريجياً واضحاً بالنسبة إلينا. لقد كانت امرأة متزوجة بعيدة عن الأنظار وخصوصاً عن عيون الذكور الغرباء الذين لن يجدوا طريقاً للوصول إليها، فهي تُعتبر نجمة بعيدة المنال. غير أن كل تلك الأمور التي حصلت لم تتبع مساراً ثابتاً مُركزاً.

لقد كان في الواقع انتصاراً رائعاً للحقيقة لكن ضمن هذا الفراغ غير الهادف، كنا نشعر بانجذاب أكثر فأكثر لبعضنا بعضاً وأصبح كل منا يعرف الآخر أفضل من ذي قبل، كشفنا كل أحجبة التقليد وألقينا بها خفية إلى رياح لا يمكن إدراكها، رغم أن الطبيعة البشرية كانت تواجهنا بكل صلابتها وتتحدانا في بعض المواقف.

ماذا يمكن لي أن أسمي ذلك غير الحقيقة؟ الجاذبية والانسجام بين رجل وامرأة هي أمور واقعية، كل الأشياء المادية في العالم من ذرة الغبار إلى النجوم في السماء تدعم هذه الحقيقة لكن الرجل يريد أن يبقي ذلك مستوراً بحجاب من العظات الأخلاقية التي تتظاهر بالتقوى ويريد أن يجعل منها أداة منزلية يصنع منها في البيت المقدسات والمحظورات. هذا يشبه صهر النظام الشمسي من أجل صنع سلسلة لساعة الصهر زوج البنت[1]! لكن عندما يستيقظ الواقع استجابة لنداء الحقيقة ويقف ثابتاً في قناعته، ينبذ كلمات الرجال الجوفاء ويحوّلها إلى رماد، فهل لإيمانك أو لمعتقداتك أن تقف عائقاً بوجه ذلك؟ في هذه المواقف يحصل الكثير من الاستنكار واللوم والحزن، والكثير من المحاولات للسيطرة على المشكلة، لكن هل بإمكانك أن تتحدى عاصفة وتعاركها بمجرد كلمات بسيطة؟ فهي حتى لن تتنازل وترد، إنها تهزك فقط لأنه بالنسبة إليها هذا هو الواقع.

---

(١) زوج البنت هو الشخص المدلل في البيت الهندي.

يا لروعة الحقيقة وهي تُظهرُ نفسها على الملأ أمام أعيني، كيف يمكن التلذذ بمذاقها دون أن يعيقنا الخجل والخوف أو الشك والريبة؟

ارتعاش الركب وشرود الوجه الهائم هي أمور فاتنة حقاً. أما الخداع، خداع الفرد نفسه، وليس خداع الآخرين فقط، فهو السلاح الحقيقي في المعركة بين الصادق والمزيف. إن أعداء الحقيقة يحاولون إدانتها وينعتونها بالفظاظة، لذلك لا بد لها من التخفي أو التنكر بثياب التضليل. ففي مثل هذه الظروف، لا يستطيع المرء التسليم والاعتراف بشكل صريح فيقول: «نعم إني فظ، لأني الحقيقة العارية، أنا من لحم وهذه هي طبيعة الكائن البشري، أنا الجوع، الذي لا يخجل ولا يرحم كالصخر الذي ينزلق من الجبل فوق مساكن بشرية أثناء السيول الجارفة، فليس لديه مشكلة كم من الأرواح يزهق في هذه العملية».

أستطيع أن أرى كل شيء من خلال اهتزاز ستائرها، وأستطيع أن أرى الزينة في رحلتي على طريق الدمار، وأرى الشريط الأحمر الصغير الذي يطل من خصلات شعرها الندي والذي يبدو أنه قد هدأ من انتعاش عواطفها بقبس شهوة، قبس سريع كبرق منذر لعاصفة تقترب. أشعر تماماً بالإثارة العطرة من خلف سترتها الفضفاضة، أو المنبعثة من ثنايا ساريها. لا يزال هذا التصور في حد ذاته يحصل لي على نحو عفوي ويبقى إلى الآن بأعلى درجاته، حتى هي نفسها التي تجمع كل ذلك لا تعلم تماماً ما هي فاعلة.

لماذا لا تعلم؟ هل لأن البشر كانوا على الدوام يرفضون بإرادتهم طرق المعرفة بما هو معلوم وملتصق بالحياة وذلك بإخفاء ما هو حقيقي؟ هل لأن الكائن البشري يخجل من الواقع؟ لكن الواقع قد يعمل خلسة لينجز مقاصده، في حين تكون تحركات الواقع وإيقاعاته غائبة عن ذهن الإنسان فعندما يتجاوزه على حين غرة يشعر بالعجز ولا يمكنه إلا أن يتقبله. أما في محاولة نفيه فيكون قد ساهم بتحويله إلى مؤذٍ وإعطائه صفة وقدرات شيطانية.

وهكذا، فهو يدخل الجنة خلسة بهيئة ثعبان ويهمس بالأسرار في أذن حواء كي يجعلها تفتح عيونها وتعي وتثور، فتحتار في الدروب ودرب العودة من المحال، فسلاماً بعد ذلك على هدوء البال – بل مرحباً بالموت المؤكد.

أنا هو مذهب الواقعية ذاته. اليوم، تظهر الوقائع مطلقة من سجن الفكر التجريدي إلى ضياء النهار، وفي كل خطوة، تزداد فيها سعادتي، وأي شيء أتمناه سيأتي ويرقد بقربي، سأقبله بكل ضراوته وأقبض عليه بإحكام متشبثاً به بأظافري ولن أدعه يفلت مني، وأي أمر طارىء سيحصل وسط هذا كله، سيتحطم متحولاً إلى فتات ثم ينتثر كالغبار لتجرفه الريح بعيداً - هذا هو الفرح، هذه هي رقصة الواقع المسعورة ومن بعدها الطوفان، ومن تاريخها فصاعداً، الموت أم الحياة، الخير أم الشر، السعادة أم الحزن تغدو جميعها أموراً عادية بل تافهة عديمة الأهمية وليس لها أي نتيجة منطقية على الإطلاق.

لا تزال ملكتي مغمورة في سديم ضباب رقيق، فهي تعيش في حلم، ولا تدري في أي طريق تسير والى أين تسير، وإيقاظها قبل الأوان هو أمر غير مأمون. ومن الأفضل لها أن تعتقد أنني لم ألاحظ أي شيء يتعلق بها وأن أدعي عدم الوعي مثلها تماماً.

بينما كنت أتناول الطعام منذ بضعة أيام، كانت تتأملني بنظرات غريبة، غير واعية أنها تكشف الموضوع. وحين التقت عيناي بعينيها أشاحت بوجهها الذي احمر حياءً وخجلاً، فقلت لها:

- «ربما تدهشك شهيتي للطعام، أستطيع إخفاء الكثير من الأشياء إلا نهمي للطعام فأنا أظهره في كل خطوة منه، على أي حال طالما أنني لا أشعر بالخجل من نفسي فأنتِ ليس عليك أن تشعري بالحرج لأجلي». أومأت برأسها وازداد وجهها احمراراً وتلعثمت وهي تقول:
- «كلا كلا أنت...» فقاطعتها قائلاً:
- «إني أعلم أن النساء يملن إلى الرجال النهمين لأنهن يستطعن أن يكسبنهم عن طريق إشباع نهمهم. أنا نهم لكن من ثم توصلت اليوم إلى حالة من عدم الخجل لكثرة ما تلقيتُ من دلال وإكرام من النساء. فلذلك حتى إن حدّقت بِي بهذه الطريقة بينما أنا ألتهم

الطعام، فلن أترك بذور الثمار الغضة هذه إلا بعد ازدرادها وعصرها حتى تجف وتختفي – هذه هي عادتي».

كنت منذ يومين أقرأ كتاباً انكليزياً حديثاً وجريئاً في مناقشته للعلاقات الجسدية بين الرجل والمرأة، فتركته على الطاولة في قاعة الاستقبال، وعندما دخلتها الملكة بعد الظهر لبعض الشؤون وجدتُها تمسك الكتاب بيديها وتقرأ فيه، لكن بمجرد سماعها صوت خطواتي ألقت به مسرعة وغطته بكتاب آخر، كان هذا الكتاب – الغطاء مجموعة قصائد لـــلونغفيللو[١].

فبدأتُ الحديث قائلاً:

- «لا أستطيع أن أفهم لماذا تشعر النساء بالارتباك من قراءة الشعر؟ حري بنا نحن الرجال أن نرتبك لأن بعضنا يكون محامياً أو مهندساً فإن لم يكن لنا من قراءة الشعر بد فينبغي أن يتم ذلك في سكون الليل وخلف الأبواب الموصدة. لكن أنتن معشر النساء تعشقن قراءة الشعر الغنائي - العاطفي فالله الذي خلقكن هو شاعر الشعراء ولا بد أن الشاعر جيديفا[٢] قد تعلم الموسيقى والشعر القدسي وهو جالس عند قدميه[٣]» يكتب الـــلاليتالابانغالاتا.

لم تجب الملكة بأي كلمة، لكنها ابتسمت واحمر وجهها قلقاً وهمَّت بمغادرة الغرفة فاستوقفتها مستنكراً:

---

(١) لونغفيللو، اسم عائلة الشاعر هنري وادسورث لونغفيللو (١٨٠٧- ١٨٨٢) Henry Wadsworth Longfellow شاعر انكليزي كتب أشعاراً غنائية شجية، لكنه لا يعتبر من بين الشعراء الرئيسيين للعصر الفيكتوري.

(٢) Jaideva شاعر من القرن الثاني عشر من أوريسا Orissa كتب بالسنسكريتي وأشهر أعماله «جيتا كوفندا» Geeta Govinda

(٣) الـــلاليتالابانغالاتا Lalitalabangalata

- «كلا، هذا لا يمكن أن يحدث، أرجوك تابعي قراءتك، كنتُ قد تركتُ كتاباً هنا في الخلف –سوف آخذه وأمضي على الفور».

تناولتُ كتابي من على المنضدة وقلتُ:

- «شكراً لله أنك لم تلمسي هذا الكتاب بيدك – ولو كنتِ فعلتِ ذلك واطّلعتِ على محتواه لكنتِ قمتِ بضربي». سألتْ الملكة:

- «لماذا؟» فأجبتها:

- «لأن هذا ليس بكتاب شعر، ولأن ما بُحِث فيه هي حقائق أساسية لحياة الرجل، شُرِحَت بلغة صريحة لا تتحرز ولا تتحرج. وددت فعلاً لو يقرأ نيكهيل هذا الكتاب».

اكفهر وجه الملكة قليلاً ثم سألت:

- «أخبرني لماذا، أرجوك؟» فقلت لها:

- «إنه رجل وفرد من جنسي، كل الخلاف الذي بيني وبينه أنه يريد أن ينظر إلى هذا العالم الفظيع عبر سديم الضباب. لقد لاحظتِ أن هذه الصفة فيه تجعله يعتقد أن الحركة الوطنية لمقاطعة البضائع الأجنبية (السواديشي) هي شبيهة بقصيدة شعر لـــ «لونغفيللو» وأن علينا أن نحافظ على إيقاعها الجميل وأوزانها في كل كلمة بينما نحن نذهب إليها بهراواتنا النثرية. – نحن الجماهير التي تنتهك الشعر في كل خطوة». فسألتْ الملكة:

- «وما هي العلاقة بين هذا الكتاب وبين حركة السواديشي؟» فأجبتها:

- «ستعرفين ذلك فقط عندما تقرئين الكتاب. فسواء أكان الموضوع متعلقاً بوطننا أم بأوطان أخرى، يريد نيكهيل أن يتبع مبادىء مسبقة الصنع، لذلك يصطدم بالطبيعة البشرية الأساسية للرجل عند كل منعرج ثم يأخذ في ذم ولعن هذه الطبيعة. فهو تحديداً لا يريد أن يسلِّم أبداً أن الطبيعة البشرية قد تكونت قبل أن يتعلم الإنسان تبادل الكلمات بوقت طويل، وستستمر في الحياة بعد أن نتوقف عن تقديسها».

صمتت الملكة لبرهة ثم قالت:

- «لكن أليس طبيعياً لنا أن نسمو بطبيعتنا الأساسية؟»

ابتسمتُ وحدثتُ نفسي: يا ملكتي، هذه ليست كلماتك لقد تعلمتها من نيكهيل. أنتِ شخص طبيعي وسويّ وكامل الأحاسيس والمشاعر العطرة الفواحة الموحية بميزات طبعك الجميل. وحالما سمعتِ نداء طبيعتكِ استجبتِ بلحمكِ ودمكِ لهذا الواقع. فكيف يمكن لهؤلاء الناس أن يبقوكِ في شبكة من الأوهام نسجوها من حولك؟ ألا تعلمين أن عروقكِ تشتعل بروح الحياة فيكِ؟ كيف يمكن لأحدهم أن يكبتكِ ويلفكِ بدثار ندي من الترهات الأخلاقية الافتراضية؟ وقلتُ:

- «هناك زيادة في عدد الناس الضعفاء في العالم، كي ينجوا بأنفسهم، يرددون طوال الوقت هذه المواعظ الرتيبة إلى أن يفسدوا سماع الناس الأقوياء والأصحاء. هؤلاء فقط، لأن الطبيعة قد حرمتهم من القوة وقهرتهم، أخذوا على عاتقهم إضعاف طبيعة الآخرين». فقالت الملكة:

- «نحن النساء ضعيفات أيضاً وعلينا أن نتفاهم ونشارك في مخطط الضعفاء». ابتسمتُ وقلت لها:

- «من قال أنكن ضعيفات؟ إن الرجال يمتدحونكن بالنعومة والرقة كي يوهموكن بالضعف والخجل، لكنني أعتقد أن القوة فيكن أنتن معشر النساء. إنني أتنبأ بأنكن ستأخذن على عاتقكن إنجاز نموذج رائع من الحرية للعالم، تحققنها بتحطيم قلاع الشعارات التي بناها الرجال من حولكن. الرجال يتفاخرون ويتبجحون كثيراً في الخارج ويبالغون في التظاهر بما يسمونه حرية، لكن في الداخل، يتحولون إلى مخلوقات محدودة ومتراجعة إلى أبعد الحدود، بل خاضعة للعبودية في تفكيرها. الرجال أنفسهم هم من كتبَ النظم المقدسة التي بها قيدوا أنفسهم. لقد قولبوا النساء بشكل الأغلال الذهبية ليقيدوا بها أنفسهم. ولو لم تكن للرجال هذه القدرة العجيبة على

إيقاع أنفسهم في أشراكٍ من صنعهم لما استطاع شيء أن يبقيهم فيها. فالفخ الذي ابتدعوه لأنفسهم هو أكثر معبود مقدس لديهم. لقد رسم الرجال معبودهم بأطياف كثيرة وزخرفوه بمختلف أنواع الزينة وقدَّسوه وبجَّلوه بأسماء مختلفة. لكن ماذا عن النساء؟ من شهوتهن تم الخلق، ومن جسدهن وروحهن غذيّن دماء العالم ولحمه».

كانت الملكة فتاة مثقفة فهي لم تكن تضيع بسهولة فرصة للمناقشة. فقالت:

- «لو كان الأمر كذلك فهل كان الرجال سيعشقون المرأة ويتيّمون بها إلى هذا الحد؟» فقلت لها:
- «النساء يدركن الخطر المرافق لهذه الأمور، ويعلمن أن الذكور يحبون خداع أنفسهم كما يفضلون الأوهام على الواقع لذلك يحاولن استمالة الرجال باستعارة كلامهم نفسه فيلبسن أنفسهن ثياباً مغرية، ويعلمن أيضاً أن الرجال سكِّيرون بطبيعتهم، وأن شهوتهم للشراب المسكر أقوى من شهوتهم للطعام، لذلك يلجأن إلى حيل عديدة لخداعهم وإثارتهم حتى النشوة، خافيات بأقصى ما لديهن من كفاءة حقيقة أن هن اللواتي يساندن الرجال فعلياً. النساء هن الواقع بذاته. فلسن بحاجة للخداع - كل أنواع الأوهام الغريبة وجدت فقط للرجال. أما النساء فقد اتخذن لبوس الوهم بالإكراه». فسألتْ الملكة:
- «لماذا تريد إذن أن تحطم هذا الوهم عند الرجال؟» فأجبتها:
- «لأنني أريد الحرية - أريد الحرية للبلاد وللعلاقات الإنسانية في آن معاً. فبالنسبة إليّ البلاد هي حقيقة واقعية إلى أبعد حدود، لذلك لا أريد أن أحجبها بغشاوة من المذاهب الأخلاقية. أنا واقعي جداً مع نفسي وأنتِ أيضاً، لذلك لا أحبذ قضية نشر بعض الحكم والمبادىء لتعقيد الأمور وجعلها غير مفهومة بنقلها ورويها من كائن بشري إلى آخر».

كنت على علم تام بأن مفاجأة أحدهم من الذين يمشون بنومهم وإجفاله هو أمر ليس فيه أية صعوبة. لكني أنا جامح في طبيعتي لذلك لا يمكن لي أن أمشي ببطء ولا أن أتصرف بطريقة متأنية. وأعلم أيضاً أن فحوى حديثي ولغة الجسد التي تحدثتُ بها ذاك اليوم كانت مسرفة في الجسارة. وأعلم أنه من الصعوبة بمكان امتصاص الصدمة الأولى من جراء مثل هذا الكلام، لكن النساء يعجبهن مثل هذه الصفاقة في الرجال، أما الرجال فيحبون العيش في سديم ضباب رقيق بينما تحب النساء الواقع. لهذا السبب يقدس الرجال المظاهر الخارجية في مثالياتهم ويعبدونها بينما تضع النساء كل قربان العبادة على أقدام سلطة قوية.

بينما كنا نتبادل الأحاديث بأسلوب متقد مشبوب بالعاطفة فإذا بأستاذ نيكهيل السابق تشاندرانات بابو يدخل الغرفة. لولا ثقل الضرر الذي يسببه أساتذة المدرسة بحيث يدفعون المرء لمغادرة الحياة لكان العالم مكاناً جميلاً للعيش. والناس أمثال نيكهيل يريدون أن يبقى العالم ضمن مدرسة إلى يوم مماتهم. وتظل هذه الفكرة تلاحقهم رغم تقدمهم في السن، حتى عندما يصبح أحدهم رب بيت فهو لا يتخلى عن ذلك.

على المرء أن يجر أستاذ المدرسة ويأخذه معه بطريقة مثالية تماماً عندما يموت. مثل هذا التجسيد للمدرسة ظهر لنا في الوقت الحاسم نفسه خلال محادثاتنا. ربما هناك تلميذ لا يزال قابعاً في داخل كل واحد فينا، حتى أنا وإن كنت الوغد العفريت الناضج وقفت مشدوهاً مرتبكاً بعض الشيء من هذا التدخل. لكن ماذا عن ملكتي؟ بدا على وجهها خلال لحظات تعبير يدل على أنها أفضل تلميذة في الصف آخذة مكانها في الأمام وفي المقعد الأول، وكأنها تذكرت فجأة أن عليها مسؤولية اجتياز امتحان العالم. هناك بعض الأشخاص يجلسون على قارعة الطريق مثل محوّلي السير في السكة الحديدية وبدون سبب يغيرون اتجاه فكر الآخرين من مسار إلى آخر. شعر تشاندرانات بابو بقليل من الارتباك عند دخوله إلى الغرفة فحاول الانصراف متمتماً: معذرة إنني كنت فقط ... لكن قبل أن يكمل كلامه لمست الملكة قدميه وقالت له:

- «أرجوك ألا تذهب، يا سيدي، أدعوك للجلوس من صميم قلبي».

بدت وكأنها غرقت في الماء وتحتاج لمساعدته لينجدها. يا لها من رعديدة! أو ربما أسأت ُالفهم فلعل في دعوتها شيئاً من مكر النساء لتفهمني أنها صعبة المنال فترفع من قيمتها في عيني، أو ربما أرادت أن تقول لي رسمياً إنني رغم اعتقادي بالتأثير فيها بشكل كبير لكنها تحترم تشاندرانات بابو أكثر بكثير.

حسناً فلتفعل وتسبغ احترامها كما تشاء. يُجبَرُ المرء في نهاية الأمر على احترام معلِّمي المدرسة. وبما أنني لست معلم مدرسة فأنا لا أتطلب هذا الاحترام الأجوف. وكما قلت سابقاً أنا لا أرتوي بالأوهام لأني أعرف أن الواقع يقبع من حولي.

أثار تشاندرانات بابو موضوع حركة السواديشي، فقلتُ في نفسي إنني سأدعه يسهب في ثرثرته دون الرد على أي موضوع كان. على المرء التساهل مع الشيوخ المسنين وملاطفتهم عندما يتحدثون ولندعَهم يفرغون ما عندهم من كلام فيعتقدون بذلك أنهم يسيِّرون الآلة الضخمة لهذا العالم. لكن هؤلاء الرجال المساكين لا يعون أن هذا العالم يسير ويتقدم بخطا سريعة لا يمكن لعقلهم الصافي وذوقهم الظريف أن يلحق به. بقيتُ صامتاً لبعض الوقت ولكن حتى ألدّ أعدائي لا يمكنه أن يشوه سمعتي بقوله إني صبور.

وحين بدأ تشاندرانات بابو يقول:

- «إذا كنا في حياتنا لم نزرع بذوراً ولم نحرث أرضاً فكيف نتوقع اليوم أن نرى محصولاً ونجني ثماراً؟»....

لم أعد أحتمل السكوت فقاطعته قائلاً:

- «نحن لا نريد أن نرى المحصول - نحن نقول – قم بواجبك لكن لا تنتظر أن ترى النتائج».

ذهل تشاندرانات بابو فسأل:

- «إذاً ما الذي تريدونه حقاً؟» فقلت له:
- «الصبّار، نزرعه دون أن نتكبد مصاريف». فقال تشاندرانات بابو:
- «الصبّار لا يعيق مسار الآخرين فحسب بل من شأنه أن يلوث مسار الذي يزرعه أيضاً». فأجبته:
- «هذه عبارات تقوى تعلمها في مدارسكَ، نحن هنا لسنا بصدد كتابة قوانين أخلاقية على اللوح بقطعة من الطبشور في أيدينا. الأمر المهم الآن هو أن قلوبنا متقدة وليس علينا إلا التفكير في أمر واحد فقط هو باطن أقدام أعدائنا لنزرع الشوك في مسارهم؛ ولاحقاً، عندما يوخزنا أيضاً، سنندم ونقدِّم الكفارة عن ذلك في غضون المرحلة المناسبة. هل هذا مطلب كبير؟ عندما نكون عاجزين تماماً آيلين إلى الموت، يمكننا أن نرقد ببرودة تامة، لكن في زمن الغليان، ينبغي علينا أن نندفع بعنف، إنه موسم الغليان». ابتسم تشاندرانات بابو وقال:
- «لك أن تحتدم كما تشاء وبكل الوسائل إن أردت ذلك، لكن على ألا تعتبر نفسك أنك أنجزت عملاً رائداً وألا تحسب ذلك شجاعة أو بطولة، فالأمم المتقدمة في العالم التي أنقذت نفسها فهي لم تشق طريقها بالهياج بل تقدمت بالعمل الدؤوب. بينما أولئك الذين خجلوا من العمل، وأطالوا في غفوتهم، أرادوا، عندما استيقظوا، أن يتقدموا بسرعة في العالم بواسطة أعمالهم ومآثرهم البعيدة عن المناقب والسبل المختصرة والسهلة التي يسلكونها».

وبينما كنت أتحفز لتقديم رد قاطع على هذا الكلام، دخل نيكهيل إلى الغرفة. فنهض تشاندرانات بابو ونظر إلى الملكة قائلاً:

- «عليّ أن اذهب الآن يا أميرة فلدي بعض الشؤون ينبغي عليّ إعدادها».

وحالما غادر أعطيتُ الكتاب الانكليزي لنيكهيل وقلت له:

- «لقد كنت أحدِّثُ الملكة عن هذا الكتاب».

في هذا العالم ينبغي أن يعيش المرء بالخداع في ٩٥% من الوقت. لكن الغرابة الكبرى هي أنه كان من الأسهل مع هذا التلميذ الأبدي لمعلم المدرسة أن نخدعه بالحقيقة. أفضل طريقة يتم فيها خداع نيكهيل هي تضليله بمعرفته التامة. فيكون من الأفضل ملاعبته والأوراق مكشوفة أمامه على الطاولة.

قرأ نيكهيل عنوان الكتاب لكنه لم يقل شيئاً. فقلت له:

- «نحن الذين نعيش في هذا العالم جعلناه غامضاً بكلماتنا. وهؤلاء الكتاب قد التزموا أن يعملوا بجهد على إزالة الغبارعن المظهر الخارجي الخادع للكلمات بغية كشف وشرح المادة الحقيقية التي في داخلها. لهذا السبب أقترح قراءته، فقد يفيدكم في شيء». فقال نيكهيل:
- «لقد قرأته».
- «حسناً وما رأيك به؟»
- «إنه جيد للذين يستطيعون أن يفكروا به برؤية واقعية، لكنه سمٌّ للذين يريدون أن يخدعوا أنفسهم به».
- «ماذا تعني بذلك؟»
- «انظر، في عالم اليوم، الرجل غير الجشع فقط هو المخوَّل بالقول أن لا أحد له أدنى حق في الملكية. لكن إن كان لصاً بطبيعته، فكل ما يقوله يكون محض كذب. وعندما يتغلب عليك الانفعال فأنتَ لا تستطيع أن تفسر هذه الكتب بمضمونها الصحيح».
- «نزعاتنا الطبيعية هي علامات إرشادنا وهي من فطرتنا وبمساعدتها نتلمس طريقنا. والذين لا يؤمنون بنزعاتنا كمن يقلع عينيه بغية تحقيق رؤية إلهية يائسة».
- «أنا أؤمن بمثل هذه النزعات فقط في حال التسليم بحقيقة التحكم فيها. أما إذا أقحمتُ في عيني شيئاً فأنا لا يمكنني رؤيته بل أنا فوق ذلك أؤذي عيني. كما أن الذين يبغون قياس كل شيء على ضوء ميولهم ونزعاتهم، فهم يشوهون هذه الميول والنزعات ويحرفونها

عن مسارها الطبيعي بالإضافة إلى أنهم يتوهون عن رؤية الحقيقة، فعنف الانفعال لا يترك مسافة بين العقل وموضوع المعالجة الأمر الذي يؤدي إلى عكس المقصود».

- «انظر يا نيكهيل، إنه من الترف والكماليات أن تسمح لنفسك النظر إلى الحياة من منظار ذهبي ليريك مشاهد من النظم الأخلاقية. لهذا السبب أضفيتَ غشاوة من الإبهام على رؤيتك بينما حان الوقت بالنسبة إليك أن تنهض وتفعل شيئاً ما. لا يمكنك أن تنغمس في أي عمل كان مع إدانة مسبقة».
- «لا أعتقد أن إقحام القوة في كل عمل نقوم به هو كل ما علينا فعله».
- «ماذا إذاً؟» فقال نيكهيل نافذ الصبر:
- «يا لهذه المناقشة عديمة الفائدة؟ لماذا تسهب في المجادلة بهذه الأمور؟ إن الجدل الفارغ غير المنتج حول مثل هذه القضايا يشوهها ويفسد جمالها ورقيها».

وددتُ لو أن الملكة تشترك في المناقشة لكنها مكثت صامتة كل هذه المدة، ربما أثرتُها بشدة وحرّكتُ فيها مشاعر وأفكاراً جديدة لدرجة أنها وجدت نفسها في حالة صراع تنشد مساعدة أستاذ المدرسة في شرح دروسها.

أتساءل فيما إذا كنتُ قد تجاوزتُ حدودي في ذلك اليوم لكنه كان من الضروري لي أن أصدمهم بهذه الطريقة، فهذه الهزة الكبيرة كانت لازمة، لأنه من الأهمية بمكان وبشكل أساسي أن يبدأ المرء بالإدراك أن الأمور التي يظنها راسخة يمكن أن تهتز. قلتُ لنيكهيل:

- « لقد كان شيئاً حسناً أنني تحدثت معك بهذه الأمور فقد كنت موشكاً أن أعطي هذا الكتاب للملكة كي تقرأه».
- «وأي بأس في ذلك؟ فإن كنتُ أستطيع قراءة هذا الكتاب فلماذا لا تقرؤه بيمالا أيضاً؟ إنما أريدُ توضيح شيء واحد فقط: في أوروبا قد تم تحليل كل المظاهر الإنسانية علمياً، ومناقشة كل وجود وكيان

الجنس البشري وكأنه جزء من الفيزيولوجيا وعلم الحيوان وعلم النفس، بل والأفضل من هذا كله جزء من علم الاجتماع. لكنني أذكركم وأناشدكم جميعاً ألا تنسوا أن الجنس البشري ليس ظاهرة أو مبدأ أو نظرية في العلم، إنه مركب من مجموع كل هذه العلوم، والآن قد تجاوز هذه العلوم وآخذ بتوسيع مداه باذلاً أقصى جهده باتجاه اللانهاية. لقد سخرتَ مني عندما قلت إنني تلميذ لأستاذ المدرسة، بينما الواقع هو أنتم من يريد أن يعرف الجنس البشري بمساعدة أستاذ العلوم، لا من داخل روحكم المحركة، ولست أنا».

- «لماذا أنت مضطرب وعصبي إلى هذا الحد هذه الأيام يا نيكهيل؟»
- «لأنني أستطيع أن أتبين أنك آخذ بامتهان وإذلال الكائنات البشرية».
- «أين رأيت ذلك؟»
- «في كل الأجواء من حولي، في الألم الذي أحس به وفي مشاعري المهانة. أنت تريد أن تهدم ما هو أعظم ما في الجنس البشري، وهي صفته النقية في الزهد».
- «ما هذه الحماقة التي تطلقها!» فهبَّ نيكهيل فجأة ووقف قائلاً:
- «انظر يا سانديب، لا أزال اعتقد بقوة وثبات أن الإنسانية الكامنة فينا لن تدمَّر رغم ضربات الموت الآتية من كل حدب وصوب. وأنا بالإضافة إلى ذلك مستعد لمواجهة أي محنة تعترضني بكل وعي ومعرفة».

غادر الغرفة على الفور بعد أن عبَّر عن رأيه بتلك الأقوال؛ لقد ذهلتُ من تصرفه الغريب وفجأة سمعتُ دوياً ورأيت كتابين أو ثلاثة كتب قد سقطت من على الطاولة على الأرض. التفتُ فرأيتُ الملكة تتبعه بخطى سريعة عصبية سالكة طريقاً دائرياً لتتجنب المرور بقربي معبرة بانسحابها عن فقدان صبرها.

يا له من إنسان غريب نيكهيل هذا! لقد فهم واستوعب تماماً أن الكارثة قد نسجت إلى حد بعيد داخل حياته العائلية. لكن لماذا لا يمسكني من عنقي

ويطردني خارج هذا البيت؟ أعرف إنه ينتظر ليرى ما ستفعله بيمالا. فإن قالت له أن زواجهما كان خطأ، فسيحني رأسه ويسلم بأنه كان خطأ وبكل تواضع. فليست لديه القوة الكافية ليدرك أن الاعتراف بالخطأ هو أفدح الأخطاء. نيكهيل هو المثال الحي الذي منه نتبيّن كيف تحولنا الأفكار إلى عاجزين مغلوبين على أمرنا. أنا لم أرَ في حياتي رجلاً مثله. إنه نزوة من نزوات الطبيعة، لا يمكن لإنسان حتى أن يكتب قصة أو مسرحية عنه.

والملكة؟ أعتقد أنها اليوم قد وعت من حلمها ونشوتها. فقد فهمت أخيراً التيار الذي يحملها معه، وعليها الآن التفكير بوعي ووجدان لتتخذ القرار بأي اتجاه ينبغي عليها أن تخطو. لعل الأقرب إلى الظن أنها من الآن فصاعداً ستتقدم خطوة ثم تتأخر أخرى في دوران متكرر لكن ذلك لا يقلقني. فعندما تشتعل النار بثياب إنسان يصبح خوفه واندفاعه ودورانه حول نفسه سبباً لاحتدام لهيبها. لذلك سيحتدم انفعال بيمالا من جراء صدمة خوفها . لقد سبق ورأيتُ الكثير من مظاهر هذه العواطف والانفعالات.

أذكر كيف استسلمت لي الأرملة كوسوم[١] وهي ترتجف خوفاً. وتلك الفتاة الهندو - انكليزية التي كانت تسكن بالقرب من النزل الذي كنت أقطنه، كيف كانت تغضب مِني بين الفينة والفينة وكيف كانت تبدو وكأنها تتمنى أن تمزقني إرباً. لا أستطيع أن أنسى اليوم الذي طردتني فيه خارج غرفتها وهي تصرخ باكية: «اخرج من هنا! اخرج من هنا!» لكن حالما خطوت خارج عتبة الغرفة أسرعت إليّ وأمسكت ساقيّ بذراعيها وأجهشت بالبكاء، وهي تصدم رأسها بالأرض، إلى أن وقعت أخيراً مغمى عليها. أنا أعرف تماماً هذا النوع من النساء بغضبهن وخوفهن وخجلهن وحتى بآثار النفور والكره الذي يضرم النار داخل قلوبهن قبل أن يتحوَّل إلى رماد، والشيء الوحيد الذي يمكن له أن يسيطر على هذه النار هو المثال الأعلى. لكن النساء لا يكترثن بالمثل العليا. يذهبن لزيارة الأماكن المقدسة، ويقمن بمآثر حميدة ويمارسن طقوس الطهارة

---

(١) Kusum.

ويلمسن أقدام زعيم طائفتهن باحترام كبير، تماماً كما نحن نعمل في الوظائف، لكن تبني أفكار من أي نوع كانت هي بغيضة بالنسبة لطبيعتهن.

لعل الأجدى ألا أكلمها كثيراً عن نفسي، بل أكتفي بأن أعطيها بعض الكتب الانكليزية الحديثة لتقرأها، لأجعلها تفهم رويداً رويداً وبوضوح تام أنه من الحداثة بمكان أن يعترف الإنسان بغرائزه ويحترمها، وإنه لا يكون عصرياً في شيء إن هو خجل من ميوله ورغباته بتمجيده السيطرة عليها. ستشعر بالثقة عندما تجد ملاذاً في كلمة «حديث، أو عصري». ذلك لأن النساء بحاجة إلى الأماكن المقدسة والزعماء والمعتقدات الخرافية. فالأفكار لا تعني شيئاً بالنسبة إليهن.

مهما يكن من أمر فلننتظر ولنتصور المسرحية حتى الفصل الخامس. لا أستطيع أن أتبجح بالقول إنني متفرج فحسب، أجلس على مقعد في المقصورة وأصفق بين حين وآخر. إن قلبي أيضاً يشعر بضغط كبير وأوردتي أيضاً مثقلة بالألم. وعندما أطفىء النور وأمضي لأنام في الليل، تحوم من حولي لمسات طفيفة أو تبادل كلمات بين آونة وأخرى وومضات نظرات خاطفة تملأ ظلام الغرفة وعندما أستيقظ في الصباح يتوهج في داخلي فرح وابتهاج وأشعر بلحن غنائي يجري في دمي.

كان على المنضدة إطار مزدوج فيه صورة نيكهيل وبيمالا جنباً إلى جنب. فنزعت في الأمس صورتها من هذا الإطار وأريت للملكة الجانب الخالي منه، وقلت لها:

- «يُسرَق البخيل بسبب بخله، لذلك علينا أن نتقاسم اللوم والمسؤولية عن السرقة بين البخيل والسارق. ألا توافقينني على ذلك؟».

ابتسمت الملكة ابتسامة صغيرة وقالت:

- «لم تكن هذه الصورة من الصور الجميلة». فقلت لها:

- «ماذا يمكننا فعله إزاء ذلك؟ لا تكون الصورة أفضل من النسخة المطابقة للأصل ولا بأي حال من الأحوال، لكن سأكتفي لنفسي واقنع بها مهما كانت».

فأخذت الملكة كتاباً وراحت تقلب صفحاته، ومضيت أقول لها:

- «إن كان ذلك يضايقك سأملأ المكان الفارغ».

ملأتُهُ اليوم بصورة لي وأنا في ريعان شبابي. بدا فيها وجهي بريئاً وكذلك نفسي. ففي ذلك الزمن كنت لا أزال أؤمن بمعتقدات متنوعة عن الحياة في هذا العالم وعن العالم الآخر بعد الموت. مثل هذا الإيمان يخدع المرء دون أدنى شك، لكن من فضائله وأحد أعظم صفاته انه يضفي جمالاً للروح. إلى هذا الحد حصل أن صورة نيكهيل وصورتي ونحن صديقان قديمان، صورتان استراحتا متجاورتين في الأطر.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس

نيكهيليش

لم يكن من عادتي أن أفكر في نفسي أبداً، لكن غالباً ما أحاول في هذه الأيام أن أنظر إلى نفسي من الخارج، محاولاً أن أعرف كيف تراني بيمالا، مع ميلي لأخذ الأمور بقليل من الجدّية لأنه من الأفضل أن يضحك الإنسان من أحزانه من أن يبكي قلبه منها، فهكذا تسير الدنيا، ونحن نبحر في عباب الحياة نابذين كل أحزاننا ننشرها عبر العالم كظلال من أوهام، ترى لو كنا أخذناها على محمل الجد ونظرنا إليها على أنها حقائق هل كنا سنستطيع العيش بسلام؟

غير أني لا أستطيع أن أنظر إلى نفسي وكأنها من بين الذين يستسهلون الأمور ومتفائلين بطبيعتهم لهذا يبدو لي وكأن العالم جاثم على صدري إلى الأبد من ثقل أحزاني. أضف إلى ذلك حياتي الرسمية – ومن ثم واقع دموعي التي تغمرني وتربكني إن أنا أكثرتُ من النظر إلى نفسي.

يا لك من بائس تعيس، لماذا لا تقف ولو لمرة واحدة متفرداً في رواق العالم الحقيقي وتحاول أن ترى نفسك في علاقتها مع كل من في داخله؟ ماذا تكون بيمالا بالنسبة إليك بين حشود البشر الممتدة عبر العصور؟ إنها زوجتك! لكن ماذا تكون الزوجة؟ لقد مجدتَ وعظمتَ هذا الاسم بمحض غطرستكَ وتحاول الآن أن تصونه بالليل وبالنهار؟ لكن هل أنت موقن أن مجرد طعنة إبرة من العالم الخارجي توشك أن تفجِّر هذه الفقاعة؟

زوجتي! هي دون أدنى شك ملكي! وماذا لو أكدَتْ معلنة أنها ملك نفسها فقط؟ سأقول لها: «كيف يكون ذلك؟ أنت زوجتي في جميع الأحوال!»

زوجة؟ هل يعقل هذا؟ وهل يمكن أن تكون حقيقة؟ هل يستطيع إنسان أن يسجن كائناً حياً من رأسه إلى قدميه داخل هذه الكلمة؟

زوجة! كلمة رعيتها في فؤادي وأودعتها أنقى وأرقّ ما في حياتي ولم أدعها أبداً تسقط من صدري إلى التراب. لهذا الاسم، قدمتُ أريج وفائي قرباناً وتقديساً، وجعلتُ نايات الكون تعزف له ترانيم المساء، ونثرتُ من أجله الكثير من أزهار الربيع والخريف. فإن أرادت أن ترمي بنفسها في مياه القنوات الآسنة كزورق ورقي صغير، فأنا أيضاً سوف...

وها أنا مرة أخرى أقع في قبضة الشدة، فمن أعني عندما أقول قنوات أو مياه آسنة؟ إنها كلمات تقال فقط في نوبة غضب ونقمة لكن هل أنا قادر بغضبي أن أغير حقائق العالم؟ فإن لم تكن بيمالا لي، فهي حقيقة ليست لي. وكلما أحاول أن أخفي الحقيقة، أو أنفعل بحماسة مفرطة أو أصرخ، تصبح أكثر وضوحاً. لكن قلبي يتحطم، فليتحطم، فلن يفلس العالم من أجله ولا حتى أكبر بكثير مما يفقده في هذه الحياة. هناك خلاص وراء محيطات الشقاء. لذلك نذرف الدموع – ولو لا ذلك لما بكى الإنسان.

أما من وجهة نظر مجتمعنا... لندع المجتمع يعتني بذلك ويفعل ما يلزم فعله. فأنا انرف دموعي باكياً على نفسي ولا أشرك المجتمع بلحني الحزين. فإن قالت بيمالا إنها ليست زوجتي سأودعها حتى لو ظلت زوجة في عيون المجتمع.

نعم أنا يائس لكني سوف أنقذ نفسي من الألم الغادر، لن أفكر أبداً كالجبناء؛ لقد أضحيت أقل قيمة لأنني ابتليت بالإهمال. حياتي هي شأن هام وأنا لم أُخلَق في هذا العالم لأساوم عليها مقابل عالمي البيتي الضيق، وأنا أؤمن حقيقة برسالتي في العالم الرحب ولن أدعها تخفق وتسقط.

إنه من الأهمية بمكان بالنسبة إليَّ اليوم أن أنظر إلى بيمالا بحيادية كما أنظر إلى نفسي. فأنا قد خلعتُ عليها مثاليات كانت ذات قيمة بالنسبة إليّ، وحان الوقت الآن لأجردها منها. لم تكن بيمالا في الحياة تشبه ما يمثله لي رمز

الأنوثة في كل مظاهره، أما الآن فقد عبدتها في صورتها تلك وعلى ما هي عليه، وهذا ليس نبلاً مني بل أكبر موطن ضعف في شخصيتي. فأنا أناني محب اللذات أردت من أعماق قلبي أن أبحث عن المتعة في خلق هذا النموذج المثالي بلبوس الفضيلة فكانت بيمالا مجرد ذريعة له. لكن بيمالا هي كما هي – ولا شيء يقول بأن عليها أن تكون نسخة طبق الأصل عن الملائكة لترضيني. أليس لدى الخالق[١] أي شيء يفعله سوى أن ينحت لي صوراً مطابقة لتوصياتي؟

عليَّ بالتالي أن أرى اليوم الأشياء بوضوح أكثر. سوف أطمس بقوة كل الصور التي كنت قد خلقتها من ألوان وهمي. كنتُ قد اخترتُ كل هذه المدة أن أتجاهل أشياء كثيرة كانت واضحة جداً. أما الآن فعرفتُ بأني لم أكن إلا مصادفة في حياة بيمالا. فالشخص التوأم لطبيعتها هو سانديب ولعلها لا تستطيع أن تعرف الاتحاد الحقيقي إلا مع رجل مثله وهذا يكفيني أن أعرفه الآن.

يمضي الزمن وأنا بحاجة لأن أكون متواضعاً مع نفسي بعيداً عن الغرور. فلسانديب ولا شك الكثير من الصفات الجذابة كان لها تأثير بانجذابي إليه طوال تلك المدة. لكن أقل ما أستطيع قوله إنني في يقيني لا أجده أعظم مني. فإن كان على بيمالا أن تختار بيني وبين سانديب في المجلس التقييمي[٢] للعرسان وتضع الإكليل حول عنقه، سيحاسبها الله ولست أنا الذي سأحاسَب لإهمالها لي.

إنني لا أقول ذلك من باب المفاخرة فأنا اليوم إن لم أسلم بصحة قيمتي الحقيقية بكل ما فيها من قوة، وإن أنا اعتقدتُ أن هذا الجرح الذي تلقيته هو أكبر إهانة أصابتني في هذه الحياة، أكون قد دفعتُ بنفسي كالنفاية إلى مزبلة العالم. وعندها ستضعف قدرتي وتكف عن القيام بأي نوع من العمل.

---

(١) الفيشواكارما Vishwakarma

(٢) Swayamvarsabha – سوايامفارسابها: مجلس تقييمي للعرسان، الذي وفقاً للأعراف القديمة ينبغي عليهم أن يعرضوا مظهرهم ومهاراتهم الزوجية أمام العروس التي بدورها تكلل وتختار واحداً منهم زوجاً لها.

وبناءً على ذلك، فلأفرح بخلاصي حتى وسط آلامي. لقد توصلتُ إلى التمييز الآن بين ما هو حقيقة في داخلي وبين ما بات خارجاً عني. ففي النهاية، الربح والخسارة قد تعادلا، والذي بقي هو أنا. وأنا لست مقعداً ولا أضعف مخلوق على وجه الأرض كما أنني لست شخصاً سقيماً منحرف الصحة، أتغذى بطعام المرضى في الجناح الداخلي من البيت. لقد صنعني الله من خامات متينة. لقد انتهى اختباري – ولا يمكنني أن أواجه مصيبة أسوأ من هذه.

أتى الأستاذ ماستر موشي[١] الآن ولمس كتفي برقة قائلاً:

- «اذهب إلى النوم يا نيكهيل إنها الساعة الواحدة صباحاً».

والواقع إنه من العسير عليّ أن آوي إلى الفراش قبل أن يتأخر الليل – أي قبل أن تستغرق بيمالا في النوم. فنحن نتلاقى في النهار وربما نتبادل الأحاديث لكن ماذا بوسعي أن أقول لها حين ننفرد في سكون الليل وكل جسدي ونفسي ينقبضان بمجرد التفكير بما يحصل.

فسألته بدوري:

- لماذا أنت ساهر حتى الآن ولم تنم بعد؟ فأجابني:

- «إنه دوري الآن أن أبقى يقظاً فأنا لم أعد في سن يمكنني فيه من النوم بسلام».

كنت قد بلغت من الكتابة هذا الحد وهممتُ بالقيام لأذهب إلى الفراش حين رأيتُ السحابة الموسمية في السماء، وكانت مرئية لي تماماً من النافذة، لقد تصدعت إلى شقين كل شق مستقل عن الآخر، وفي وسطهما تألقَ نجمٌ لامعٌ، بدا وكأنه يقول لي إن الحياة هي كالأحلام، علاقات تتشكل باستمرار وتنقطع، لكنها لا تزال باقية في مكانها الصحيح، إنها كشعلة الشمعة السرمدية

---

(١) Master moshai - هو Chandranathbabu

في غرفة العرس، القبلة الأبدية لليلة الزفاف. مواثيق أرض الأحلام تبرم وتنقضي ولكنني باق هنا أبداً نوراً أزلياً.

في ذلك الوقت امتلأ قلبي بمشاعر تحدثني بأن حبيبتي لا تزال مخلصة بحبها لي منذ العصور السحيقة وخلف زمن العالم المادي. لقد رأيتُ لها صوراً عابرة في العديد من المرايا- بعضها مكسور وبعضها ملتو وبعضها الآخر قاتم مظلم- وذلك في حيوات سابقة. وكلما حاولتُ أن أمتلك المرآة وأغلق عليها داخل صندوق، كانت الصورة تغيب عن ناظري. فليكن! وماذا في ذلك؟ وماذا أصنع بالمرايا والصور؟ يا حبيبتي، ثقتك بي ستبقى صامدة وبسمتك لن تغيب عني أبداً وسوف يستمر شروق الشمس يومياً كي يعكس تألق الطابع القرمزي الذي كنت قد حفرته من أجلي أنا في مفرق شعرك.

انتصب شيطان في أجنحة الظلام وسخر مني بقوله أن كلام السلوان هذا معد لتهدئة طفل- فليكن – فهناك ملايين الأطفال يبكون كي تتم ترضيتهم. لا يمكن للمرء أن يكيّف نفسه كثيراً مع الأوهام. فحبيبتي لن تخونني إنها وفية وصادقة معي. لذلك أنا أتصورها على الدوام في خيالي، وسوف أستمر أحلم بها، لقد رأيتها وسط أخطاء، وعبر غشاوة دموعي الكثيفة. لقد وجدتها وفقدتها ثم وجدتها ثانية في زحمة سوق الحياة، وسوف أراها حتى بعد اجتيازي هاوية الموت. آه يا قاسية، توقفي عن التهكم بي ولا تمضي في لعبك بي. إن كنتُ قد عجزتُ عن الاهتداء إلى مسار خطاكِ، وإلى عبق شعركِ المسدول مالئاً الهواء الذي أتنفسه، فلا تجعليني أبكي ذلك أبد الدهر. أكد لي النجم كاشف الأسرار الذي رأيته بأن لا شيء يدعوني للخوف، فما هو أبدي لا بد أن يكون موجوداً دائماً.

فلأذهب الآن خلسة وأرى بيمالتي. لا بد أنها مستلقية على السرير ومستغرقة في النوم. فلأطبع قبلة على جبينها دون أن أوقظها لتكون قربان وفائي بالنذر. أعتقد أن بعد مماتي سأنسى كل دموعي وأخطائي – وكل شيء

عدا الذكرى النابضة بالحياة لهذه القبلة؛ ذلك لأن أكاليل الزهر التي حُبِكتْ من مثل هذه القبلات في حياة بعد أخرى قد غُزِلتْ مع بعضها بعضاً لتزين عنق حبيبتي الخالدة.

عند هذه النقطة دخلت زوجة أخي الصغرى الغرفة، وكانت الساعة قد دقت الثانية صباحاً بجرسها المدوي.

ماذا تفعل هنا يا أميرنا العزيز؟ أرجوك قم إلى سريرك يا عزيزي ولا تجلد نفسك بهذا الشكل ثانية فأنا لا أحتمل رؤيتك بهذا الظل المخيف من الألم على وجهك..» وهي تحدثني بهذا الكلام لم تستطع أن تمنع دموعها التي انهمرت بصمت من عينيها.

لم أنبس ببنت شفة لكني مسحت التراب من على قدميها ومضيتُ لأنام.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السابع

بيمـالا

لم أكن في بداية الأمر أتوهم ولا حتى أخاف من شيء كنت أعتقد أنني قد وهبتُ نفسي لأمتي. وكم كان في هذا التسليم من مجد عظيم لي! ثم اكتشفتُ الآن أن سعادتي الكبرى كانت خدعة كبرى تسببت في جلب محنة كبيرة لنفسي.

لا أستطيع القول إنه فيما لو مضيت عبر مثل هذه النوبة الغامضة المشوشة، لكان هذا الاستحواذ انتهى نهاية تدريجية طبيعية. لكن سانديب بابو لم يستطع أن يكبت نفسه أكثر من ذلك. – بل عبَّر عن نفسه بوضوح بطريقة جعلت نغم كلماته يلامس أعماق كياني ونظرات عينيه تستجدي مني إحساناً راكعة على قدميّ. وفي ثنايا هذا كله كان هناك سرّ في ذلك الشوق الرهيب الذي شعرتُ به كأنه بحدته يريد أن يمسكني من شعري ويقتلعني من الجذور ويرميني.

لأكون صريحة مع نفسي، لقد أغواني هذا الوله المتوهج، الجارف وسيطرعلى تفكيري ليلاً ونهاراً. بدأتُ أشعر أن ذلك كان نداء مغرياً يجذبني لتمزيق نفسي إرباً بهذا الشكل. لكن رغم الخوف والارتباك، كان فاتناً ساحراً إلى أبعد الحدود.

إلى جانب هذا كله لم يكن لفضولي حدود. ذلك الرجل كنت قد تعرفت إليه منذ فترة قصيرة فقط لم نكن قد رفعنا الكلفة وتخطينا الرسميات فيما بيننا ولم أكن اعرف عنه إلا القليل، وحتى أني لم أكن لأصل إلى مستواه فهو

يمتلك قدرات هائلة. كان شبابه يفور بمائة شعلة من اللهب وأي سر في أشواقه الجياشة الرائعة ولهفته التي لا حدود لها، لم أكن أتصور في حياتي أن يحصل لي كل ذلك. يبدو أن المحيطات البعيدة التي لم أسمع باسمها إلا من صفحات الكتب، اجتازت كل الحواجز في مسارها تحت طوفان هائل، ومثلتْ أمامي في جانب من بركة حديقتنا الخلفية حيث كنت أملأ الماء في آنيتي، فتدفقت مزبدة على قدميّ.

لقد عبدتُ سانديب بابو في البداية، لكن التزلف تضاءل حتى خبا. حتى أنني لم أعد أكن له أي احترام. فإن شعرتُ بشيء الآن فهو شعور بالاحتقار فقط. وفهمتُ تماماً أنه لا يمكن مقارنته بزوجي وتعلمتُ تدريجياً أن العيوب الذكورية في سانديب هي مجرد تهور واندفاع بغير تفكير.

ورغم كل ذلك، بدأت قيثارتي، المصنوعة من دمي ولحمي والتي تشكلت في وجداني ومزاجي تطرب لعزف نغماته. كنت أريد رد اليد العازفة وإبعاد القيثارة – إلا أن صداها ظلَّ يستثيرني كما ظلَّ مغناه يملأ كياني طوال الليل والنهار. أصبحتُ قاسية متحجرة القلب أردتُ أن أغمر نفسي وأعمِّدها في أعماق هذه الألحان وأغرِق كل شيء أملكه في هذه السيرة. كل نبضة في عروقي وكل هدير في دم حياتي يبلغني هذه الرسالة. فتيقنت أن هناك شيئاً ما بداخلي يجعلني أتجرأ على القول – إنه كان من الأفضل لي أن أموت.

يجيء ماسترموشي حين يتسع وقته لذلك. لديه القوة التي بها يستطيع أن يرفع نفسي إلى قمة أستطيع منها أن أبصر حدود حياتي بطريقة هادئة وعن بعد. وأصبحت مدركة الآن أن ما اعتقدته نهاية قصوى لمجالي لم يعد نهاية تنتهي عنده حدودي.

لكن وماذا بعد؟ لا أريد أن أفكر بهذه الطريقة ولا حتى أن أقول بصراحة إنني أبغي التحرر من هذا الإدمان الذي استولى على كياني. فرغم ما يجلبه من

شقاء إلى بيتي ويدنس حقيقتي ويدمرها، فأنا لا أستطيع التخلي عن هذه الرغبة بل سوف أدعها تغمرني باستمرار بهذا الشقاء ومرحباً بعده بجهنم.

عندما كنت أرى سلفي زوج مونو – وقد مات الآن – يضربها على الدوام ضرباً جنونياً بعد أن يكون قد شرب الخمر، ثم يصرخ باكياً نادماً ومقسماً بألا يمس الكحول ثانية، لكن في الليلة التالية تحديداً يجلس مع كأس خمرته من جديد، فكنت أستشيط غضباً منه وازدراءً له. أما اليوم، فأرى أن سكري هو أشد خطورة من سكره، فأنا ليس عليَّ أن أشتري الشراب المسكر أو أن أسكبه في كأس فهو ينبع تلقائياً من وجودي ومن دمي، فنشوتي لا تشترى ولا تسكب في كؤوس بل تتدفق في كياني ولا أستطيع لها صموداً. ماذا ينبغي عليَّ فعله؟ هل سيستمر هذا إلى آخر أيام حياتي؟

ومرة بعد مرة أنتبه أنني قد روعت فعلاً وأنظر إلى نفسي فتبدو لي حياتي كأنها كابوس من البداية إلى النهاية. قد اكتشف يوماً ما أن هذه ليست حقيقتي، لأنها متناقضة جداً وغير متماسكة فلا يوجد فيها رابط بين الماضي وبين الحاضر، إنها كفضيحة مظلمة قد صبغت بيد ساحر بمسحة وهمية من ألوان قوس وقزح.

آه لا أعرف ماذا حصل لي وكيف حصل!..

قالت لي سلفتي الصغيرة ذات يوم وهي مازحة:

- «إن كنتنا هي فعلاً إنسانة موهوبة. لقد أولت الضيف عنايتها الفائقة لدرجة إنه لا يريد أن يفارق البيت ولو للحظة واحدة. نحن أيضاً كان لنا في أيامنا الغابرة غرف للضيوف، لكننا لم نكن نحسن ضيافتهم إلى هذا الحد. في تلك الأيام كان العرف يوجب علينا أن نعتني بأزواجنا. مسكين نيكهيل، لقد تم خداعه لكونه ولِدَ في أجيال العصور الحديثة. كان ينبغي أن يأتي إلى هذا البيت كضيف ليصبح استمراره فيه أكثر ضماناً لبعض الوقت على الأقل. أما الآن فالظاهر أن هذا الموضوع هو غير مؤكد. أيتها الغولة الصغيرة،

ألا تحاولين حتى أن تلقي نظرة خاطفة ولو لمرة واحدة لتري من مظهره كم يقاسي من عذاب؟»

لم ينل مني هذا الكلام ليقيني أن هؤلاء الناس لا يمكنهم أن يتفهموا التزامي ببلادي. كنت وقتئذ محاطة بستار من العاطفة وأعتقد بأن ليس هناك من سبب لخجلي لأنني كنت مستعدة أن أرهن حياتي في سبيل بلادي.

تراجع الحديث عن البلاد منذ بعض الوقت في جلساتنا. وأصبح الموضوع الرئيسي في نقاشاتنا علاقات الرجل والمرأة في العصر الحديث ومواضيع شتى أخرى. كان الفراغ يُملأ بقراءة أشعار انكليزية وأشعار فيشناف[١]، والإيقاع الذي تم وفقه قراءة هذه القصائد كان إيقاعاً أجشَّ لم يسبق لي سماع مثله في بيتي أبداً فبدأتُ أشعر أن فيه طابع الرجولة والقوة... لم يعد هناك من حاجة للتغطية بعد ذلك. ينبغي ألا أبقى رهن المساءلة أكثر من ذلك لماذا يمضي سانديب كل هذا الوقت هنا ولماذا هذه المناقشات معه على انفراد والتي يبدو أن لانهاية لها؟

شعرتُ بالسخط الشديد على نفسي وعلى سلفتي الصغيرة وعلى كل نظام العالم وعاهدتُ نفسي بأنني لن أذهب إلى قاعة الاستقبال ثانية ولو كان في ذلك موتي.

وأمضيتُ يومين كاملين دون أن أخرج إلى جناح الاستقبال. ففي هذين اليومين استطعتُ أن أرى بوضوح إلى أي مدى مضيتُ في هذه القصة. شعرتُ أن حياتي لم يعد لها معنى فكلما حاولتُ لمس شيء بخفة أدفعه لطرحه بعيداً؛ وكنت أشعر بأني أنتظر أو أتوقع أحداً ما وكان هذا الشعور ينتابني بدءاً من شعري في قمة رأسي إلى أطراف أصابعي – وحتى دمي الذي يجري في عروقي كان يتلقى شيئاً ما ويستجيب لشيء ما آت من الخارج.

---

(١) فيشناف vaishnav تقدس هذه الأشعار رادها وكريشنا Radha and Krishna وتمدح الحب المحرم بين هذين الاثنين.

حاولتُ أن ألزم نفسي بالإفراط في العمل. فكانت أرضية غرفة نومي نظيفة تماماً وخالية من أي بقع لكني ألححْتُ على أن تُفرَك بالفرشاة وبدلو كبير من الماء وتحت إشرافي ومراقبتي. وكانت الأشياء داخل خزائني مرتبة بطريقة معينة فأخرجتها كلها وأعدت ترتيبها بنظام آخر. لقد قاربت الساعة الثانية في ذاك اليوم قبل أن أتمكن من الاستحمام ولم أجد حتى وقتاً لأضفر شعري فتركتُ خصلاته مسدولة ورحتُ أنكد على خدمي كي ينظفوا خزن المؤن، فلاحظت أن ثمة نقصاً فيها وأن السرقة لا بد أنها كانت جارية على قدم وساق في هذه الفترة لكنني لم أستجمع الشجاعة لمحاسبة أي شخص كان فقد كان من الممكن جداً أن يخطر على بال أحدهم أو إحداهن أن يسألني ليس من باب العلم بالشيء إنما من أجل إثارتي واستفزازي: «أين كانت عيناك هائمتين طوال هذه الأيام»؟

أمضيتُ ذلك اليوم كالمجنونة، مشوشة ذهنياً كما لو أني كنت مسكونة بروح شبح. حاولتُ في اليوم التالي أن أخفف من عصبيتي وأقرأ موضوعاً ما، لكنني لم أكن أتذكر أي شيء مما أقرؤه، بل كانت تغلب على تفكيري ذكرى الأحداث الجارية ثم يحملني الخيال إلى عالم عجائبي فأقف شاردة مذهولة والكتاب في يدي، أرفع تفراج[1] النافذة المطلة على الممر المؤدي من الجناح الداخلي إلى الشقة الخارجية، حيث باستطاعة المرء أن يرى منها صفاً من الغرف على الجانب الأخر من مجمَّعنا، فشعرتُ أن واحدة من هذه الغرف قد عبرت بحر حياتي ووصلت إلى الضفة الأخرى منه ولا يوجد في الدنيا أي قارب يستطيع أن يبحر إليها أبداً. فصرتُ أحدِّقُ فيها باستمرار وشعرتُ وكأنني شبح لما كنته قبل يومين رغم أني لا أزال وسط المحيط نفسه، مقضي علي أن أظل حيث أنا ولكنني لست هناك في حقيقتي فأنا في عالم ثان تماماً.

---

(١) التفراج: الأباجور

وفيما أنا واقفة لاحظت سانديب يخرج من غرفته إلى الشرفة وفي يده صحيفة واستطعتُ أن أرى على محياه قلقاً غير عادي وشعرتُ كأنما الحديقة الداخلية ودرابزين الشرفة يثيران غضبه. فألقى الصحيفة بعيداً بحركة كأنه أراد بها انتزاع قطعة من السماء من شدة غيظه. يبدو أنه لم يعد باستطاعتي التمسك بقراري وكنت موشكة أن أمضي نحو قاعة الاستقبال حين وجدت سلفتي الصغرى خلفي. صاحت وهي تبتعد: «إنك لن تكفيّ عن إذهالي أبداً!» لم أستطع بعد ذلك أن اخرج من غرفتي.

جاءت في صباح اليوم التالي وصيفتي الأم غوبيندو[١] وقالت لي:

- «يا أميرتنا الصغيرة، لقد حان الوقت لإخراج المؤن لهذا اليوم». فقلت لها أن تطلب ذلك من هاريماتي[٢] أو أن تخرجها بنفسها، وألقيت لها بالمفاتيح وذهبت لأجلس بقرب النافذة أخيط قطعة من التطريز انكليزية التصميم. ثم جاء خادم وسلمني رسالة قال إنها من سانديب بابو، يا للجرأة! ما عساه يظن هذا الوصيف؟ بدأ قلبي ينبض فتحت الرسالة ووجدتُ أنها لم تكن موجهة لأحد ويقول فيها بكل بساطة: «مسألة خطيرة – قضية الأمة». سانديب.

ألقيت بالتطريز جانباً، وبسرعة كبيرة وقفت أمام المرآة أسوي شعري. لم أغير الساري الذي كنت أرتديه، بل غيرت فقط السترة، فكنت أعرف أن لهذه السترة ذكريات خاصة في بال سانديب.

كانت سلفتي الصغرى جالسة في الشرفة بين غرفتي وبين قاعة الاستقبال تفرم جوز التنبول كعادتها. واليوم بالذات لم أتردد بالمرور من جنبها، وإذا بها تسألني:

- «إني أسألكِ إلى أين أنت خارجة؟» فأجبتها:

---

(١) Gobindo`mother.

(٢) Harimati.

- «إلى قاعة الاستقبال»

- «في هذا الوقت المبكر؟ لتمتعي نفسك بالغرام؟»

تابعتُ طريقي دون أن أتوقف لأرد ثانية. فبدأت سلفتي تدندن[١] وحدها أغنية:

آه! يا رادها Radha أنت لي!

كيف غابت وهي تنتحل

هيئة مخلوقة من عمق المحيط

تقول بصعوبة على انفراد

ما هو خير وما هو شر

عندما دخلتُ قاعة الاستقبال وجدت سانديب بابو واقفاً وظهره إلى الباب، عاكفاً على مجموعة رسوم (كاتالوج مصور) للوحات فنية كانت قد عرضت في الأكاديمية البريطانية، وكان سانديب يعتقد نفسه انه خبير في أمور الفن.

قال له زوجي ذات يوم

- «إن الفنانين لن يُحرَموا أبداً من معلم قدير طالما أنتَ على قيد الحياة». لم يكن من عادة زوجي أن يتكلم بتهكم لكن يبدو أن طبعه قد خضع لتغيرات في الأيام الأخيرة. فهو لم يعد يفوِّت أي فرصة ليطعن بغطرسة سانديب بابو. فسأله سانديب:

- «هل تعتقد أن الفنانين لن يحتاجوا إلى معلمين بعد اليوم؟» فأجاب زوجي:

- «الناس الذين على شاكلتنا ينبغي أن يتلقوا دروساً في الفن من الفنانين أنفسهم لأنه لا توجد نصوص محددة، إنه إبداع».

---

(١) تنويه من سلفة بيمالا إلى علاقتها غير الشرعية مع سانديب، بترنيمها أغنية تراثية من «الفيشناف» عن الغرام الذي كان بين «رادها» و«كريشنا». وغالبية الأشعار التي كان يتلوها سانديب هي من المجموعة الشعرية نفسها.

استهزأ سانديب من تواضع زوجي وضحك كثيراً ثم قال:

- «يا نيكهيل، يبدو في واقع الأمر أنك تعتقد الشح هو رأسمالكَ وأن ثروتك سوف تزداد بتوظيف هذا الشح في طرق جديدة ومتجددة. وأقول لك إن الإنسان الذي تعوزه الكبرياء يطفو من مكان إلى مكان دون مرساة كالطحلب في مجرى نهر».

كنتُ في حالة ذهنية غريبة ومشوشة. فمن جهة كنتُ متحمسة لأن يفوز زوجي في المناقشة وتهتز كبرياء سانديب. لكن غطرسة سانديب هي التي تجتذبني فكانت تتألق كماسة ثمينة لا تعرف الارتباك ولا تقبل بالهزيمة حتى في مواجهة الشمس نفسها.

دخلتُ الغرفة وكنت أعلم أن سانديب قد سمع وقع خطاي وأنا أتقدم، لكنه تظاهر بعدم السماع واستمر ينظر في الكتاب.

كنتُ أخاف من أحاديثه عن الفن لأني ما زلت لا أستطيع التغلب على حساسيتي نحو الرسومات الزيتية التي كان سانديب يحب التحدث عنها جاعلاً من الفن ذريعة. وكان يشق عليَّ أن أتكلف الجمود كتغطية لحرجي، فكنت دائماً أزعم إنه لا يوجد أي موضوع للجدل فيه. لهذا السبب كنت موشكة أن أعود أدراجي حين رفع سنديب عينيه وهو يتنهد تنهيدة حسرة وتظاهر بالدهشة لرؤيتي وقال:

- «آه! لقد جئتِ!»

كان في كلماته ونبرته لوم صامت وكنت أنا في حالة نفسية جعلتني أحتمل ذلك. وكان لسانديب حقوق اكتسبها جعلتني أشعر أنني بغيابي ولو ليومين أو ثلاثة أكون قد ارتكبت إساءة بليغة بحقه. وعرفتُ أن كبرياء سانديب الجريحة هذه كانت إهانة لي لكن لم أجد القوة لأستنكرها.

لم أجب، ولكني وإن نظرت إلى جهة أخرى فكان لا مفر لي من الشعور بنظرات سانديب الشاكية التي لا تبرح وجهي ولن تقبل حرماناً. تمنيتُ لو يقول شيئاً ما أو يبدأ بأي حديث حتى أتمكن من الاحتماء خلف

كلماته لكن مرت خمس إلى عشر دقائق لم ينبس فيها ببنت شفة ولكني أخيراً لم أطق احتماله فسألته:

- «لماذا أرسلتَ في طلبي؟» دهش سانديب ورد بحسم:
- «لماذا ينبغي أن يكون هناك سبب؟ هل الصداقة بحد ذاتها إهانة؟ وهل يحق لنا أن نستخف بأعظم هبة أعطيت للبشرية؟ يا ملكتي هل يجب أن نعامل قداسة القلب وكأنها كلب ضال نطرده خارج عتبة أبوابنا؟»

بدأ قلبي ينبض بسرعة وازداد الخطر اقتراباً بشكل لا يمكن تجاهله ولا إرجاء النظر فيه. لكن في روحي فرح وخوف بميزان وسألت نفسي كيف يمكن لي أن احتمل ثقل فضيحة من صنعي أنا؟ هل ممكن أن أسقط وأذلَّ وأتدنس في التراب بسببها؟

كانت أعضاء جسدي كلها ترتعد عندما وقفت وقلت:

- «لقد دعوتني يا سانديب بابو لأمر يتعلق بقضية الأمة ما هو هذا الأمر؟ فأنا قد تركت واجبات بيتي وأتيت للنظر فيه». ابتسم ابتسامة ضئيلة وأجاب قائلاً:
- «كنت هاماً بشرح المسألة هل تعلمين أني أتيت إلى هنا لتأدية طقس عبادتي؟ ألم أخبرك أني أتمثل فيك روح الأمة؟ فالتفاصيل الجغرافية ليست أشياء واقعية ملموسة، ولا يمكن أن نكرِّس حياتنا من أجل إحياء ذكرى لخريطة البلاد! فعندما أراكِ أمامي، عندها فقط، أدرك مدى جمال أمتي وكم هي عزيزة على نفسي، وأي حياة وروح فيها! لن أتيقن يقيناً تاماً بأنني تلقيتُ أمراً من بلادي إلا عندما تضعين إشارة بركتك على جبيني أتقدس بها واستبشر باليمن فحتى لو واجهتُ خطر الموت بعدها وبذلتُ حياتي في سبيل بلادي سأعرف وأتأكد أن الأرض التي أرقد عليها ليست مجرد كيان جغرافي، بل هي ملاذ لروحي. وهل تعلمين ما هو ذلك الملاذ؟ إنه الساري داكن اللون ذو الحاشية الفضفاضة الحمراء بلون الدم

الدافق الذي كنت ترتدينه أمس. هل استطيع نسيان هذا الساري أبداً؟ مثل هذه الأشياء تساهم في إضفاء قوة للحياة وفرح للموت».

بدت عينا سانديب تلمعان وهو يتكلم عن هذه الأمور. لكنني لم أتبين إن كان ذلك نار الشهوة أم وميض العبادة. وتذكرتُ يوم سمعته يتكلم لأول مرة كيف أني لم استطع أن أميز حينها أكان شخصاً أم شعلة نار. يمكن أن يتعامل المرء مع شخص عادي على أنه كائن بشري – هناك الكثير من النظم والقواعد ترشدنا إلى ذلك. لكن النار هي مادة مختلفة تماماً- ففي لحظة تبهر العيون وتحوِّل الدمار إلى جمال، ويدرك المرء حينها أن ما كان قد أهمله مدفوناً في الحياة اليومية قد اتخذ شكله البراق، لأنها بشعلتها الخارقة تفعل بسرعة وبازدراء لتحوِّل كل ما فعله البؤس من حولنا إلى رماد.

لم تعد لدي القوة الكافية لأضيف شيئاً بعد كل هذا الذي قيل. لقد كنتُ قلقة خشية من أن يسرع سانديب إليّ بلحظة انفعال ليمسك يدي. كانت يداه ترتعشان كلهب نار مشتعل وعيناه تمطرانني شرراً محرقاً. فقال:

- «أعازمة أنت أبداً أن تجلي وتمجدي نظم أعمالك المنزلية الصغيرة، وأنتِ تملكين الحيوية والسحر وبإشارة بسيطة منك تبعث فينا الحياة من جديد؟ هل هذا السحر خلق فقط ليبقى دفين بيتك؟ لا ترتبكي أبداً بعد الآن - ولا تعيري أية أهمية للألسنة الثرثارة. ارفضي كل ذلك بازدراء واخرجي مسرعة لتدخلي عالم الحرية».

عندما تمتزج نداءات سانديب بابو بقضية البلاد ولم يعد بالإمكان تمييزها عن مديحي وإطرائي، أتحرر من أغلال الوجل ليرقص دمي على إيقاع نغماته. إن أحاديثه عن الفن وشعر الفيشناف والعلاقات بين الرجل والمرأة والفرق بين الواقع والخيال وبين الحقيقي والمزيف وتحليله لها، أفكار تكونت وتزاحمت ظلالها لتشوش عقلي وروحي. لكنَّ نيراناً جديدة أضرمت

داخل الرماد الفحِم في ذلك اليوم فدمَّر بتوهجه ارتباكي. وبدأتُ أشعر بأن كوني امرأة هو مجد إلهي استثنائي لي وحدي.

لكن وا أسفاهُ! لماذا لا تشرق هذه العظمة من ضفائر شعري ببهاء وتتجلى لعيون الناس؟ لماذا لا يستطيع فمي أن ينبس كلمات سحرية تلهم بلهيبها البلاد بشيبها وشبانها؟

في هذه الأثناء دخلت وصيفتي «خيما» إلى الغرفة بحالة اضطراب شديد وصرخت مطالبة:

- «أرجــوك ادفعي لي راتبي لأنني أريد مغادرة المنزل على الفور. فأنا ما رأيتُ في حياتي أبداً»... واستمرت تعصف مولولة.

- «لماذا؟ ماذا حدث؟»

يبدو أن «ذاكو[١]» وصيفة سلفتي الصغرى قد تشاجرت معها دون أي سبب، ونعتتها بأسوأ ما يمكن من نعوت سيئة. لم تتوقف «خيما» عن البكاء حتى بعد أن طمأنتُها وأكدتُ لها أنني سأنظر في المسألة بنفسي.

كانت هذه الحادثة كمن يلقي بماء الجلي القذر على أغنية الصباح التي بدأت تأخذنا بسحرها. يبدو إنه حرك بعنف الوحل في المستنقع حيث ترقد امرأة بشكل اللوتس. عليَّ أن أسرع إلى الداخل على الفور كي أخفي المسألة عن سانديب.

كانت سلفتي الصغرى جالسة في الشرفة منحنية تقشر جوز التنبول، ورغم أنها كانت تبدو مشغولة ظهرت ابتسامة خبيثة على وجهها وأخذت تدندن الأغنية نفسها، إنما لم يكن على وجهها أي إشارة أو أي تعبير يدل على معرفتها بالحادثة المزعجة التي حصلت.

فانفجرتُ صائحة أسأل:

- «لماذا أساءت وصيفتك ذاكو إلى خيما بهذا الخبث؟» رفعت حاجبيها وبدت مندهشة جداً وقالت:

---

(١) Thako.

- «حقاً؟ سأطرد هذه المرأة بمكنسة، تخيلي! لقد أفسدت عليك جلستك الصباحية. لكن الحق يقال أن خيما أيضاً فاقدة لحس اللياقة ألم تدرك أن سيدتها مشغولة ولديها حديث مع بابو غريب؟ فتذهب وتقحم نفسها فيما بينكما! لقد استخفت تماماً من دقة الموقف. لكن يا عزيزتي لا تزعجي نفسك بمسائل التدبير المنزلي التافهة. اِمضي إلى الخارج وسأحاول تسوية الموضوع قدر الإمكان».

مذهلة هي النفس الإنسانية، ففي غضون لحظات تكيّف الرياح المعاكسة لإدارة حركة مركبها الشراعي، إن فكرة الذهاب إلى قاعة الاستقبال في الصباح الباكر للتحدث مع سانديب، وترك أعمالي المنزلية دون مراقبة، بدت في ضوء قانون الجناح الداخلي للبيت، وكأنها خرقٌ صارخٌ لسمة مميزة في المثل العليا من تاريخ حياتي العائلية، وأمرٌ شاذٌ لدرجة أنني انسحبتُ إلى غرفتي حتى دون أن أستطيع الرد ولا بكلمة واحدة.

وإنني على يقين بأن سلفتي الصغرى هي التي اغتنمت الظرف المناسب لتحريض «ذاكو» كي تثير هذه المشاجرة مع وصيفتي «خيما». لكني كنت بحالة مضطربة لدرجة لم أتمكن بها من مواجهتها. البارحة فقط، في أول مناسبة لانفعالي في قصة فصل نانكو، تبين لي أن المشاجرة المهينة مع زوجي لم تسفر عن تقبله لوجهة نظري، فشعرتُ بارتباك تدريجي يتسلل إلى داخلي ويتحول إلى ثورة عارمة. وفي هذه الأثناء جاءت سلفتي الصغرى وقالت لزوجي:

«إنها خطيئتي يا أميرنا العزيز، نحن جماعة من الطراز القديم – لا نستطيع أن نأخذ إيماءات سانديب بابو وتحركاته بنية سليمة. لقد كانت نواياي حسنة حين طلبتُ من الحارس أن.. لم أكن أتصور أن بيمالا قد تشعر بالإهانة – بل كنت أظن العكس – هذه هي حدود معرفتي ربما كان ينبغي أن أعرف الأمور أفضل من ذلك».

شعرتُ بالغضب في بادىء الأمر ثم بإرهاق وضجر تسلل إلى نفسي، لأنه بهذه الطريقة التي تتناول بها سلفتي الأمور وفي مثل توجهاتها ستدنس

العبادة وتنتهك قدسية القضية مهما أردتُ أن أشيد باسم الأمة أو أن أمجد البلاد باسم القداسة.

جلستُ إلى النافذة بعد أن أغلقتُ باب حجرتي وبدأتُ أفكر بنفسي كم تغدو الحياة سهلة جداً بالنسبة إلي لو استطعتُ أن أعيش بتناغم مع كل ما يحيط بي. تجلس سلفتي الصغرى عادةً في مكانها الثابت المحدد وكعادتها تفرم جوز التنبول دون أي اهتمام بالعالم، لكن كم يصبح من العسير عليّ أن أجلس في مكاني الاعتيادي وأشرف بشكل روتيني على سير واجباتي المنزلية. وكنت اسأل نفسي كل يوم إلى أين سيؤدي بي كل ذلك؟ هل أموت؟ أو يذهب سانديب بعيداً عن هذا البيت؟ أم أن كل ذلك كان هذياناً مريضاً لا أريد تذكره مطلقاً عندما أشفى؟ هل أحطم نفسي بالسقوط في لعنة الخطيئة المؤدية إلى أعماق سحيقة لا نجاة منها في هذه الحياة؟ لماذا لم أقبل بحظي السعيد بسمو وشرف؟ ولماذا أفسدتهُ بهذا الشكل؟ لقد دخلتُ غرفة زفافي هذه عروساً قبل تسع سنوات، فعشقتُ جدرانها وسقفها وأرضها لكن لماذا يحدِّق بي اليوم كل جانب منها مذهولاً؟

عندما عاد زوجي إلى البيت بعد أن أنهى تقديم امتحانه في الماجستير، جلب لي معه نبتة ثمينة من كالكُتا مستوردة من بعض جزر المحيط الهندي وقدمها لي كهدية. كان لها في البداية بضعة أوراق لكن تفرع عنها بعد ذلك كؤوس من الجمال روت كل محتواها لينبع منها باقة من الزهر تكللها، فالقوس والقزح الذي يلد من جديد بشكل زهر يبدو وكأنه يتهدهد في حضن هذه الأوراق. لقد علقنا هذه النبتة المزهرة قرب النافذة في غرفة نومنا، فأزهرت مرة واحدة فقط ولم تزهر بعدها أبداً رغم أنني ظللتُ آمل منها بأن تزهر مرة أخرى لأسعد بها ثانية يوماً ما. والعجيب أني واظبتُ على ريّها بحكم العادة وكان أمراً لا يصدق أيضاً أن أوراقها التي كانت موصولة ببعضها بعضاً بألياف جوز الهند لم تتلف بل لا تزال خضراء.

لقد مضت أربع سنوات منذ أن وضعتُ صورة زوجي داخل إطار عاجي وعلقتها داخل فتحة في الجدار، ولم يكن بإمكاني أن أشيح نظري عنها إن وقعت عيناي بالصدفة عليها. وحديثاً منذ حوالي ستة أيام وبعد أن خرجتُ من حمامي وضعتُ أمامها زهوراً جديدة نقية قطفتها بيدي، وكان لا بد لي كعادتي، إلا أن أحني رأسي احتراماً لها. وكان على الدوام يحصل مشادة فيما بيننا بشأن زهور العبادة تلك.

قال لي ذات يوم:

- «إنها مسألة مربكة حقاً بالنسبة إلي لأنك ترفعينني إلى مكانة أرفع مما أنا عليه وتعبدينني كالوثن». فسألته:
- «لماذا؟» فأجاب:
- «ليس ارتباكاً فقط بل حسدٌ وغيرة أيضاً»، فسألته:
- «حقاً؟ ممن تراك تغار؟» فأجاب:
- «من هذه الصورة الزائفة لي إنها تجعلني أتيقن أنك لست مقتنعة بشخصيتي الواقعية التي أنا عليها، بل أنت بحاجة لرجل استثنائي يفتنك ويستحوذ على أحاسيسك ولهذا كان لا بد لكِ أن تلجئي إلى اصطناع صورة أخرى مني تبهرك وتستطيعين من خلالها أن تفتني نفسك». فقلت له:
- «أشعر بالانزعاج عندما تحدثني بهذه الطريقة». فقال لي:
- «لا تغضبي مني فلا فائدة لك من ذلك بل الأفضل لك أن تلعني حظك الذي لم يدع لك خياراً، لأنكِ لم تنتقيني في مجلس انتقاء العرسان[١] بل قبلتِ بي وأنت مغمضة العينين، فلهذا السبب تدأبين على إصلاح هذا الخطأ بأن تصنعي مني مثالاً للكمال تعظمينني به

---

(١) سوايامفار سابها Swayamvar Sabha وهو المجلس التقليدي في الهند الذي فيه تنتقي الفتاة عريسها.

وتؤلهينني.. الربة الدامايانتي[1] انتقت رفيقها فاختارت رجلاً ولم تختره من الآلهة. أما أنتن النساء فليس لكن الخيار في انتقاء أزواجكن ولذلك فأنتن تجهلن الرجل وتكللن إلهاً بالورود كل يوم».

أغاظتني هذه الفكرة كثيراً في ذلك اليوم لدرجة انهمرت دموعي من عيني كزخات المطر. ومن تلك اللحظة لم أعد أستطيع رفع نظري إلى تلك الفجوة أبداً كلما تذكرت هذا الحديث.

ثمة صورة أخرى مخبأة بعناية في صندوق حليي. فمنذ أيام قمت بحجة تنظيف قاعة الاستقبال بأخذ الإطار الذي يحمل صورة سانديب بجانب صورة زوجي وجلبته إلى غرفة نومي ولكني لم أقدِّس هذه الصورة ولم أنحنِ لها لأنه أمر غير مناسب لي أن أفعله إلا أنها بقيت مخبأة بين لآلئي ومجوهراتي التي منها الياقوت الأحمر الداكن ومنها الألماس. ففي هذه السرّية كان لي فيها مزيدٌ من السحر، حيث كنت أنظر إليها بين الحين والآخر فقط عندما أغلق كل أبواب الغرفة. وفي الليل أنهض ببطء وأضيء قنديل الكيروسين وأضعه أمام الصورة وأجلس وهي في يدي أنظر إليها بهدوء. وكل يوم أشعر وكأني سأحرق هذه الصورة بلهب قنديل الكيروسين وأنهي هذا الفصل من حياتي إلى الأبد. ولكني في كل ليلة أعود وأتنهد حسرة ثم أقفل عليها ثانية بعد أن أغطيها بعناية بمجوهراتي. يا لك من امرأة شقية! ألا تذكرين من أعطاكِ هذه الأحجار الكريمة بالغة الجمال؟ أليست حباً وحناناً وعِشرة كل هذه السنين الطوال؟ أليست كلها مرتبطة مع بعضها بعضاً؟ أين يمكن لها أن تخبِّئَ وجهها اليوم؟ آه لو أستطيع أن أموت لأفتدي نفسي.

قال لي سانديب ذات يوم إنه ليس من طبيعة المرأة أن تندفع وتمزق نفسها في أي صراع كان. فهي لا تنظر يميناً ولا يساراً بل إلى الأمام

---

(١) Damayanti

فقط. وكان يكرر على الدوام: «عندما تستيقظ نساء بلادنا سوف يقلن «نريد» وستكون بطريقة أعنف من الرجال بكثير». ومضى سانديب بحديثه قائلاً: «إن كلمة «أريد» هذه سوف لن تؤدي إلى نقاشات في الخير والشر، أو في الممكن والمستحيل، بل هي شعار فقط قد يكون بكلمات معبِّرة مثل: «أحتاج! - أطلب!» كلمات كانت في بدء كل الخليقة، كلمات لم يكن لديها حكمة تسترشد بها، ولا أنظمة تسير وفقها، لكنها اكتسبت مزاجاً حاداً فغدت ناراً تشع كالنجوم والشمس. فهي متحيزة في ولعها تحيزاً رائعاً فمنذ العصور السحيقة دفعتها رغبتها بالإنسان للتضحية بأعداد غفيرة منه على مذبح هذه الرغبة. هذه الطاقة الشرسة التي تخلق وتدمِّر في آن معاً، وجدت الآن تجسدها في المرأة. ولهذا حاول الرجال بجبنهم مقاومة هذا الفيضان الأبدي المتدفق من بدء الزمان، ببناء سدودهم لمنع النساء من غمر حقل النباتات الصغيرة التي زرعنها بعناية ومن تجاوزهن في هذه الرقصة الساخرة. ويعتقد الرجال أن العقبات المحاصرة التي بنوها وكبحوا بها هذه القوة داخل حدود منافعهم، ستبقى إلى الأبد. لكن المياه ازدادت وتجمعت هناك، وقوة الطوفان بعيدة الإدراك، هادئة وداكنة، فلا نقاش ولا أحاديث، بل بكل طاعة وخضوع تقوم بواجباتها المنزلية فتجلي صحون الرجال دون أي اعتراض. لكن الضغط سيرتفع شيئاً فشيئاً وستنفجر السدود، والطاقة الهامدة التي كانت في طور السبات لعصور عديدة خلت، ستستغني عن الحواجز التي هي من صنع الذكور وتزأر بأعلى ما يمكن: «أطمح، أشتهي، أرغب».

إن كلمات سانديب هذه يتردد صداها في أذني كقرع الطبول. لهذا السبب تراني عندما أقع في صراع مع نفسي ويعود إحساسي بالخجل يؤرقني من جديد، أستعيد كلام سانديب. فأعرف حينها أن هذا الخجل متعلق فقط بمحيطي أنا، فهو يتهمني بصمت على شاكلة سلفتي الصغرى فرَّامة جوز التنبول. كيف انزعجتُ من الطريقة التي تفكر بها؟ فأنا أعبر عن نفسي فقط عندما أكون قادرة على قول «أنا أريد» دون تردد في الداخل والخارج على

حد سواء، بكل قوتي وبدون أي تبكيت للضمير. أما إن لم أستطع أن أعبر عن هذا الكلام فيكون هو العقم بذاته. هل تجرؤ هذه الزهرة أو هذه الفتحة التي تحتوي على صورة زوجي بداخلها أن تهزأ أو تهين ذاتي الجديدة المشبوبة بالعاطفة؟ فما قيمة تلك الفجوة أو تلك النبتة في مخدعي، وأي سلطان لها عليّ حتى تحقرني وتزدريني؟

شعرتُ في هذه الأثناء وكأنني أريد أن أنتزع النبتة وألقيها من النافذة وأن أنزل إطار الصورة من الفرجة رغبة مني في التعبير عن روح التدمير الكامنة فيَّ بكل تجرد ووضوح. رفعت يدي لأفعل ذلك لكن شيئاً ما كالنبلة اخترق صدري وانهمرت دموعي تتدفق من عيني فارتميت على الأرض منتحبة أبكي دون توقف. ماذا بعد؟ ماذا سيحصل لي؟ ماذا رسمت العناية الربانية لي مستقبلاً؟

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن

سانديب

عندما اقرأ صفحات من سيرة حياتي أتعجب وأسأل نفسي أهذا هو سانديب الحقيقي؟ أمجبول أنا من كلمات؟ أم أنا كتاب بغلاف لحم ودم؟

ليست الأرض كالقمر شيئاً ميتاً، بل إنها تتنفس، وهي محاطة بغلاف ضبابي يغشيها مكون من الأبخرة التي تنبعث من أنهارها. ومكسوة بعباءة من غبار تتطاير باستمرار على سطحها. والناظر الذي يراقبها من الخارج يمكنه فقط أن يرى الضياء المنعكس من سطح غشاوة البخار والغبار، لكن هل يمكنه أبداً أن يعرف شيئاً واضحاً عن البلاد والقارات التي فيها؟

والإنسان المليء بالحياة هو كالأرض التي يسكنها، ينشر باستمرار أفكاراً جديدة من داخله ومن ثم تظهر مشوشة ومهتزة وقد غشاها البخار. فالمرء لا يستطيع لا أن يرى طبيعته الحقيقية ولا حتى تنوعها. يبدو أنه صنع من التقاء النور والظلال.

فأنا مثل كوكب حي، أعتقد أنني أرسم المسار المرئي لأفكاري، لكن ليس فقط بشخصيتي الحالية من رأسي إلى قدمي هي التي أرغب التفكير بها أو أضع نظرية ما حولها فحسب بل أيضاً بما لا أفضل أن أكونه أو ما أنا أكرهه ولماذا خلقتُ قبل أن أولد، فأنا لم يكن لي الخيار في انتقاء نفسي لذلك ينبغي عليَّ أن أحسن الاستفادة مما هو متاح لي في هذه الحياة.

إنني مدرك جيداً أن العظيم القدير هو قاس أيضاً. العدل والصفاء هي أمور تصلح للناس العاديين بينما الظلم هو من نصيب الناس الاستثنائيين. كان

مستوى الأرض أفقياً مسطحاً دفعته الجبال البركانية بقرون نارية وانبثقت منه. فالبركان لا يهتم بالظلم الذي أصاب به الآخرين، لأن إحساسه بالعدل لا يختص إلا بنفسه. فالرجال والأعراق أصبحوا ملوكاً وأصحاب ملايين بقذارتهم الناجحة وقسوتهم الصافية. فقط بافتراس ١ بتهور (على نحو أعمى) يمكن لـــ٢ أن يصبح ٢ – الخط المستقيم لـــ١ قد يستمر يزحف باتجاه واحد.

لذلك أدعو لنشر قضية تقديس الخطأ، وأقول لكل الناس إن الظلم هو ذروة تحررنا النهائي. إنه الشعلة التي تستنزف نفسها إن هي لم تحرق شيئاً، فعندما يعجز الإنسان أو أمة بكاملها عن ارتكاب أعمال بمثل هذه الرداءة يكون مصيرهم مثل آنية منزلية مكسورة. بالرغم من أن هذه هي أفكاري لكنها لا تشكل كامل شخصيتي. ليست المسألة في كيف امتدح الظلم، فأنا أعرف أن هناك تصدعات في دروع أفكاري، تكشف شيئاً ليناً لا شكل له، لأن الجزء الأعظم من نفسي قد خلق قبل أن أرى نور الحياة.

غالباً ما أخضِع رفقائي لاختبار درجة القسوة التي هم عليها. وكنا ذات يوم قد خرجنا في رحلة وكانت ثمة عنزة ترعى قريباً منا فتحديتُ أي فرد منهم إن هو قادر على قطع ساق خلفية من تلك العنزة ويحضرها لي؛ ولما رأيتُ أن جميعهم كانوا ممانعين ذهبتُ أنا بنفسي وقطعتُ ساقها. أحد أعنف الأشخاص في مجموعتنا أغمي عليه عند رؤية هذا المشهد. لكن عندما لاحظوا سكوني وهدوء وجهي الذي لم يضطرب أبداً، آمنوا أنني قديس أتجاوز كل ألم وأسمو فوق كل حزن بشري، فلمسوا قدمي احتراماً. بتعبير آخر، لقد رأوا فقط الغلاف الضبابي لأفكاري. بينما كانت أحاسيس الشفقة والرحمة تفيض فيّ وتدفع بقلبي إلى التمزق إرباً في داخلي، رأيتُ من الأفضل إخفاء هذا الجزء الحنون والرقيق مني، لأنها مشاعر تعود إلى مَواطن ضعفي أو إلى نزوة في قسمتي وقدري.

هناك أيضاً أشياء كثيرة ترقد مختفية في هذا الفصل من قصة حياتي وهي تتعلق ببيمالا ونيكهيل وتتشابك معهما. فأنا لم أكن لأخفيها لو لم تمنعني

أفكاري. صحيح أن هذه الأفكار بنت حياتي وفقاً لمخططها الذاتي، غير أن قسماً كبيراً من حياتي هذه، ظل خارجاً عن تأثير هذا المخطط، وهو لا يتطابق مع الخطة المرسومة، لذلك يقوم نوع من التنافر بين حياتي الخارجية وشكلها الداخلي، فألجأ إلى إبقائه مكبوتاً أو إلى إخفائه تماماً، وإلا فسيحطم كل شيء حتى حياتي نفسها.

إن الحياة غامضة مبهمة ملتبسة – إنها مزيج مركب من متناقضات هائلة. فنحن البحاثة المنظرين نريد أن نفهمها بشكل جيد بوضعها ضمن قالب معين لتأخذ شكلاً واضحاً مفهوماً. هذا الوضوح هو إنجاز حياتنا. فكل واحد اعتباراً من الإسكندر الغازي إلى المليونير روكفيللر في أمريكا المعاصرة عرَّفوا أنفسهم على أنهم رجال ناجحون لأنهم نحتوا لنفسهم تمثالاً أو خلدوا صورهم إما على سيوفهم أو على عملاتهم.

هذا ما أختلفُ فيه مع نيكهيل. فأنا أقول: «أعرف نفسك» - وهو يقول أيضاً القول نفسه. لكن يبدو مما يقوله ومن تفسيره أن الجهل هو المعرفة ذاتها. فهو يقول:

- «ما تسميه تحقيق هدف هو ربح هذا الهدف بإهلاك النفس أي الغاية تبرر الوسيلة، لكن روح الإنسان هي أهم بكثير من أية نتيجة قد تحصل عليها». فقلتُ له:
- «إن كلامك غير دقيق بل مسرف في الغموض». فأجاب نيكهيل:
- «لا مفر من ذلك، فحيواتنا هي أقل وضوحاً من الآلات، لكنك لا تستطيع التوصل لمعرفة الحياة بتبسيطها كالآلة؛ كذلك الروح فهي ليست مفهومة كالنتائج التي يتوقع الإنسان أن ينجزها، لذلك سوف لن أنادي بفكرة أن الإنسان يستطيع سبر غور النفس بصدق وعدل إن هو في النهاية قاسها بنجاحه». فسألته:
- «أين ترى الروح إذاً؟ على ذروة أنفك؟ أم وسط جبهتك؟» فقال:
- «حيث تعرف الروح نفسها على أنها غير محدودة وحيث تجانب حتى تتجاوز مقاصدها الذاتية».

- «والآن ماذا يمكنك أن تقوله عن بلادك؟»
- «الشيء نفسه، حيث تجعل الأمة من نفسها المقصد النهائي، قد تحقق هدفها لكنها تفقد روحها. لكن حيث تعترف بما هو ذات أهمية وأولوية، قد تخسر كل النتائج لكنها تكسب نفسها».
- «هل وجدتَ أمثلة على ذلك في التاريخ؟»
- «الإنسان كائن عظيم لدرجة انه يستطيع أن يرفض بازدراء المكافآت السريعة كما أنه يستطيع أيضاً أن يتجاهل كل هذه الأمثلة، أو ربما لا توجد أية أمثلة على الإطلاق. البذرة لا تظهر نفسها كزهرة لكنها تحتوي على كل رقتها. لكن هل هذا يعني أنه لا توجد أمثلة على الإطلاق؟ هل كانت رسالة بوذا[١] التي ألهمت بلادنا لمئات السنين نوعاً من السعي إلى هدف؟»

ليست القضية أني لا أستطيع فهم وجهة نظر نيكهيل فهماً تاماً لكن فيه تكمن مشكلتي. لقد ولدتُ في بهاراتفارشا[٢] لذلك تجد دمي لا يريد أن يطهِّر نفسه من سم الزهد. ورغم أني قد أصف نكران الذات على أنه هوس أو مس من الجنون، فأنا لا أستطيع نبذه بالكامل. وهكذا تحدث مثل هذه الأشياء الغريبة في بلادنا اليوم. فنحن اليوم نطفو على قمة الوطنية والدين بالانفعال نفسه. فأنا أتابع اليوم بدعة الأمة وفي الوقت نفسه نستخدم الدين كذريعة لهذا العمل. نحن نريد الاثنين باندي ماتارام وبهاغافاد جيتا[٣] أي أن يكون لنا ديننا ووطنيتنا في الوقت نفسه. لكن النتيجة أن كليهما غير مفهومين بالنسبة إلينا؛ كما أننا لا نعي أن فرقة الموسيقى الأجنبية تعزف مع فرقتنا في آنٍ معاً؛ إنها رسالة حياتي أن أضع حداً لهذا التنافر الصاخب. سوف أعيد الآلات العادية

---

(١) Buddha بوذا.

(٢) Bharatvarsha

(٣) Bhagavad Gita مقطع من الكتاب التراثي الهندي: الفيد فياسا ماهابهاراتا، الذي يحتوي على نصيحة «شري كريشنا» إلى أرجونا تماماً قبل أن يذهب للقتال ضد كورافاس.

لأن الجديدة قد تسببت بخسارتنا. سوف لن نجلب العار لراية انتصار الشهوة الإنسانية التي زودتنا بها أمنا الطبيعة قبل أن ترسلنا إلى ساحة المعركة. الشهوة الإنسانية جميلة ونقية مثل زهرة الشامبا[١] فهي لن تسرع عند كل تحد لتستحم وتنظف نفسها بصابون مستورد.

مسألة واحدة كانت تؤرقني في الأيام القليلة الماضية: لماذا أدع حياتي تتشابك مع حياة بيمالا؟ فحياتي ليست حالة عابرة بدون أي هدف، وهي ليست طوفاً (قارب) ينبغي عليه أن يقف في كل محطة كلما واجه سدوداً كي يستطيع التحرك؟

هذا ما كنت أتحدث عنه. أريد أن أحدد حياتي بنموذج أولي واحد يفيض عن هذا المعيار. ويجد الإنسان نفسه مشتتاً في اتجاهات عديدة – ويبدو أنني قد تهت وانحرفت بعيداً جداً هذه المرة.

لكن أن تكون بيمالا قد أصبحت هدفاً لشهوتي فهو أمر واقع لا يشكل موضوع خجل زائف بالنسبة إليّ، لأنني أرى بوضوح تام أنها هي نفسها تريدني أيضاً ولا خفاء في ذلك لذا أعتبرها حقاً مشروعاً لي. عندما تتدلى الثمرة من على غصن الشجرة، فمن له الحق بأن يدّعيها لنفسه غير ذاك الغصن؟ الجمال والإحساس فيها لن يزهر إلا في علاقتها معي. ينبغي عليها أن تتحرر من تلك الروابط ومن قيمتها، ومن ولائها ومن مذهبها الأخلاقي. سوف أقطفها كالثمرة اليانعة من على غصنها ولن أتركها تضيع نفسها.

لكنني قلق لأنني أجد نفسي وقد غرقت عميقاً في هذه القصة. وأنا مدرك تماماً أن بيمالا قد تصبح مسؤولية كبيرة في حياتي. بينما أنا خلقتُ في هذا العالم كي أسود وأقود الناس بالقول والفعل. الجماهير هي جواد المعركة، ومكاني سيكون على ظهره وعنانه سيكون في يدي. والغاية معروفة لي وحدي فهم لا يعرفون مقصدهم. ستدمى أقدامهم من الأشواك التي على دربهم

---

(١) Champa شجرة من فصيلة المانيوليا لها زهور فواحة بعبير رائع وموطنها البرازيل.

وسيغمرون بالوحل والطين وسوف لن أدعهم يتوقفون ليفكروا ويتدارسوا أمورهم –سأجعلهم يركضون.

حصاني يقف عند عتبة الباب، يضرب الأرض بحوافره وصهيله يهزُ السماء. لكن ماذا أفعل؟ لماذا تهدر أيامي دون نهاية ؟ ومن جهة ثانية، هل أترك هذه الأيام المليئة بمثل تلك الوعود تمر من جانبي دون أن التقطها؟

كنت أعتقدُ أني أستطيع التحرك كالعاصفة بأسرع من الريح، وأن الزهور التي مزقتها ونثرتها على دربي لن تعيق حركتي. لكن هذه المرة، يبدو أنني توقفت لأحوم وأرفرف حول زهرة وكأنني نحلة لا تسرع كالريح.

غير أني عندما رسمت صورة لنفسي وفق أفكاري الخاصة، لم تظهر الألوان في كل مكان بدمغة ثابتة لا تمحى. رأيتُ فجأة أن الإنسان العادي هو دونها. لو أن الله الذي يعرف أفكارنا كتب قصة حياتي وعرف دخيلة نفسي لجعلني لا أختلف عن الأحمق بونشو أو حتى ولا عن نيكهيليش.

كنتُ ليلة البارحة أقرأ مقتطفات من يومياتي القديمة عندما كنت لا أزال حديث عهد التخرج من الباكالوريوس ويمكن القول أن ذهني كان عملياً منفتحاً بقوة على الفلسفة. وكنتُ قد عاهدتُ نفسي ألا أستسلم في حياتي لوهم من الأوهام سواء أكان من صنعي أم من صنع غيري، بل سأبني حياتي على أساس واقعي مكين. لكن ماذا أرى في قصة حياتي بعد هذا العهد؟ أين بناؤها المتين؟ إنها كانت أقرب إلى شبكة، إن اتصلت خيوطها فمعظم مساحتها ثقوب، حيث لم أستطع تجاوزها بالكامل. وكنتُ منذ بضعة أيام أبدو وكأنني أعمل بثقة كبيرة وها أنا اليوم قد وقعتُ في شرك حفرة ضخمة بينما كنتُ أهيىء نفسي لأسير مستقيماً على الخيط.

أشعر الآن أن قلبي يؤلمني بشكل متواصل. إنه تعبير واضح وطريق مختصرة للقول إن ما أريده هو بمتناول يدي وسوف أقتلعه من جذوره لآخذه. وكنت دائماً أدعم المقولة التي تعترف بأن الذين يتبعون بجرأة مثل هذا النهج

هم الذين يحققون مآربهم في نهاية المعمعة. لكن الإله إندرا[١] جعل هذه المهمة صعبة بالنسبة إليّ - لقد أرسل لي حورية فاتنة اسمها «عذاب» أغوتني بنشرها شبكة ضبابية لتغشي بصر العاشق الولهان.

ولا يغيب عن ناظري أن بيمالا تصارع كظبية في الحبائل، والرعب ماثل في عينيها وقد مزق جهد التحرر جسدها، مشهد يبتهج له عادة الصياد المحترف. وأنا أيضاً أشعر أني منتصر، لكنني أكابد ومتألم. والسبب هو في تأجيل الأمور. فأنا لستُ قادراً على شد الوثاق من حولها ليزداد إطباقاً.

أعرف أنه مرَّت عليّ بعض الفرص كان بمقدوري خلالها أن أمسك يد بيمالا بقوة وأن أضمها إلى صدري دون أن تقاوم أو دون أن يصدر عنها أدنى همسة احتجاج. وهي أيضاً كانت تعلم أن ثمة شيئاً وشيك الحدوث قد يغيّر كل معاني عالمها وإلى الأبد. لكنها تقف شاردة بمواجهة كهف المجهول الذي لا يمكن تقديره وإن كان منتظراً، فيشحب وجهها وتومض عيناها إثارة وارتياباً ثم تتوقدان بنشوة الأمل. كل شيء في الجحيم والنعيم كان يبدو منتظراً مصيرنا، ممسكاً أنفاسه عما يمكن أن يحدث ويتبلور في غضون اللحظات القادمة. لكنني تركتُ تلك اللحظات تمر، ولم أعمل على تحويل ما كان شبه مؤكد ليصبح يقيناً مبرماً بقناعة راسخة وتصميم موطد العزم. فتيقنتُ من هذا الأمر أن ثمة عناصر مكبوتة كانت كامنة في طبيعتي احتشدت الآن لتعيق مساري.

الرافانا[٢] الذي أحترمه كثيراً كبطل حقيقي للـــ «رامايانا[٣]» قد دمَّر نفسه أيضاً بهذه الطريقة. فهو لم يأتِ بـــ «سيتا» Sita[٤] لتحل في ربعه بل

---

(١) إندرا Lord Indra: إله الحرب وأحد الآلهة الرئيسيين في الديانة الهندوسية. (معجم بابل).

(٢) Ravana

(٣) Ramayana

(٤) Sita

استبقاها في غابة «آشوكا»[١]. إن وصمة التردد هذه في شخصية هذا البطل العظيم تفرغ بالكامل من معناها واقعة اختطاف «سيتا» وأخذها إلى «لانكا». فهو لو لم يكن بهذا التردد، لظلت صورة سيتا كزوجة وفية ولكانت قدَّسته حباً وعبادة. التردد نفسه جعله يرأف بأخيه فيبهيشان[٢] ويتغاضى عنه بينما كان من المفروض أن يقتله. فكانت النتيجة أنه لاقى حتفه وحده بدلاً عن أخيه.

هذه هي مأساة الحياة. شيء من الضيق والانقباض مع أشياء تخفي نفسها في زاوية من زوايا قلبك، ثم تستولي على معظم كيانك في لحظات. تحصل الحوادث المؤسفة والحظ العاثر لأن الإنسان لا يعرف نفسه على حقيقتها.

يبدو نيكهيل في منتهى الغرابة، فمهما سخرتُ منه فأنا لا يمكنني نكران أنه صديقي. لم أكن في أول الأمر أبالي بوجهة نظره لكن مع مرور الأيام صرتُ أشعر بالحرج وحتى بالألم عندما أفكر به. لهذا أحاول أن أحادثه وأناقشه كسابق عهدنا لكن حماستي تتراجع، بل أكثر من ذلك فهي تقودني إلى مدى من التكلف لأتظاهر معه بأني أوافقه. وهذا ليس من طبيعتي كما أني لم أفعل ذلك في حياتي من قبل فأنا لا أستطيع تحمل الخبث ولا حتى نيكهيل – فمن هذه الناحية كلانا سواء.

نظراً لذلك أصبحت أفضل أن أتجنبه هذه الأيام وأعتبر نفسي سعيد الحظ عندما لا أصادفه أبداً. إنها علامات ضعف، فأنا حالما أسلم بطيف ذنبي يصبح حقيقة ملموسة، ثم يهيمن عليَّ بيقيني مهما حاولتُ أن أتخلص منه. أريد أن أجعل نيكهيل يعرف دون أي تحفظ ما ينبغي علينا أن ندركه كأمر واقع وهام؛ كما ينبغي ألا تقف الصداقة الحقيقية عائقاً في وجه الحقيقة السافرة.

لا أستطيع النكران أني قد ضعفت كثيراً هذه الأيام. لكن بيمالا لم يجذبها ضعفي. لقد أحرقت جناحيها في لهب عنفوان رجولتي. وكلما فاضت

---

(١) Ashoka.

(٢) Vibhishan.

مشاعري وغمرني ضباب اندفاعي تأثرتْ روحُها وتلبدتْ عواطفُها. وأكثر من ذلك، فقد أسبِّبُ بتحوّل في نفسيتها، رغم أنه يعز عليها أن تسحب إكليل الزهر الذي اختارته لتطوِّق به عنقي فهي تتمنى ألا تفعل، ربما أمنية فقط، فتكتفي بإغماض عينيها.

مهما يكن من أمر فليس هناك من تراجع لأحد منا. وأنا لا أجد في نفسي القوة الكافية لأجعل بيمالا تمضي في سبيلها. كما أني لا أستطيع أيضاً أن أحيد عن المسار الذي رسمته لنفسي. دربي مليئة بالناس – إنها ليست الرواق المؤدي إلى المدخل الخاص للجناح الداخلي من بيت بيمالا. لا يمكنني من الآن فصاعداً وفي الظروف الراهنة، أن أتخلى عن قضية أمتي، لكن سأحاول أن أضم بيمالا إلى هذا النضال. الريح الغربية العاتية التي أطاحت ببرقع الوهم عن ربة أمتي سوف تكشف أيضاً عن وجه بيمالا مطيحة بوشاح العروس. ولن يكون ثمة خزي لها بهذا الكشف. ستهدهد السفينة وتجوب البحار جيئة وذهاباً بالجموع الغفيرة وسيرفرف عليها علم باندي ماتارام عالياً وسوف تزأر الأمواج المزبدة بأعلى صوتها من حولنا، وستكون هذه السفينة مهداً لقوتنا وموطناً لحبنا. سترى بيمالا في ذلك تجسيداً رائعاً للحرية، لأن الجمال الذي ينبثق منها يجعل قيودها تنزلق على حين غرة دون أن تعي ذلك وحتى دون ارتباك في بعض المواقف. سيسحرها رونق هذه القوة المدوية بحيث لن يؤنبها ضميرها في ذلك الحين وفي كل حين بأن تصبح قاسية. لقد وَجدتُ في بيمالا كموناً من جمال القوة وقوة الجمال التي هي القوة الأساسية في الطبيعة. لو حُرِّرَت النساء من الأغلال الاصطناعية التي تربطها بالرجال، لاستطعتُ أن أرى تجلي الإلهة «كالي» في هذا العالم. الربَّة قاسية ولا ترتبك. إنني نصير لـــ «كالي» سوف أجرُّ بيمالا إلى مذبحها وأقدسها مثلما أقدِّس «كالي». فلأتأهب لذلك.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل التاسع

نيكهيليش

غمر المطر حدائقنا بفيض غزارته، إنه لم يخلف موعده مع شهر بهادرا[١] حيث فيه يتورد الأرز الجديد الذي لا يزال بقشرته وتبرق حباته كبريق جسد الطفل الوليد. ويهب نور الصباح نفسه كرَماً عبر العالم كزرقة السماء العطوفة.

لكن لماذا لا استطيع الغناء؟ بينما يتلألأ الماء في بركة السباحة، وتومض الأوراق على الشجر، وتتمايل حقول الأرز مع النسيم وتتألق تحت الشمس في آن معاً. وأنا وحدي فاقد الحس جامد الشعور، لا أتمكن من مشاركة الكورس الخريفي للصباح الغنائي. كل أنغامي مكبوتة وكل إشراق العالم حُبسَ في داخلي إلى غير رجعة. عندما أنظر إلى صورتي الباهتة، أدرك سبب حرماني، فليس فيها ما يجذب أو يدفع إلى الرغبة في تحمل مرافقتي ليلاً نهاراً دون انقطاع.

من جهة ثانية، بيمالا مفعمة بالحيوية والإقبال على الحياة لهذا لم أجدها مملة قط طوال هذه السنوات التسع من زواجنا. لكن إن كان في داخلي ثمة شيء، فهي رزانة ووقار صامت، دون حيوية جذابة عذبة. ففي مقدوري أن أستلطف وأن أعترف وأن أعبر عن شكري لكن التواصل مع الآخر يتم معي بصعوبة كبيرة، لذلك فإن صحبتي هي كفريضة الصوم. وعندما أراها اليوم

---

(١) شهر بهادرا Bhadra يعادل شهر آب في التقويم الشمسي.

أدرك بوضوح أي نوع من الحرمان عانته معي بيمالا كل تلك الأيام. لكن من ينبغي عليَّ أن ألوم؟ وا حسرتاه!

غيوم بهادرا محملة بالأمطار

وبيتي موحش وخالي المزار[١]

لم يُبْنَ معبدي كي يكون ممتلئاً بالآلهة، أبوابه موصدة – لم أدرك أن معبودته تنتظر خارج الأبواب. لقد اعتقدتُ أن قديستي قد تقبلت قرابين عبادتي ووهبتني بركاتها، لكن وا أسفاه – بيتي موحش وخالي المزار.

كان من عادتنا أنا وبيمالا خلال شهر بهادرا من كل عام، عندما يكشف العالم عن صباه النضر ويكون القمر إلى أوجه صاعداً، أن نركب زورقاً نذهب به في نزهة إلى بحيرة شاملداها، بعدها نعود إلى البيت عندما يخبو ضوء القمر في اليوم الخامس من بزوغه الجديد. فكنت أقول لبيمالا إننا مثل كل أغنية لها لازمة تعود إليها، وكانت لازمة أغنية حبنا هناك – وسط الطبيعة. فالرجل والمرأة ينبغي ألا يتقابلا ضمن أربعة جدران. لقد تقابلت عيونهما لأول مرة فوق الأمواج الرقراقة تعصف فوقها الرياح المشرقية. وكانت الأرض السمراء تحجب نفسها بظلال وتسترق السمع طوال الليل على الشاطيء في ضوء القمر الصامت.

نحن نعود إلى هذا المكان كل عام لنحتفل باتحاد الرجل والمرأة الذي بدأ منذ مطلع الأزمان مثل التقاء شيفا[٢] وبارفاتي في بركة اللوتس في جبال كيلاش مانساروفار.

---

(١) هذه الأبيات هي لـــ "فيدياباتي Vidyapati" شاعر بارز من القرن الخامس عشر من ميتهيلا Mithila، الذي كتب قصائد غنائية عن رادها وكريشنا في براجابولي Brajaboli، ثم نسبتها لنفسها في تراثها الكتابات السنسكريتية والميتهيلية والبنغالية والهندية.

(٢) Shiva and Parvati شيفا: إله وأحد الآلهة الرئيسة في مجمع الأرباب الثلاثي الهندوسي مع براهما وفيشنو وهو إله الخصب وإله الدمار في الوقت نفسه. (المعجم بابيلون).

لقد أمضينا العامين الأولين من حياتنا الزوجية في تشاجر حول امتحاني في كالكُتا. أما الأعوام السبعة التاليات فكانت ليالي بهادرا المقمرة قد باركت بصمت غرفة زواجنا على النهر وسط باقات السوسن الكثيفة. وكانت السنوات السبع الأخيرة من حياتنا الحميمة هادئة على هذا النمط. والآن بدأت مرحلة جديدة من السنوات السبع الآتية.

لا أستطيع أن أكون متغافلاً عن حقيقة عودة وجه بهادرا المقمر نفسه إلى هنا ثانية، ففي الواقع لقد مضت أولى أيامه الثلاثة وماذا عن بيمالا، وأنا لا أعرف حتى الآن إن كانت تتذكر لأنه بالتأكيد لم يصدر عنها أية إشارة بهذا الصدد. ويبدو كل شيء من حولي صامتاً ولحن الغناء غائباً.

غيوم بهادرا محملة بالأمطار

وبيتي موحش وخالي المزار

ولو أن مسكن عبادتنا خاوٍ نظراً لفراقنا، لكنه لا يزال يردد الصدى بلحن الناي المثير للمواجع وعندما يعود البيت خاوياً بالشقاق وغريباً بالصمت – فحتى نغم البكاء لا مكان له هنا.

اليوم، يبدو نحيبي في نشاز مع نفسي. ينبغي عليَّ أن أتوقف عن الأنين بهذا الشكل. آمل ألا أكون ذلك الجبان كي لا أسجن بيمالا في دموعي. فحيثما برهن الحب أنه مزيف تماماً ينبغي ألا تعيد الدموع رباطه. وطالما أني أصرخ من حزني ومرارتي فلن تتحرر بيمالا مني. لكني سأحررها بالكامل وإلا فلن أستطيع أن أفلت من قبضة الزور. فرباط الزوجية الذي يجمعها بي اليوم إن أنا أبقيتُ عليه بالقسر والإكراه يصبح وكأنني أوقع نفسي في خيوط شبكة من الأوهام نسجتها لنفسي. لا يوجد سعادة في ذلك، ولا يعود بالخير على أحد منا، أحرِّرها وبذلك أحرِّر نفسي. فلن يذوي ألمكَ ولن يتحوّل حزنكَ إلى جوهرة في قلبك إلا عندما تحرره من الكذبة.

أحسبني قد أوشكتُ أن أفهم شيئاً ما، لقد عظمنا من شأن الحب بين الرجل والمرأة وجعلناه يتجاوز حدوده إلى أبعد من حقوقه الطبيعية. ولم يعد

بإمكاننا أن نسيطر عليه اليوم حتى باِسم الإنسانية. لقد صنعنا قنديلاً لينير بيتنا فتحوَّل إلى نار تحرقنا. حان الوقت لنا بأن نتجاهله لا أن نشبع رغباته. لقد تم رفعه إلى مصاف الآلهة بتبجيل عواطفنا المستمرة له. لكن ينبغي علينا أن نتوقف عن التسليم بقداسته التي تريد أن تشبع على حساب إنسانيتنا. ينبغي علينا أن ندمِّر شبكة الأوهام التي خلقها بشكل ثوب وزينة، وتواضع وعفة نفس، وقصائد عاطفية، وأساطير، وضحك ودموع. فتقديس الإنسان للحب جعل من عاطفته صنماً ولكن ينبغي ألا نقدم قرابين إنسانية جديدة على مذبح ذلك الصنم.

لم أكن في حياتي من المعجبين بأشعار «كاليداسا ريتو- سامبارا[١]» التي تلهمنا بأن نضع زهور وثمار العالم على أقدام الحبيبة تهيئة لعبادتها! كيف يمكن لإنسان أن يعطل مهرجان الفرح في حياتنا بهذا الشكل! أي إدمان سببَّه الشاعر ليتخلى الإنسان عن أحاسيسه بهذا الشكل؟ فالخمر الذي احتسيته كل هذه المدة كان فعّالاً أيضاً، إلا أنه كان أحمر اللون، وكنتُ من تأثير السكر، أدندن طيلة الصباح بلا أمل:

غيوم بهادرا محملة بالأمطار

وبيتي موحش وخاوي المزار

مزار خاوٍ ! ينبغي أن أخجل بهذا القول. كيف يمكن لهذا المزار الهائل أن يصبح خالياً؟ لقد اكتشفتُ تزويراً في حياتي، وهل هذا يعني أن كل الحقائق الأخرى في حياتي قد أقامت الدليل على نفسها بأنها أوهام؟

دخلتُ غرفة نومي هذا الصباح لأحضِرَ كتاباً، ولم أكن قد دخلتها بالنهار منذ زمن طويل، فعندما رأيتُ الغرفة في ضوء النهار كاد قلبي أن يقفز من مكانه من شدة النبض. كان ساري بيمالا المثني بعناية معلقاً على

---

(١) كاليداسا Kalidasa – Ritu- sambara كان شاعر البلاط عند شاندراغوبتا Chandragupta الثاني في القرن الرابع. وديوانه الشعري باسم ريتوسامبارا Ritusambara موضوعه الأساسي عن الفصول الهندية الستة والتي يهدي فيها أبيات الربيع إلى حبيبته كاليدا.

رف الملابس، وقميصها وتنورتها التي كانت تلبسها البارحة قد طوتها في الزاوية بانتظار إرسالها للغسيل. وعلى منضدة الزينة دبابيس وزيوت شعرها، ومشطها، وعطرها وحتى صندوق الصبغة القرمزية، كانت هذه الخاصيات كلها بوضعها الاعتيادي تماماً كما اعتادت بيمالا أن ترتبها. وكان شبشبها المذهب قد تركته تحت الطاولة. لقد جلبته لها ذات مرة من «لاكناو» عبر معرفتي الشخصية بطالب زميل لي، لأنها كانت غير مستعدة للبس الأحذية. وفي المرة الأولى كادت تموت من الخجل عندما اضطرت أن تخرج به وتجتاز مسافة قصيرة بين غرفة النوم والشرفة. رمت بيمالا الكثير من الأحذية لكنها احتفظت بهذا الشبشب بكثير من الحب والعناية الفائقة. قلت لها ذات مرة على سبيل المزاح:

- «عندما أكون نائماً فأنت تلمسين قدمي خلسة وتقدسينني – أما اليوم فأنا أعبد إلهتي المفعمة بالحياة، بإزالة الغبار عن قدميها» فقالت بيمالا:
- «أبداً! لا تحدثني بهذا الشكل، وإلا فلن ألبس هذا الشبشب مرة أخرى!»

هذه هي غرفتي العائلية الأبدية، لها طيب تعرفه حواسي ربما لا أحد غيري قد شمه قبلي. وما شعرتُ قط مثلما أشعر اليوم بحساسية قلبي كيف يمد جذوره المرهفة بالطريقة التي فعلها اليوم. فالروح لا ترتاح إن انتزع الجذر الرئيسي من مكانه، وحتى هذا الشبشب يذكرك به. غير إنه حتى عندما هجرتني إلهتي «لاكشمي» ظل قلبي يرفرف حول الوريقات الممزقة في مقعد اللوتس - مقعدها.

وقعت عيناي الهائمتان على ذاك الركن في الجدار الذي فيه صورتي والتي تبدو كما كانت عليه دائماً عدا الزهور التي كانت أمامها فقد ذبلت وجفت. إن تبدل شكل العبادة لم يحوّل أو يغير وجه الصورة وهذه الزهور السوداء الذابلة كانت الآن الهدية الحقيقية الصادقة لي من هذه الغرفة، فأنا أشعر بالصدق في تحيتها وحدها دون سائر الأشياء التي في الغرفة، إنها لم

تبق هنا إلا إهمالاً لأمر إزالتها إذ لا حاجة لها بعد اليوم، لا بأس فلأرحب بالصدق وإن جاء في هذا الرداء الكالح الكئيب، لكن إلى متى سيطول بي الوقت قبل أن أتمكن من تحرير نفسي فأرحب ولا أهتز، كما ترحب صورتي في ركنها؟

دخلت بيمالا فجأة إلى الغرفة، فحوّلتُ عيوني بسرعة من ركن الصورة وسرت باتجاه الرف وتمتمتُ بأني جئتُ لآخذ يوميات[1] مييل Amiel لا أعرف لماذا أحتاج لتبرير وجودي في الغرفة ولماذا أسرعتُ بالتفسير؟. لكنني شعرتُ وكأنني مذنب آثم منتهك الحرمات، جئتُ لأرى شيئاً سرياً ينبغي أن يبقى مكتوماً، لا يراد لي أن اطلع عليه. ولم أستطع النظر إلى وجه بيمالا فأسرعتُ خارجاً.

غدا الأمر مستحيلاً بالنسبة إلي أن أجلس في غرفتي وأقرأ كتاباً عندما يبدو كل شيء في الحياة لا أمل في علاجه. وليس عندي أدنى رغبة باقية تحفزني أن أرى أو أسمع أي شيء مهما كان، خصوصاً في هذا الوقت بالذات عندما يمثل مستقبلي كله أمامي جامداً كالحجر، وأي حجر! كحجر ثقيل أصم يضغط على صدري.

قدم «بونشو» ومعه سلة مليئة بجوز الهند اليانع، وضعها أمامي وانحنى ساجداً يطلب بركاتي. فسألته مستفهماً:

- «لمَ كل هذا يا بونشو؟ لماذا جوز الهند؟»

كان بونشو يقيم مستأجراً في الجوار عند المالك «هاريش كوندو». وقد عرّفني به أستاذي ماسترموشيه. ليس لدي الحق بأن أقبل هدية منه فأنا لست مديره ولا صاحب الملك الذي هو فيه، بالإضافة إلى أنه كان أفقر

---

(١) هنري فريديريك آمييل (١٨٢١- ١٨٨١) كاتب سويسري كتب "مذكرات خاصة Journal Intime"، وهو عمل استبطاني متناهي الدقة، نشِر على شكل مقالات خلال فترة من الزمن، ثم ترجمه إلى اللغة الانكليزية السيّد همفري وَرد Humphry Ward عام ١٨٩٠ بعنوان "مذكرات آمييل الخاصة The Intimate Journal of Amiel".

الفقراء على الإطلاق. فحسبته أراد بهذه الهدية أن أمنحه ما يسد رمق عائلته ويستعين به على الحياة، فأخرجتُ محفظة نقودي من جيبي وسحبتُ منها ربيتين لأعطيه وإذا به يطبق يده مستنكراً:

- «كلا لا أستطيع أن أقبل هذه النقود يا سيدي»
- «لماذا يا بونشو؟»
- «سأكون صريحاً معك. كنت ذات مرة في ضيق شديد فسرقتُ بعض ثمار جوز الهند من حدائق أملاككم. إني أتقدم في السن ومن يدري متى أموت، لذلك جئت أسدد لك ديني».

لم تُفدْني قراءة يوميات آمييل ذلك اليوم لكن كلام بونشو فتح لي آفاقاً في تفكيري وزاد من وعيي للأمور. إنَّ في العالم أشياء كثيرة أبعد بأشواط من أفراح وأتراح الحب والخلاف بين الرجل والمرأة. ولا يستطيع المرء أن يقيس مسراته وأحزانه إلا حين يقف وسط ضخامة الحياة الإنسانية. ومن ثم غدوتُ جاهزاً للسيطرة على دموعي وعلى ضحكي وفرحي.

كان بونشو من مريدي أستاذي ماسترموشيه الصريحين. وأعلم كيف يكدح ويكابد ليحصل على رزقه. فهو يستيقظ كل يوم قبل الفجر ويخوض في مياه المستنقعات إلى ركبتيه ليذهب إلى الأحياء والتجمعات ذات الطبقات الاجتماعية المتدنية، حاملاً سلة مليئة بسلع متنوعة، تبدأ من أوراق التنبول والتبغ وصولاً إلى الخيوط الملونة والمرايا والأمشاط وسائر الطرف التي تحبها الفتيات، فيُعطينه مقابل بضائعه الرخيصة بعض الأرز بمقدار أزيد قليلاً من ثمنها نقوداً. وإن أمكنه العودة إلى داره مبكراً فإنه يتناول وجبة سريعة ليذهب بعدها سريعاً إلى مخزن للحلوى حيث يساعد في صنع الكعك. ثم يعود إلى البيت ويبدأ بصنع سوار وخلاخيل من الأصداف مستمراً بهذا العمل حتى ساعات متأخرة من الليل. وبعد كل هذا الجهد الشاق والعناء فهو لا يكسب لنفسه وأسرته سوى ما يعادل وجبتي طعام في اليوم ولمدة بضعة أشهر من السنة فقط. وأسلوبه بالأكل يتضمن إملاء معدته بشرب كوب كبير من الماء

قبل الجلوس للطعام، والقسم الأكبر من طعامه يتكون من أرخص أنواع الموز الرديء. ومع ذلك فلا بد لأسرته أن تكتفي بوجبة واحدة في اليوم في الأشهر الأربعة الباقيات من العام.

فكرتُ مرة في أن أوفر له راتباً من الصدقات، لكن أستاذي ماسترموشيه قال لي: «إنك بهباتك تفسد الناس وفي الوقت نفسه لا تستطيع أن تضع حداً لبؤسهم. فبونشو ليس الإنسان الوحيد من نوعه في بلية الفقر هذه في كل بلاد البنغال. فإذا جف ثدي أمنا الهند وتوقف عن الإدرار فلا يمكنك أن توفر حليب الأم بإعطاء نقود من الخارج».

هذه أمور تستوقف المرء وتستحق التفكير بها، فعزمتُ على أن أتفانى في تكريس طاقاتي لدراسة مثل هذه الآراء. فعدتُ إلى الغرفة وقلتُ لبيمال:

- «لنهب حياتنا من أجل استئصال الشقاء والبؤس من بلادنا». ضحكت بيمال وقالت:
- «إنك تبدو وقد أصبحت أميري سيدهارتا[1]، لكن أرجوك لا تجرني معك واذهب عني فلا أريد ذلك». فقلتُ لها:
- «إن زهد سيدهارتا (بوذا) لم يتضمن زوجته في هذا النذر، لكن ينبغي عليَّ أن أجند زوجتي وأشرك نضالها بنضالي».

مرت هذه المسألة بين الهزل والمزاح. والحق أن بيمالا هي بطبيعتها كما يسمونها «سيدة مجتمع». صحيح أنها قد ولدت في عائلة متواضعة لكن كان هناك تصرفات وصفات معينة في شخصيتها تعطيها سمة الملكة. كانت تعلم أن الأفراح والآلام والخير والشر عند الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا من الشعب لها مقاييس تؤخذ أيضاً في حدها الأدنى. ربما يكونون معوزين على الدوام لكنهم لا ينظرون إلى ذلك على أنها حاجة أو عوز. إنهم محميون بحاجز قوي من بؤسهم كما الماء في البرك الصغيرة يكون محمياً بشواطئه

---

(١) الاسم الذي عرف به بوذا وهو أمير قبل أن يتنسك.

الراسخة المستقرة وإن حاول أحدهم أن يوسِّع حدود البركة بجرف الضفاف، ستجف البركة وتكشف الطين الذي في الأسفل.

رغم أن «بهاراتفارشا» قد تدَمَّر لكنه فخور بتراثه بسبب قلة أمجاده. وكذلك الأمر بالنسبة إلى بيمالا، فنظراً وقياساً لتواضع مستوى طبقتها الاجتماعية، كانت متغطرسة بما يخص نسبها واستقلاليتها. إنها بالتأكيد خليفة «مانو» وأعتقد أن في دمائي أنا نسبة أكبر من «كوهاك وإيكالافيا[1]». فأنا لا أستطيع في هذه الحياة أن أفصل نفسي بالكامل عن الذين هم أدنى مني طبقياً. فالطبقات في عرفي ليس لها أقفال. وأعرف أن بلادي تتراجع أكثر فأكثر كلما ازداد الشعب الذي هو أدنى من منزلتي الاجتماعية فقراً فينهار بمجموعه من بؤسه ومعاناته.

أنا لم أحظَ ببيمالا بعد حب شديد وعبادة. لكني عظَّمتُها وجعلتُ منها تمثالاً وصنعتُ لها مكانة كبيرة في بيتي لدرجة جعلتني أعاني كثيراً عند فقدانها. وفي سبيل إعطائها هذه المكانة، غيرتُ كل غاية حياتي. فكانت نتيجة الأمر أنني عكفت على تجميلها وتزينها وتثقيفها وجعلت منها محور حياتي غير مهتم ولا متذكر ومستوضح أن البشرية والحياة أعظم بكثير من هذه الغايات وأكثر عمقاً واتساعاً. فعندما تستولي وقائع الأشياء اليومية على الرجل يحتجب الحق وتضيع الحرية وقد جعلت بيمالا للوقائع المجردة قيمة بلغ ضررها لدرجة حجب بها الحق عني.

غير أن وسط كل ذلك، كان أستاذي ماستر موشيه هو الذي يكتشف على الدوام ميولي ونزوعي باتجاه الأمور الكبيرة في الحياة. وإلا لكنت الآن قد وقعت شر وقعة بهذا الاختبار الذي كاد أن يؤدي بي إلى الانهيار. هذا الإنسان النبيل هو عجيبة زمانه. أقول ذلك بصدق وقناعة لأنه مختلف كل

---

(١) كوهاك: اسم سلالة هندية Guhak - إيكلافا Eklava : اسم ابن ملك في أسطورة عمرها ٥٠٠٠ عام في مملكة هاستينابورا

الاختلاف عن باقي الأمة في الوقت الراهن وعن كل عصرنا الحالي. ربما قد أدرك أن الله هو في داخله، وبالتالي فهو لن يضلله ولن يتم خداعه بأي شيء آخر في حياته. عندما أقيس الأرباح والخسائر في حياتي، يتولد لدي إحساس بأن هناك عجزاً في العقد – خسارة هائلة – لكن آمل أن أتوصل للاعتراف بقناعة تامة أن هناك ذخراً ثميناً قد كسبته يفوق ويتجاوز كل حاصل الإجحاف والأضرار والمعوقات التي عانيت منها.

توفي والدي وأصبحتُ مستقلاً وكنت لا أزال طالباً فاستدعيتُ الأستاذ ماستر موشيه وقلتُ له:

- «أرجوكَ اِبقَ معي ولا تعمل من أجل معيشتك في مكان آخر». فقال لي:
- «إن أنا حصلتُ على تعويض عما أدرِّسه لك، وإن حمّلتك كلفة ما أنقله لك من معرفة، سأكون كالذي يبيع الله في السوق».

كان تشاندرانات بابو يتحمل على الدوام وبكل شجاعة أشعة الشمس والمطر أثناء سيره على الأقدام من منزله إلى منزلي كي يعلمني. لم أستطع أبداً إقناعه باستخدام حافلتنا والحصان كي يأتي إلينا راكباً. فكان من عادته أن يقول: «كان والدي يأخذنا سيراً على الأقدام اعتباراً من «بات- تالا» إلى مكتبه في «لالديغهي» وحتى هو لم يذهب في حياته بالحافلة بطريقة الدفع المشترك السائدة هذه الأيام. فالمشي هو في جيناتنا».

اقترحتُ عليه إمكانية استلام وظيفة عندنا وهي القيام بحسابات الدخل من عائداتنا. فقال لي: «كلا، يا ولدي، أرجوك لا تقحمني وتوقعني في شرك ثروتكم. أريد أن أبقى حراً».

أما ابنه فقد اجتاز بنجاح امتحان الماجستير وكان يبحث عن وظيفة فقلت له أن بإمكانه الحصول على عمل معنا. وكان هذا الاِبن متحمساً جداً

لهذه الفكرة. فهو قد عبَّر لأبيه مراراً في السابق عن مثل هذه الأمنية لكن ذلك لم يغير من رأي الوالد قيد أنملة. ثم أعلمني الابن بشكل سري عن هذه الأمنية ففتحت الموضوع على الفور وبكل حماسة مع تشاندرانات بابو، فقال بكل صلابة: «كلا لن يعمل ابني هنا». اغتاظ الابن كثيراً من والده لأنه حرمه من مثل هذه الفرصة فتركه في ترمله وحيداً وذهب بعيداً إلى رانغون.

كان يقول لي مراراً وتكراراً: «انظر يا نيكهيل، أنا متحرر منك وأنت متحرر مني – هذه هي علاقتي بك، فإذا أردتَ أن تجعل هذه العلاقة عن رغبة حسنة أن تكون متعلقة بالمال، فهذا يهين ربنا الأساسي».

وهو يعمل في الوقت الحاضر مدير مدرسة، كما أنه لم يسكن في بيتنا، لكني أذهب لزيارته في بعض الأوقات عند المساء في منزله وأمكث معه إلى ما يقارب الساعة الحادية عشرة ليلاً نتحدث في أمور متنوعة. ومن الأرجح أنه كان يشعر بغرفته الصغيرة الخانقة كيف تصبح لا تطاق خلال الحر الشديد الضاغط في شهر آب لذلك وجد له ملاذاً هنا يستظل فيه. ومن المثير للإعجاب والدهشة أنه كان يحب الفقراء والأغنياء بالمقدار نفسه ولا ينظر إلى آلام الأغنياء بازدراء.

كلما نظرنا إلى الواقع بجدية أكثر، نتوصل إلى فهمه وإدراك كنهه أكثر. وعندما نتوصل إلى فهم معنى الحقيقة يعمنا مناخ من الحرية.

لقد جعلت بيمالا واقع حياتي قاسياً إلى حد كبير، لدرجة قهرتني هذه الحقيقة فعلياً وربما سحقتني. ورغم أني مواطن في هذا العالم الكبير الرحب، إلا أن بؤسي ليس له حدود. وجدتُ نفسي مشتِتاً فراغي التافه وسط حشود من الناس. وكنت أدندن باستمرار طوال هذا الصباح الخريفي:

غيوم بهادرا محملة بالأمطار

وبيتي موحش وخاوي المزار

عندما أرى الحقيقة من منظور حياة تشاندرانات بابو، يتغير معنى الأغنية كله فأغني -

ويسأل فيدياباتي:

كيف ستمضي أيامك ولياليكَ

وهل حُرمتَ من نعمة ربكَ؟

كل أوجاعي وأحزاني وأخطائي قد حصلت لأني لم أدرك حقيقة هذه الحكمة. كيف يمكن لي أن أُمضي بقية أيامي دون أن أسبغ على حياتي هذه الحقيقة؟

أيتها الحقيقة! أرجوك املئي معبدي الخاوي من جديد لأنني لم أعد أحتمل فراغه بعد اليوم أبداً.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل العاشر

بيمالا

لا أستطيع أن أصف ما حصل في قلب البنغال في هذه الأيام لقد كان التغيير الذي طرأ على روحه تغييراً عظيماً. ويبدو أن مياه البهاجيراتي قد جرفت فجأة رماد ستين ألفاً من أبناء ساغارا[١]؛ لقد كان هذا الرماد يرقد في جحيم العصور وهو لم يكن بمقدوره لا أن يشتعل بأي لهب نار يمسه ولا أن يأخذ شكلاً ملموساً واقعياً بدمجه بصلصال حي، لكن، وبشكل مفاجيء، انتفض الرماد وأفضى بمكنون صدره مؤكداً: «أنا هنا – بُعِثتُ من جديد».

لقد قرأتُ في كتب تاريخ الإغريق القديم عن نحّات[٢] كان ببركات الله، قادراً أن يبعث الحياة في تمثال من نحت يديه. كان التشكيل سابقاً للحياة، لكن الشكل والإحياء كانا مرتبطين بتطور تدريجي ملتزم. بينما في تلك الأكوام من الرماد في جبال بلادنا المحترقة، لا يمكن أن تطالب بأي نوع من الترابط والوحدة، إذ كيف تكون وحدة في رماد عقيم؟

لو كان الرماد كالحجارة الصلبة لكان بالإمكان أن يكتسب من جديد شكلاً آدمياً مثلما حصل في حادثة تحجر «آهاليا» التي استردت إنسانيتها

---

(١) Sagara ساغارا: مدينة هندية تقع بالقرب من نهر فارادا في مقاطعة شيموغا في كارناتاكا.

(٢) نحات يدعى بيغماليون Pygmalion عاش في قبرص ونحت تماثيل من الرخام. تحركت الحياة في تحفته الفنية المميزة فقدمتها له أفروديت للزواج.

بعد أن تحوّلت بالرسخ إلى حجر[1]. لكنه رماد تناثر كله وسقط في قبضة خالقنا، لتذره الريح هنا وهناك متلاشياً بسرعة النسيم، فرقد أكواماً رافضاً أن يصبح واحداً.أما الآن، فقد اكتسبت هذه المادة المفككة، لنفسها شكلاً واقعياً وأقبلت فجأة إلى باب دارنا ذات يوم صارخة بصوت يرعد ويزمجر: «أنا هنا».

شعرنا في ذلك اليوم أن ما حدث لنا كان أمراً خارقاً للطبيعة، وكأن اللحظة الراهنة من تاريخنا قد سقطت في أحضاننا مثل جوهرة من ذروة سكرة إله قد شرب من إكسير الحياة، وأنه لا يوجد تواصل طبيعي بين ماضينا وبين حاضرنا.

كان هذا اليوم مثل دواء لم نبحث عنه، قد جلبه أو وفَّره لنا أي طبيب عادي، لكن ثمة رؤى جعلتنا نشعر وكأننا توصلنا إلى مرادنا كما في الأحلام، فحسبنا أن شقاءنا وآلامنا كلها ستختفي بسحر ساحر، وأنه لم تبق ثمة حدود بالنسبة إلينا بين الممكن والمستحيل، لقد أثارنا لهيب الحماس وشدة الفرح فتوقعنا بحدسنا أن شيئاً ما كان سينبثق، شيء ما كان قريب الحدوث!.

وهكذا اعتقدنا حينها أن التاريخ لا يحتاج إلى مركبة أو جواد - إنه يأتي بنفسه لأنه يتحرك بقوته الداخلية كعربة السماء، ولا يحتاج سائق هذه العربة على الأقل إلى أن ندفع له أجراً أو أن نطعمه بل يكفي أن نملأ كأسه بالخمر أو بأي مسكر عنيف مرة بعد مرة، وعندها نصل إلى جنتنا المنشودة في دولتنا الحية.

لم يكن زوجي بعيداً عن التأثر بكل ذلك، لكن وسط كل هذه الإثارة كان يبدو وكأنه قد أصيب بكرب أو ابتلي بنوع من الاكتئاب، أو كأنه كان يرى أو يبحث عن شيء وراء كل ذلك الحاضر وأنه مدركه على الفور. وأذكر أنه قال ذات يوم أثناء مناقشاته المستمرة مع سانديب بابو:

---

(١) الرسخ: مرتبة من مراتب التناسخ ونوع من العقوبات بعد الموت، حيث يتحول الإنسان إلى حجر وذلك وفق مبدأ الثواب والعقاب في الديانة الهندوسية أي في عقيدة التقمص الموجودة في العديد من ديانات العالم.

- «يأتي الحظ السعيد ويقرع بابنا معلناً عن نفسه ليرينا فقط أننا لا نملك القوة لنعترف به أو نسلم بوجوده، أو حتى بقبوله. لأننا لم نقم بالاستعدادات اللازمة لدعوته إلى هنا كي يدخل بيوتنا ونهتم به ونحافظ عليه». فأجابه سانديب:
- «أنظر يا نيكهيل، إنك تتحدث وكأنك ملحد لا تؤمن بالله، أما نحن فبإمكاننا أن نرى تجليات مرئية واضحة للإلوهية التي أتت لتهبنا النعمة والبركة، وأنت لا تصدقنا!» فقال زوجي:
- «إنني أؤمن بالله القادر على كل شيء، ولأني قوي الإيمان بإلهي أعتقد بأننا لم نكن قادرين على ترتيب عبادته؛ الله قادرعلى مباركتنا والإنعام علينا لكن في الوقت نفسه ينبغي علينا أن نكون قادرين على تلقي نعمه».

كانت حجج زوجي هذه تضجرني فلم أتمالك نفسي ومضيت أقول له:

- «أتعتقد أن الحماسة التي دفعت الأمة إلى الهياج والاحتداد كانت مجرد اندفاع وإدمان؟ لكن مثل هذا الإدمان ألا يقوي أيدينا؟» فأجاب:
- «يقوينا لكن لا يوفر لنا السلاح». فقلت له:
- «لكن القوة منحة من الله ومن الصعب الحصول عليها بينما الأسلحة فيمكن أن يجهزها لنا الحداد لأنها مهنته». فابتسم وقال:
- «الحداد لا يعطينا الأسلحة دون مقابل بل سيطلب ثمنها». فقال سانديب بابو بثقة كبيرة:
- «سوف ندفع ثمنها، نعم سنفعل». فقال زوجي:
- «عندما تدفعون الثمن سوف أحتفل بذلك وأعدّ لهذه المناسبة سهرة موسيقية». فقال سانديب بابو:
- «نحن سوف لن نجلس مكتوفي الأيدي بانتظار احتفالك. إن مهرجاننا لا يقدر بمال الدنيا، لأنه لا يُشترى بالمال».

وبدأ يغني بصوته المنخفض الأجش:

أطوف حول الغابات سعياً

لتغدو حماستي عنده عزّاً

لا يقدِّرون لها ثمناً

ويسمعني نغم المرح عزفاً

على ناي الخيزران متواضعاً

ثم التفت إلي مبتسماً وقال:

- «أنا أغني لأثبت لك يا ملكة النحل، إنه عندما تشعرين بقلبك يغني فالصوت الأجش لا يوقفه عن الغناء. عندما ننشد بأعلى ما في حناجرنا فالأنشودة نفسها ليست بذات أهمية، لأن الموسيقى قد غمرت البقية الباقية من الأمة المنتشرة في طول البلاد وعرضها، فلندع نيكهيل يتدرب كالراهب المبتديء على موازينه وسلالمه الموسيقية، بينما نقوم نحن بإيقاظ الأمة بكلمات أغانينا وخشونة أصواتنا».

قال لي بيتي، إلى أين أنت عازم بإذن الله ؟

إن خطيتَ خارجاً قد تفقدني وأجرك على الله

لكن روحي تطلب الدمار وكل ما أملك الآن فليتولَّهُ الله

قد يحدث أن كل ما نملك قد يتحطم ولا يمكن أن يحصل شيء أفظع من ذلك. أنا مستعد للاعتراف بأن ذلك قد يحصل لنا وأننا قد نُدمَّر ونتحول إلى خراب – لكن ليس هناك أكثر من ذلك. حسناً، نحن مستعدون لمواجهة ذلك وتحمله بشجاعة.

آه! دمره ولا تبقِ شيئاً

مع بسمة ستعينني احتمالاً

في شرب الرحيق الإلهي موتاً

نخب تحقيق وجودي وعداً

في حقيقة الأمر يا نيكهيل، هو أننا متحمسون جداً وقلوبنا مشبوبة بالعاطفة لدرجة أننا لا نستطيع البقاء لمدة أطول محدودين بمقاصد وأهداف سهلة المنال، لأن رؤانا وتطلعاتنا مصممة أن تتقدم باتجاه تحقيق المستحيل -

من أحَبَّ العزيز المنشود
لن يعرف أبداً هيامي والعهود
وإله درب حياتي المعهود
يناديني الآن من جنات الخلود
لأفتن بربي الموعود
دع استقامة الوجود
وتحوَّل إلى رماد
فالأرض هي العقود

ظننت أن زوجي سيمضي في النقاش وكأنه يريد أن يضيف شيئاً بخصوص هذه المواضيع كلها. لكنه لم يقل شيئاً بل نهض بهدوء ومضى صامتاً.

هذا الوله وهذه الفتنة التي غمرت البلاد قد اتخذت في حياتي مضموناً مختلفاً بعض الشيء. كانت عربة العناية الربانية تبدو وكأنها قريبة مني، وصوت عجلاتها يجعل قلبي ينبض بسرعة طوال الليل والنهار. ففي كل لحظة، كنت أشعر أن شيئاً ما عجائبياً سيكون وشيك الحدوث في حياتي وأنا غير مسؤولة عن حدوثه. هل كنتُ ارتكب معصية؟ فالمسار الماثل أمامي الآن يصعد عالياً ليقودني بعيداً عن اعتبارات الفضيلة والخطيئة، عن الضمير والعدل، عن الرأفة والتعاطف والمشاركة الوجدانية؛ هل كنت أريد كل ذلك في حياتي أو هل انتظرتُ طوال عمري مثل هذا الأمر أو رجوتُ حدوثه؟ إن نظر المرء إلى حياتي بمجملها سيعرف أني صادقة وأنه لا ينبغي عليَّ أن أبرِّر نفسي، إن الذي عبدته بعد ربي لمدة طويلة من كل قلبي وكنت ثابتة

على ولائي له، وعندما حان الوقت المناسب لي لتلقي النعمة تبدل بمعبود آخر مختلف عنه.

وحين استيقظت الأمة جميعها لتنادي «باندي ماتارام» «تحيا الأمة» متطلعة إلى الأمام، كانت كل شرايين ومسامات جسدي تنبض احتفالاً بذكرى شخص مجهول رائع يفوق الوصف والإدراك. امتزج لحني بشكل غريب مع أغنية الأمة.

كنت في بعض الأحيان أنسحبُ من فراشي ليلاً وأدلفُ من غرفتي إلى الشرفة المكشوفة في الطابق العلوي، وأقفُ هناك، حيث كنتُ استطيع أن أرى خلف أسوار حديقتنا حقول الأرز اليانعة، وأبعد من ذلك إلى الشمال يجري النهر عابراً بين أوراق الشجر ونباتات الغابات، فكانت الضفة الخارجية مرئية لنا تماماً. كل هذا المشهد كان يبدو وكأنه نائم مثل جنين ساكن هامد، هاجع في رحم عالم مرتقب الخلق. نظرتُ في ذلك المستقبل فرأيتُ بلادي كامرأة تشبهني قامة وملامحَ. لقد كانت مهمشة، بل حبيسة جدران بيتها التي كانت أقصى مداها، لكنها تسمع الآن نداءً مجهولاً أتى ليخرجها من زاويتها. لم تجد أمامها متسعاً من الوقت لتستعيد أنفاسها وتتدارس أي شيء له علاقة بموضوعها وهي تسير في الظلمة التي تواجهها فكانت نافذة الصبر مندفعة لدرجة لم يتسنَّ لها أن تضيء قنديلاً. أعرف كيف يجاهد صدرها علوا وهبوطاً خلال الليل الغافي، وحالما نادتها أنغام الناي عن بعد أسرع قلبها وروحها إلى الأمام مع الشعور أنها عملياً قد وصلت وحققت هدفها: دولة لا يكون فيها خوف وأنت تسير معصوب العينين. الصورة التي رأيتها أمامي لم تكن صورة أم عادية، بل كانت صورة أم لا تقلق لإرضاع أطفالها، أو لإيقاد قنديل بيتها، أو لتنظيف الغبار في غرفتها. لقد كانت امرأة قد أبحرت على متن سفينة في رحلة حب، لأن أرضنا هي أرض أشعار الفيشناف، قد أهملت بيتها ونسيت مهماتها الروتينية، فكان يتملكها شوق يجعلها بكل بساطة تتقدم، لكن سواء أكانت على طريق حبيبها أم على طريق آخر، فإنها لا تبالي.

أنا أيضاً امرأة قد بدأت رحلة حبها في عتمة الليل. لقد فقدتُ بيتي وضللتُ طريقي، وأغشى الضباب بصري فلم أتلمس لا الغاية ولا وسيلة بلوغها. – ولم يبقَ لي سوى حماسة السير.

أنت أيتها التائهة الليلية لن يكون باستطاعتك أن تعيدي حساب خطواتك لتبصري أثراً لخط الرجوع عندما ينتهي الليل وتحمر ألوانه. لكن لماذا عليَّ أن أعود؟ أفضِّل الموت عليه، لماذا ينبغي عليَّ أن أخاف الظلمة التي خدعتني بنايها ودمرتني ولم تترك مني شيئاً؟ كل شيء سيضيع ولن يبقى مني ذرة أو أثر ضئيل، فظلمتي ستصبح إحدى أكبر الظلمات. لكن من هو الذي سينشغل حينها بالخير والشر بالضحك أو بالدموع!

في هذه المرحلة، أديرت آلة الزمن في البنغال بأقصى سرعتها. ما كان صعب المنال أصبح سهل التحقيق وبلمح البصر. شعرتُ وكأن لا شيء يمكن أن يؤجَّل بعد اليوم – ولا حتى في زاوية البنغال النائية حيث كنا نسكن. التعصب هنا لا نشعر به كثيراً مقارنة بالمناطق الأخرى من البلاد. والسبب الرئيسي في ذلك هو أن زوجي لم يكن يريد أن يمارس الضغط على أحد. فقد كان من عادته أن يقول: - «إن الذين يضحّون بأنفسهم في سبيل بلادهم، هم أنصارها الحقيقيون، بينما الذين يشكلون تهديداً باسم الأمة فهم ليسوا سوى أعدائها. – لأنهم يريدون قطع جذور الحرية ليروا فروعها بدلاً عنها».

لكن عندما جاء سانديب بابو إلى هنا، وجعل من بيتنا موقعاً له، ثم بدأ أتباعه يزورونه من كل الأقاليم المجاورة، حصل ارتفاع مفاجيء بفيض المشاعر وأصبحت تقام بين الحين والآخر محاضرات في الأسواق. والتف حول سانديب مجموعة من الشبان المحليين والعديد منهم كانوا يُعتبرون من ضعفاء البلدة، لكن وهج حماستهم الصادقة جعلتهم يتألقون باطناً وظاهراً، وقد كان واضحاً تماماً أنه حين يعم الفرح كل أجزاء الأمة، تتطهر من فساد البشر بمنتهى التوافق والانسجام. لكن عندما لا يكون هناك فرح في الأمة فإنه من الصعب على البشر أن يكونوا أنقياء طاهرين، وأصحاء مؤتمنين.

في هذه الأثناء، لاحظ الشعب أن البضائع الانكليزية من ملح وسكر وألبسة لم يتم منعها بعد من متاجر المقاطعة التي بعهدة زوجي. حتى موظفو المقاطعة أنفسهم أحسّوا بالقلق والحرج من ذلك.

أما في الماضي عندما كان زوجي يستورد البضائع من السواديشي لبلدتنا، كان الناس شيباً وشباناً يسخرون منه سراً وعلانية. وعندما كان استهلاك بضائع السواديشي لم يشكل مسألة تحد بالنسبة إلينا، لم نكن نعير ذلك أي اهتمام. حتى الآن لا يزال زوجي يشحذ أقلامَه الهندية بسكين هندية، ويكتب بالريشة، ويشرب الماء بطاس نحاسي، ويقرأ ويكتب ليلاً على ضوء قنديل محلي الصنع؛ وندرة الأثاث في قاعة استقباله كانت تجعلني أشعر بالحرج على الأخص عندما يكون هناك اجتماع قضاة أو لقاء مع رجال انكليز في بيتنا، لكن أسلوبه الباهت وغير المشوق تجاه السواديشي، لم يحمسني أبداً، بل كان مفعوله على العكس من ذلك تماماً.

كان زوجي يستخف بمآخذي ويقول لي مبتسماً:

- «لماذا تسمحين لمثل هذه الأمور التافهة أن تحزنكِ بهذا الشكل؟» فأقول له:
- «سيعودون إلى ديارهم معتقدين أننا قوم همج غير متمدنين». فقال لي:
- «إن فكروا بهذا الأسلوب، فسوف أسمح لنفسي بالتعبير عن اعتقادي أيضاً بان مدنيتهم بكل بياضها ليست أعمق من جلودهم البيضاء، وهي لم تسبر حتى الآن الدماء الحمراء المتدفقة في الكائنات البشرية».

كان على مكتب زوجي وعاء نحاسي عادي اعتاد أن يستخدمه كمزهرية. وفي مناسبات عديدة عندما كنت أعلم مسبقاً أن ضيفاً انكليزياً سيزوره، كنتُ أتسلل سراً إلى غرفته لأقوم بإخفاء هذا الوعاء وأضع مكانه مزهرية زجاجية ملونة، انكليزية الصنع، وأرتب في داخلها بعض الزهور.

فيقول لي: «انظري يا بيمال، إن وعائي النحاسي وعاء طبيعي بذاته تماماً كهذه الزهور، أما مزهريتك الانكليزية فتبدو أنها تنادي عالياً لتظهر لنا أنها مزهرية، فحري بك أن تضعي فيها زهوراً اصطناعية بدلاً من زهور طبيعية، لتناسب وضعها أكثر».

كانت سلفتي الكبيرة[١] هي الشخص الوحيد في تلك الفترة الذي كان يلاطف زوجي ويتملقه. فكانت تأتي لاهثة لتقول: «يا أميري العزيز، أعتقد أن الصابون المحلي أصبح الآن متوفراً في كل مكان، ونحن نستعمل الصابون منذ زمن بعيد، غير أنه بإمكاني أن أجرب بعضاً من الصابون الهندي إن لم يكن في تركيبه شحوم حيوانية. فأنا قد إكتسبت هذه العادة بعد دخولي منزل أجدادك. كان عليّ التوقف أحياناً عن ممارسة هذه العادة بحكم الضرورة طبعاً لكنني لا أزال حتى الآن لا أشعر بالانتعاش بعد الحمام إن لم أستعمل الصابون[٢]».

هلل زوجي فرحاً لهذا الالتزام، وبدأت صناديق الصابون ترد إلى المنزل، لكن أي صابون هذا؟ هل هي قطع صابون أم قطع صلصال؟ وهل أنا لا افهم ما يحصل في هذا البيت؟ استمرت سلفتي الصغيرة، ودون توقف ليوم واحد، باستعمال الصابون الانكليزي الذي كانت تستعمله عندما كان زوجها لا يزال على قيد الحياة. أما الصابون الوطني فكان يسلَّم للخادمات من أجل غسيل الملابس فقط.

وأتت مرة أخرى إليه لتقول: «أعتقد أن هناك أقلاماً محلية متوفرة في الأسواق اليوم. فأنا أبغي بعضاً منها لاستعمالي الشخصي. أرجوك، حباً بي أريد لي حزمة منها من فضلك».

أثر ذلك بسلفها فتحمس بشكل كبير وجلب لها أكواماً من كل أنواع القصب - تصلح لتنظيف الأسنان – والتي كانت تباع على أنها أقلام،

---

(١) وهي «سلفتي الصغرى».

(٢) تفرض الأعراف على الأرامل أن يمتنعن عن أكل اللحوم، ومفروض عليهن أيضاً الالتزام بعدم استخدام الصابون لأنه يحتوي على دهون حيوانية.

فكدستها في غرفتها. هذه الأنواع الرديئة لا تزعجها ولا تبالي بها لأنها فعلياً لا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد لا مع الكتابة ولا مع القراءة.. قد تستعمل عصا الطبل لكتابة حساب بعض عمّال الغسيل. وقد لاحظتُ أن ملقطها وقلمها العاجي تحتفظ بهما في صندوقها وهي تستخدم هذا القلم على سبيل النزوة إن أرادت أن تكتب شيئاً.

في حقيقة الأمر، كانت تقوم بكل هذه الممارسات لتثأر مني لأني لم أقبل أن أشارك زوجي في نزواته. وكان من العبث أن أظهر لزوجي زيف سلفتي فإن قلت له أي شيء يتعلق بها ولو مجرد إشارة بسيطة، يظل طوال النهار عابساً متصلب الوجه. شعرتُ وكأنه آلة منتجة. قد يخدع المرء نفسه إن حاول إنقاذ مثل هؤلاء الناس ممن يحتالون عليهم.

وسلفتي الصغرى تحب الخياطة. وفي ذات يوم بينما كانت تخيط قلتُ لها بعنف:

- «ماذا تفعلين؟ فمن جهة، سال لعابك بمجرد ذكر المقصات الهندية أمام سلفك، ومن جهة ثانية، عندما تخيطين لا يبدو إنه باستطاعتك أن تعملي دقيقة واحدة دون المقص الانكليزي». فأجابت:
- «ما هو المزعج في ذلك؟ فكري كم يجلب هذا الموضوع السرورَ إلى قلبه. لقد نشأنا سوية في هذا المنزل – وأنا لا استطيع أن أؤلمه بالسخرية منه. ورغم أنه رجل فليس له أي إدمان معين عدا شراء بضائع مصنوعة في وطنه. أنتِ وحدكِ إدمانه المشؤوم – ستؤدين به إلى الهلاك». فقلتُ لها:
- «مهما تقولي فليس مستحسناً أن تزعمي أنك بحال لستِ عليها فالنفاق غير مستحب». ضحكت بصوت عال وقالت:
- «يا للمغفلة، أرى إنكِ مستقيمة زيادة عن اللزوم في تعاملك مثل عصا المعلم. لكن النساء لم يخلقن بهذا الشكل ولسن صريحات بشكل مباشر لهذه الدرجة. لأنهت ناعمات مرنات فهن يملن قليلاً وليس هناك من ضرر في ذلك».

إن سوقنا التجاري في «شوكسايور» هو أحد أكبر الأسواق في المقاطعة. يتجمع كل يوم، سوق متنقل على إحدى جوانب المستنقع، ويقام في كل يوم سبت من الأسبوع اجتماع للسوق على الجانب الآخر. يبدأ المعرض نشاطه بحيوية بعد هطول الأمطار. ويتصل النهر مع المستنقع ويتحد معه ما يسهِّل حركة سير القوارب. وحول هذا المكان تقام تجارة الخيوط القطنية والملابس الصوفية استعداداً للشتاء القادم.

حصل في هذه المرحلة هياج واضطراب سياسي كبير بصدد مقاومة الثياب الهندية والسكر والملح الهندي في كل الأسواق التجارية في البنغال. فكنا جميعنا متصلبين حيال نشر وتعميم السواديشي. فقال لي سانديب:

- «لدينا مثل هذه الأسواق الكبيرة في أيدينا – فينبغي علينا أن نحوِّلها كلها أسواقاً للسواديشي، كما ينبغي علينا أيضاً أن نقتلع هذه البضائع الانكليزية الرديئة من منطقتنا». فأجبته بطريقة مهذبة:
- «طبعاً ينبغي علينا أن نفعل ذلك». فقال سانديب:
- «لقد تحدثتُ مع نيكهيل وتشاجرنا مرات عديدة حول هذا الموضوع، لكنني لم أستطع إقناعه بوجهة نظري، فبرأيه أننا أحرار بدعوة الناس لاتخاذ هذا التوجه كما أننا نستطيع أن نعظهم كما نشاء لكنه لن يسمح لنا باستخدام القوة لحمل الناس على هذا الأمر». فقلتُ له بكل ثقة بالنفس:
- «حسناً، سأتولى هذا الأمر بنفسي».

لقد كنتُ أعرفُ عمق محبة زوجي لي. ففي ذلك اليوم لو كانت حالتي النفسية مستقرة قليلاً لكنتُ فضلتُ الموت من الخجل قبل أن أفتح فمي الحقير وأراهن على حبه لي في مثل هذه المرحلة. لكن كان عليّ أن أقنِعَ سانديب بمدى قوتي، فأنا في النهاية ربّة القوة بالنسبة إليه. لقد شرح لي في تحليله الرائع ما جعلني أعتقد أن الطاقة الكونية تتجلى لبعض الأفراد المتميزين بشكل مماثل للأشخاص الاستثنائيّن. وكان يقول على الدوام: «نحن نبحث

يائسين عن شكل منظور للفلسفة، أي أننا نبحث عن «هلادينيشاكتي في فلسفة فيشناف[1]» وعندما نراه سوف نفهم بوضوح مغزى ناي «كريشنا» الذي يعزف داخلي. بعد أن يقول هذا الكلام كان من عادته أيضاً أن يبدأ بالغناء:

غابت معبودتي «رادها» Radha عني
ناديتها بالناي لأرى في عينيها أركاني
واللحن الذي عزفته من أنين زماني
انبعث بعيداً كرائحة عطر الريحانِ
أتجسدُ الموسيقى متنكراً بألحاني
ستلبي نداء قلبي الداني
في الماء وفي أرض الأماني
جمالها سر من حدائق النعمانِ
كفكفَ دموعي وأحزاني
وردَّ لي ابتسامتي وألواني

لقد أنساني نفسي ونسيت أنني بيمالا فأنا أدمنتُ على سماعه يتحدث ويترنم بهذا الشكل؛ لقد كنتُ المبدأ الأول خلف كل قوة وكل حماسة. لا شيء يقيدني فكل شيء كان ممكنا فيّ، وكل ما ألمسه أخلقه من جديد، بحيث كان بمقدوري أن أعيد تكوين عالمي كله مرة أخرى وبشكل جديد. لم تكن السماء الخريفية أبداً مليئة بالذهب قبل أن يلامسها قلبي. وفي كل لحظة كنت أجدد

(١) في التانترا Tantra – أي في الأدب الهندي المكتوب بالسنسكريتي والذي فيه الشعائر الاحتفالية للمذاهب. - ففيه المثال الأعلى للحب الكامل الذي تنبعث منه الحقيقة النهائية والواقعية، وحب كريشنا لرادها هو الوصل الأزلي والقوة التي تولد السرور وتبتهج في الوقت نفسه.

شباب بطلي، وعاشقي ومريدي - ذي العبقرية الفريدة التي لا نظير لها، متوقد المعرفة، ناري الروح، وفائق الحماسة. إنني أسكب في روحِه كل لحظة حياةً جديدة، لقد كان في الواقع قمة إبداعي.

منذ بضعة أيام، رجاني سانديب بإلحاح أن أستقبل تلميذاً خاصاً من أتباعه، فوافقتُ طبعاً وتم اللقاء. وإذا بشاب يافع اسمه آموليا شاران؛ لاحظتُ على الفور منذ المقابلة الأولى أن ضياءً جديداً يومض من عيني الفتى فعرفتُ أنه هو أيضاً قد تجلت له القدرة الروحية الأولية وأدركتُ أن طاقاتي الخلاقة قد بدأت تعمل في الدم الذي يجري في عروقه. قال لي سانديب في اليوم التالي:

- «ما هذه القوة السحرية التي فيك! إن هذا الفتى تغير ولم يعد كالسابق ففي لحظة من الزمن أسطع فتيل حياته اشتعالاً. من ذا الذي يستطيع بعد اليوم أن يخفي ثورتك داخل جدران بيتك الأربعة؟ كلهم سيجتمعون هنا فرداً فرداً. ستبدأ هذه القناديل بالتوهج واحداً بعد الآخر إلى أن يأتي يوم نحتفل به بعيد الديفالي[١] في بلادنا».

أصبحتُ ثملة بجنون العظمة فقد أذهلني بريق نجاحي فقررتُ أن أبارك أتباعي. وكنت مؤمنة كل الإيمان أن رغبتي لا يمكن أن يتصدى لها أحد أو يعيقها.

وعندما عدتُ من اجتماعي مع سانديب في ذلك اليوم، أرخيتُ عقدة شعري وربطه ثانية من فوق وكانت مس جلبي قد علمتني طريقة لتمشيطه من العنق وجمعه في عقدة. كان زوجي يحب كثيراً هذا النمط من تسريحات الشعر. فقد كان يقول:

---

(١) ديفالي Divali عيد هندي يسمى: «مهرجان الأنوار» ويكون موعده في شهر تشرين الأول أو تشرين الثاني وفيه تشعل المصابيح للاحتفال بانتصار الخير على الشر والنور على الظلمة.

- «لم يوح الله إلى الشاعر كاليداس عن جمال عنق المرأة، فهو اختار عوضاً عنه رجلاً نثرياً مثلي. لو رآه كاليداس لأسماه بالتأكيد عنق اللوتس، أما بالنسبة إلي فهو كالمشعل، وعقدة الشعر الأسود تلتهب ناراً في ذروته».

على عنقي المكشوف قد ود لو... لكن آه... وا حسرتاه! لماذا العودة إلى كل هذه الذكريات الآن؟

أرسلتُ بعد ذلك في طلب زوجي. كنت فيما مضى أستدعيه لأبسط الأسباب، حقيقياً كان أم ملفقاً. أما الآن فليس هناك من مناسبة لأبعث بطلبه، كما أني لم أعد أملك القدرة على التحجج، لقد فقدت فن الاختراع.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الحادي عشر

نيكهيليش

توفيت زوجة بونشو بمرض السل بعد معاناة مريرة. وعلى بونشو الآن أن يخضع لكفارة ويتحمل مصاريفها، وقد حسبتْ طائفته تكاليف شعائر التطهير هذه بـــثلاث وعشرين روبية ونصف!

لكني صحتُ به غاضباً:

- «لا تفعل ذلك. مِمَّ تخاف؟» فرفع إلي عينيه كعيني بقرة مجهدة مرهقاً من العبء الذي يعاني منه وقال لي:
- «هناك ابنتي العازبة في البيت ينبغي أن أزوجها[1]. كما ينبغي عليَّ أن أخلِّص روح زوجتي المسكينة». فقلتُ له:
- «حتى لو أنك ارتكبت الخطايا، ألم تكفر عنها ما يكفي كل هذه المدة؟» فوافق وقال:
- «ليس قليلاً، على أي حال يا سيدي لقد اضطررتُ أن أبيع جزءًا مما أملك أو أن أرهن كل أرضي لدفع ثمن معالجتها. لكن لا مفر لي من دفع حصتي من الهبات ومن إطعام البراهمة».

لا فائدة من الجدل معه. فسألتُ نفسي متى يقوم البراهمة الذين يعيشون من هذه الهبات، بتطهير خطاياهم الشخصية.

كانت حياة بونشو بائسة فهو لم يكن يجد كفاف خبزه إلا بالقدر اليسير لكن وضعه ازداد سوءاً وضيقاً بسبب معالجات زوجته ودفع مصاريف

---

(١) يخاف بونشو ألا تُطلَب ابنته للزواج إن هو لا يقوم بشعائر التطهير الهندية.

طقوس الدفن التالية لموتها. ففي هذه الفترة، أصبح مريداً عند رجل ورع تقي عله ينال شيئاً من السلوان. لكنه أغرق نفسه في هذه الفكرة الثابتة حتى استحوذت عليه بالكامل لدرجة أنه غفل عن واقع أطفاله الذين كانوا يعانون من الجوع. فقد صار من مؤيدي الفكرة القائلة إن العالم ليس إلا ظلالاً وإن الفرح الغائب عن حياته، الماثل بالأحزان ليس سوى أوهام. وفي النهاية وفي إحدى الليالي ترك أطفاله الأربعة لشقائهم يتدبرون شؤون حياتهم بأنفسهم في بيتهم المتهدم، وذهب يهيم متسولاً.

لم أعرف شيئاً عن هذا الموضوع في حينه. ففي ذلك الوقت كان ذهني مشغولاً بهياج آلهته وشياطينه، ولم يخبرني الأستاذ ماستر موشه أنه تولى أمر أطفال بونشو. وكان ابنه في تلك الفترة قد ذهب مع زوجته إلى رانغون. فكان وحده في المنزل وملزماً أن يمضي أكبر قسط من النهار في المدرسة.

وبعد شهر تقريباً وفي صبيحة ذات يوم، عاد بونشو فجأة وكان يبدو عليه أنه قد تخلص من الذهول ومن خدر تشرده. وإذا بأولاده يلتفون حوله ليشعروا بدفء أبوته، فجلس الابن الأكبر والبنت الكبرى على الأرض والتصقا به سائلين:

- «أين كنت كل هذه المدة يا بابا؟»

أما الابن الأصغر فجلس متربعاً على ركبته والبنت الصغرى انحنت على ظهره وطوقت عنقه بذراعيها من الخلف. كان قلبه يتمزق ألماً بتنهدات لا تنتهي.

أخذ يتضرع ويتوسل إلى «ماستر بابو»:

- «ليس لدي القدرة على إطعام هؤلاء الأطفال، كما أني لست حراً لأهرب منهم. لماذا، لماذا أعاقب بهذه الطريقة؟ أي ذنب ارتكبته حتى أنال هذا العذاب؟»

والتجارة التي كانت تعيلهم بعض الشيء حتى ذلك الحين، قد فسدت وخربت بسبب غياب بونشو وتوقفه عن العمل. فذهب ملتجئاً إلى منزل ماستر

موشه حيث وجد المأوى عنده وحتى إنه لم ينوه ولا بكلمة واحدة أنه سيعود إلى منزله. وأخيراً اضطر أستاذي ماسترموشه أن يقول له:

- «أرجوك يا بونشو، عد إلى بيتك – واعتن به وإلا سوف يتهدم. سأقرضك بعض النقود لتؤسس تجارة ألبسة، ثم تردها لي شيئاً فشيئاً».

انزعج بونشو قليلاً في بداية الأمر من هذا العرض، معتبراً إنه لا يوجد إيمان بالرأفة والإحسان في هذا العالم. وعندما أعطاه المال طلب منه أن يكتب صكاً به يكون سنداً بالدين. فتعجب بونشو متسائلاً عن قيمة هذه المنحة وهذا الكرم الذي يفرض عليه إعادة القرض. يرفض ماستر موشه أن يبدي إحساناً يستتبع حملاً على كاهل المدين. فكان يعتقد إنه وإن ضحى أحدهم بإنسانيته فهو يفقد احترامه لنفسه. فبعد أن كتب وصل السند، لم يعد بونشو يلمس قدمي أستاذي كما فقدت تحيته كثيراً من مظهرها الخاشع. وكان أستاذي يضحك من ذلك بينه وبين نفسه لأنه يعتقد أن مثل هذه الطقوس هي تافهة ودون أي معنى. فقال:

- «بالنسبة إلي، العلاقة الصادقة بين البشر هي علاقة الاحترام المتبادل، أما التقديس والعبادة فهي أمور أرفع من أن أستحقها».

اشترى بونشو بمال القرض الذي أقرضه إياه ماستر موشه، عدداً من السواري والمآزر والأصواف، وبدأ يذهب من باب إلى باب يقرعها ليبيع الفلاحين. لكن كان من الصعوبة بمكان أن يدفعوا له نقدياً مقابل بضائعه، فكانوا يعطونه قليلاً من الأرز والقنب، أو بعض الغلال الزراعية مما جنبه أية خسارة. وخلال شهرين، كان قادراً أن يعيد قسطاً من الفائدة ودفعة من الرصيد الأصلي. لكن هذا الأمر أنقص من تبجيل بونشو لأستاذي، وربما ندم واعتبر نفسه أنه ارتكب خطأ لأنه اعترف فيما مضى بأن ماستر موشه هو زعيم ديني، وأنه اكتشف مؤخراً وفي ظروفه الصعبة أنه كان يقدِّس ليس رجلاً عادياً فحسب بل رجلاً جشعاً طماعاً متكالباً على المال.

بينما كان بونشو يمضي أيامه يعمل في تجارته بهذه الطريقة، اندفع تيار السواديشي وأغرقنا بتدفقه الفجائي.

وكانت الفترة هي فترة العطلة حيث عاد شبان بلدتنا وشبان الجوار من الذين كانوا يدرسون في مدارس كالكتا وكلياتها إلى بيوتهم رافضين العودة إلى الدراسة. اعترفوا جميعهم بسانديب على أنه زعيمهم وأصبحوا ملزمين بالعمل لقضية السواديشي ونشر مقاصدها. كانت الغالبية منهم قد تقدموا لامتحان القبول في مدرستي الخاصة، وقد قدمتُ منحاً دراسية للعديد منهم كي يدرسوا في كالكُتا.

أتى هؤلاء جميعهم ذات يوم جميل إلى مكتبي مطالبين بأن نمنع الخيوط الانكليزية والشالات من سوق شوكسايور. فقلت لهم إني لا أستطيع أن أفعل ذلك. فسألوني إن كنت قد تكبدتُ بعض الخسائر بهذا الإجراء. فأدركتُ على الفور أن نيتهم لم تكن التفاوض الحقيقي بل كانت موجَّهة لإهانتي. فكدتُ أقول لهم إن الخسارة لن تكون من نصيبي، بل من نصيب الناس الفقراء. أما عندما تدخل بالحديث أستاذي ماستر موشه الذي كان حاضراً، فقال لهم:

- «نعم الخسارة ستكون من نصيبه وليس من نصيبكم أنتم.» ثم أجابوا:
- «عندما تكون الأمة رهناً... فقاطعهم ماستر موشه قائلاً:
- «الأمة لا تعني قطعة من الأرض فحسب بل تعني كل شعبها. هل أزعجتم أنفسكم ولو لمرة لتروا ما هو حال هؤلاء الناس؟ واليوم فجأة تهبطون عليهم من عل لتجبروهم على أكل الملح الذي تريدونه ولبس بعض الثياب التي تعتمدونها. لماذا عليهم أن يتحملوا ذلك ولماذا علينا أن نجعلهم يعانون منه؟» فقالوا له:
- «لقد حولنا استهلاكنا إلى الملح أو السكر والألبسة المحلية». فقال لهم:
- «أنتم محتدون ثائرون وقد أصبحتم عنيدين متصلبين بآرائكم، فأي شيء تفعلونه هو بملء اختياركم. أنتم تملكون المال لذلك تدفعون

ثمناً أغلى بقليل لتشتروا البضائع المحلية وهم لا يشكلون إعاقة بوجه مشيئتكم الحرة بأن تفعلوا ذلك. لكنكم تستخدمون قوتهم لتخضعوا الشعب لما تفرضونه. إنهم قد وقعوا في شرك الصراع من أجل البقاء يلهثون طوال الوقت في سبيل حفظ الرمق وليس بوسعكم أن تتخيلوا الفرق الذي يمكن أن تحدثه لهم هذه الزيادة القليلة من المال. كيف يمكنكم أن تقارنوا أنفسكم مع هؤلاء الناس؟ فبالنسبة إلى مستوى المعيشة، أنتم قد سكنتم دوماً في مناطق مختلفة عنهم، وتريدون الآن أن تنقلوا العبء الذي عليكم لتضعوه على أكتافهم! هل تستخدمونهم اليوم أدوات ومنفذاً لغضبكم؟ أعتقد أن ما تفعلونه يعتبر جبناً منكم. أما إذا تبنيتم مواقفَ حازمة بشأن كل السياسات التي خططتم لها، فأنا، الرجل المسن، مستعد أن أتبعكم كقادة لي ويدي على صدري؛ لكن إذا انتزعتم الحرية من الشعب الفقير بغية نشر راية نصركم، سأقف في وجه مسيرتكم حتى لو كلفني ذلك حياتي».

كانت الغالبية منهم طلاباً عند ماسترموشه، لذلك لم يكن باستطاعتهم أن يردّوا بالمثل بصورة واضحة، لكنهم اهتاجوا من فورة غضبهم، فتوجهوا لي قائلين:

- «هل ستكون أنتَ الشخص الوحيد الذي يضع العقبات أمام العهد الذي قطعته الأمة على نفسها اليوم؟» فقلتُ لهم:
- «ليس لدي الوسائل لأضع العراقيل في وجهها – في الواقع، سوف أدعمها بكل ما أوتيتُ من قوة». وابتسم طالب الماجستر ابتسامة فيها تهكم وقال:
- «ما هو الدعم الذي أبديته في هذا السبيل حتى الآن؟» فقلتُ له:
- «لقد اشتريتُ ملبوسات محلية الصنع وخيوطاً محلية الغزل من معامل محلية ووزعتها في أسواقكم. وحتى أني أرسلتُ من هذه الملابس إلى مناطق أخرى». فقال الطالب:

- «لقد ذهبنا إلى سوقك التجاري ولم نجد أحداً يشتري خيوطاً محلية الغزل هناك». فقلتُ له:

- «ليس هذا خطئي ولا خطأ سوقي. السبب الوحيد لهذا الوضع هو أن البلاد بكاملها لم تأخذ على نفسها عهد السواديشي أي أنها لم توقع على ميثاقكم». فقال ماستر موشه:

- «ليس هذا هو السبب فقط، بل لأن الذين تعاهدوا على ميثاق السواديشي قد أوعدوا بإرهاب الشعب أكثر من أي شيء آخر. أنتم تريدون أولئك الذين لم يصادقوا على ميثاقكم أن يشتروا منكم هذه الخيوط، وأن تُنسَج وتحاك بأيدي نساجين لم يقسموا على عهدكم، ومن ثم تجبرون أيضاً التجار الذين لم يؤدوا قسم السواديشي على شراء هذه الملابس. كيف يكون ذلك؟ بقوة عضلاتكم وبمطاردة وملاحقة جباة الإقطاع؟ هذا يعني إنه رغم أنكم تعهدتم وباشرتم بالصيام، لكن على الآخرين أن يموتوا جوعاً بسبب صيامكم، بينما أنتم تخرقونه». فعقب طالب في العلوم قائلاً:

- «حسناً، هل لنا أن نعلم ما هو نصيبكم من هذا الصيام؟» فقال ماسترموشه:

- «هل تريد أن تعرف؟ كان على نيكهيل أن يشتري خيوطه نفسها من معامل محلية وأن يتدبر من يغزلها ويحيكها لحسابه كي ينسجوا ويخيطوا منها الثياب. كما أنشأ مدرسة تدريب للغزل والنسيج في سبيل هذه المصلحة. وفي حدود تقديره للأعمال والمشاريع، تخرج المناشف المنسوجة من هذه الخيوط عند انتهائها، سعر كل واحدة منها مساوٍ لقطعة من البروكار، أي وكأنها منسوجة بخيوط ذهبية... فلذلك لن يكون لديه خيار آخر سوى شرائها بنفسه وتعليقها كستائر في قاعة استقباله، ولو أن مثل هذه الستائر لا تلائم وضع غرفته. بالإضافة إلى أنكم لو كنتم صادقين ومستقيمين مع

ميثاقكم لضحكتم بأعلى أصواتكم لرؤية نماذج الصناعة المحلية في بيته. وإن كان هناك طلب ما أو تقدير لهذه المناشف الملونة، سيكون دوماً من الانكليز».

لقد كنتُ دوماً قريباً من أستاذي ماسترموشه لكني لم أره قط بمثل هذه الثورة. واستطعتُ أن أتبين عمق الألم الذي تراكم زمناً طويلاً في قلبه وظل صامتاً من شدة حبه لي. لقد تسبب له التعاطف في حدود مرونته وامتلاك زمام نفسه، أن جعله يتآكل من الداخل.

ثم قال الطالب الذي يدرس في كلية الطب:

- «أنتم أكبر منا سناً، لذلك لن نجادلكم. لكن أرجوكم، نحن نود أن نعلم وللمرة الأخيرة إن كنتم مستعدين لإخلاء أسواقكم من البضائع الانكليزية أم لا؟» فقلت له:

- «كلا، سوف لن أسحبها من أسواقي لأن هذه البضائع ليست ملكي أنا». فاستعلم طالب الماجستر بتهكم تافه وسخرية مهينة :

- «لماذا؟ - هل سيكون في هذا التدبير خسارة لك؟» فأجاب ماسترموشه:

- «نعم، سوف يخسر بهذه العملية، إنها من ضمن أعماله وتجارته، فهو أولى الناس بأن يحكم بها».

فرفع كل الطلاب الصوت عالياً منشدين نشيد «باندي ماتارام» ثم غادروا المكان.

جاء أستاذي ماسترموشه بعد بضعة أيام بصحبة بونشو، فتساءلت فيما يمكن أن يكون وراء هذه الزيارة، إن هناك مسألة ما.

فظهر أن مالك الأرض التي يقيم فيها بونشو، واسمه «هاريش كوندو» قد غرَّمه بمائة روبية.

لماذا؟ ماذا كان إثمه؟ - لقد باع ألبسة انكليزية.!...

فذهب بونشو إلى مالك الأرض وتضرَّع إليه واعداً إياه بألا يعود إلى مثل هذه التجارة ثانية وأن يعفو عنه لأنه قد اشترى هذه البضاعة بمال مستدان. لكن مالك الأرض لم يبدِ أي استعداد للتنازل عن موقفه، بل على العكس من ذلك طلب من بونشو أن يحرق كل الثياب التي بحوزته كي يفرج عنه. ولسوء حظ بونشو قال يائساً:

- «أنا رجل فقير، ليس لدي المقدرة المادية لأنفذ مثل هذا الإجراء. أما أنتَ فإنك غني مقتدر تملك الكثير من المال لماذا لا تشتريها أنت ثم تحرقها لحسابك الخاص؟»

شحب لون مالك الأرض لغضبه من مثل هذا الاقتراح وقال له:

- «أنت يا ابن الزنى! لقد تعلمت حقاً أن تعترض وترد بهذا الشكل! اضربوه بالأحذية!» وكانت النتيجة أن بونشو المسكين قد خضع لعملية مهينة على يد مالك الأرض بالإضافة إلى الغرامة التي دفعها وهي مائة روبية. هؤلاء بالذات هم الناس الذين يتبعون سانديب، ويصرخون بصوت فظ أجش شعار باندي ماتارام، ويتبجحون بأنهم خدام الأمة!

- «وماذا فعلوا بالألبسة؟»

- «لقد أحرقوها»

- «من كان هناك أيضاً أثناء عملية الحرق؟»

- «لقد كان هناك حشود كبيرة أخذوا يصيحون ويرددون شعارهم باندي ماتارام. كان سانديب هناك أيضاً، حيث تناول بيده حفنة من الرماد وقال:

- «يا إخوتي، هذه أول محرقة جثث جنائزية أشعلتْ نارها بلدتكم الأبية كعلامة واضحة لآخر عادات وشعائر التجارة الانكليزية. هذا الرماد هو رماد مقدس، ينبغي عليكم أن تدهنوا به كل جسدكم، لتحطيم آخر نول للنسيج في مانشيستر، وطرد شبكة

الأوهام والسير على الدرب كالزاهدين العراة الذين يركزون على هدف إيمانهم فقط».

فقلتُ لبونشو:

- «ينبغي عليك يا بونشو أن تقدم شكوى ضد حادثة جنائية». فأجاب بونشو:
- «لن يشهد لي أحد في هذا الحادث».
- ألن يفعلوا ذلك جماعة سانديب؟ سانديب! خرج سانديب من غرفته وقال:
- «ماذا جرى، ما هي المشكلة؟»
- «إن كمية كبيرة من الملابس التي تخص هذا الرجل أحرقت على يد مالك الأرض الذي يقيم عليها أمام الجميع وعلى مرأى منكَ – ألا تشهد مع هذا الرجل على إحراق بضاعته؟»

ابتسم سانديب وقال:

- «طبعاً سأشهد في هذه القضية لكني لن أشهد معه بل سأشهد لمصلحة مالك الأرض».
- «كيف يمكنك أن تكون شاهداً لمالك الأرض؟ بإمكانك فقط أن تشهد بالحقيقة».
- «هل ما حصل حالياً هو الحقيقة الوحيدة؟»
- «وما هي الحقيقة الأخرى؟»
- «إنها الأمورالتي ينبغي أن تحدث. علينا نحن أن نبني تلك الحقيقة، ومن أجل هذا البناء نحتاج لدعم الكثير من الأكاذيب، تماماً مثلما بنينا حياتنا على قاعدة الأوهام. وأولئك الذين ولدوا لخلق العالم بشكل جديد لا يتقيدون بالحقيقة بل يعيدون خلق حقيقة أخرى بدلاً عنها».
- «إذاً – ماذا بعد؟»

- «من ثم، سأشهد ما قد تسميه شهادة زور. كل من أراد أن يوسع مملكته، ويقوي دعائم إمبراطوريته، ويحصِّن جماعته، أو أن يؤسس مذهباً دينياً، كل هؤلاء جميعهم يؤدون بكبرياء وغطرسة شهادات زور في محكمة الحقيقة الصارمة. القادة الذين يحكمون لا يخشون ولا ينقبضون من الزور والبهتان، أما أغلال الحقيقة الحديدية فهي فقط لأولئك الذين يطيعون الحكام. ألم تقرأ التاريخ؟ ألا تعلم أن في أكبر مطابخ العالم حيث يطبخ باستمرار الحساء السياسي بأوزان كبيرة تكون كل توابله وبهاراته زائفة؟»
- «مثل هذه التدابير قد تم إعدادها في العالم لكن الآن...»
- «كلا، لماذا ينبغي عليك أن تطبخ حساء؟ فأنتَ ستمسك من بلعومك وتجبر على بلع الحساء. عندما سيجزئون البنغال إلى جزأين، سيقولون لك أن هذه التجزئة هي لمصلحتك[١]. وعندما سيوصدون أبواب التعليم، سيقولون إنه مخطط نبيل لرفع مستوى المثل العليا. وستكون أنت فاضلاً عفيفاً وستذرف الكثير من الدموع، بينما نكون نحن لا أخلاقيين نقوّي حصون زيفنا».

فقال ماسترموشه:

- «هذه أشياء لا يمكن الجدال فيها يا نيكهيل. الشخص الذي لا يستطيع روحياً أن يشعر في داخله بالحقيقة العميقة والأساسية الكامنة فينا فهو لن يستطيع ولو بشق الأنفس أن يكوِّن أفكاراً سامية تؤدي به إلى الاعتقاد بأن هدف الإنسان النهائي هو أن يكشف عن أعمق أسرار الحقيقة بكل تجرد ووضوح، وليس هدفه أن يجمع ويُراكِم براهين خارجية».

---

(١) إشارة إلى اللورد كرزون Lord Curzon وتقسيمه البنغال عام ١٩٠٥، الذي تمَّ تنفيذه ظاهرياً من أجل الملاءمة الإدارية، لكنه فسِّر وحلل من قبل القوميين على أنه سياسة «فرِّق تسد»؛ الأمر الذي أثار احتجاجات كثيرة وتم إبطاله عام ١٩١١.

ضحك سانديب عالياً وقال:

- «كلامك هو تماماً ككلام معلم مدرسة! بإمكاننا أن نجده على صفحات الكتب فقط، لكنني رأيت بأم عيني أن الهدف النهائي للإنسان هو في تكديس أشياء خارجية. وأولئك الذين كرسوا أنفسهم لهذا الهدف يعلنون الأكاذيب بأحرف البداية الكبيرة على صفحات الدعايات التجارية، ويكتبون بيانات لحسابات متضخمة بأقلامهم المملوءة زيفاً وغروراً على صفحات موازنة السياسات، وينشرون صحفهم المثقلة بالأكاذيب، والمبشرة بعقيدتهم، والتي تنشر أضاليلهم مثلما ينشر الذباب جرثومة التيفوئيد. لقد كنتُ من أتباعهم المخلصين – عندما كنتُ منتمياً لحزب المؤتمر، كنتُ أحسُّ بالتجارة التي كنت أتعامل بها حيث كنت أغش كلامي بتسعين بالمائة من الزيف. أما الآن فقد انفصلتُ عن هذا الحزب، لكني لا أزال أتبع المبدأ الأخلاقي الذي يقول إن هدف الإنسان الأساسي هو الكسب والانتفاع وليس الحقيقة».

فقال ماستر موشه:

- «هدفنا هو إثمار الحقيقة والتمتع بها.» فقال سانديب:

- «إن غلال الحقيقة لا تنضج إلا ضمن وفرة من الزيف، لتهشيم وتفتيت الأرض تحت الأقدام ولتحويلها إلى تراب بغية زيادة القدرة للحصول على موسم حصاد غزير. والحقيقة تنمو وحدها لأنها من الأعشاب الضارة ونبات العليق البري، والحشود الكبيرة من الديدان والحشرات وحدها تستطيع أن تتطلع إلى جني ثمارها».

خرج سانديب مسرعاً من الغرفة بعد أن أدلى بتصريحه.

ابتسم الماسترموشه قليلاً، ونظر إلي ثم قال:

- «أتعلم يا نيكهيل، إن سانديب ليس شخصاً غير متدين، إنما يتبع أسس عقيدة مختلفة، إنه قمر جديد، وهو بالتأكيد هلال، لكنه قد ضلَّ وخسر رؤية القمر بدراً احتمالاً أو مصادفة». فقلتُ له:

- «نعم، لهذا السبب لم يكن بمقدوري في السابق أن أتناقش معه وجهاً لوجه بتفاهم تام، لكنني كنت دائماً أميل إليه ففي طبعه شيء ما يجذبني. لقد تسبب لي بأذى كبير، والأرجح أنه سوف يزداد إيذاءً لي في المستقبل، لكنني لا أستطيع أن أقلل من احترامي له». فقال:
- «هذه أمور بدأتُ أستوعبها. وكثيراً ما سألتُ نفسي كيف تستطيع احتمال سانديب كل هذه المدة، لدرجة أنني أحياناً كنت أشتبه بأن يكون ذلك نوعاً من الضعف من جانبك. أما الآن فأستطيع أن أرى أن هناك نوعاً من الانسجام في الإيقاع في تعاملكما رغم أنكما لا تجاملان بعضكما بعضاً بالكلام».

فقلتُ له مازحاً:

- «صديقان تشاركا لينظما بيت شعر أجوف. ربما شاعر ثروتنا يخطط لكتابة ملحمة مثل «الفردوس المفقود[1]»».

عند هذا الحد ذكرني الماسترموشه قائلاً:

- «والآن ماذا سنفعل بقضية بونشو؟» فأجبته:
- «لقد سبق وقلتَ لي إن بونشو له بعض الحقوق الوراثية على بضع فدادين من الأرض القائم عليها بيته، وأن هذا المالك يحاول بكل قوته أن يلغي هذه الحقوق، فأنا بإمكاني شراء قطعة الأرض هذه وأبقيه فيها كمستأجر».
- «وماذا عن الغرامة التي فرضها عليه ومبلغها مائة روبية؟»
- «كيف يمكن فرض غرامة وابتزازها في ارض تكون ملكاً لي؟»
- «وأكداس الثياب؟»
- «سأشتري له ثياباً جديدة بدلاً عنها. فإن هو غدا مستأجراً عندي سيصبح بإمكانه أن يبيع كيفما شاء وأينما شاء –لنرى من سيجرؤ على إيقافه».

---

(١) جون ملتون John Milton (١٦٠٨- ١٦٧٤) ألَّف قصيدته «الفردوس المفقود» عام ١٦٦٧ بأبيات شعر غير مقفاة.

طوى بونشو يده على صدره وقال:

- «أخشى يا سيدي أن يكون ذلك صراعاً بين مالكي الأرض. كل أنواع النسور الجشعة من مفتش الشرطة إلى المحامين في المحاكم العليا سيجتمعون هنا، وسيستمتعون بينما سأكون أنا الضحية».
- «لماذا، بماذا يمكنهم أن يضرّوك؟»
- «سيحرقون بيتي وسأحترق فيه أنا وأطفالي».

فقال الماستر موشه:

- «يستطيع أطفالك أن يسكنوا في منزلي لبضعة أيام – لا تقلق بهذا الشأن. امكث في بيتك وتابع أعمالك بالطريقة التي تريدها. فلن يمسَّك أحد بأي سوء. سوف لن أسمح لك بمتابعة الارتعاد أمام الظلم، فكلما ازداد ذلك عند الإنسان ازداد العبء عليه أيضاً».

اشتريتُ أرض بونشو في ذلك اليوم نفسه وسجلته في الشهر العقاري وأصبحتُ المالك الرسمي له. واعتباراً من هذه المرحلة بدأت تظهر على الفور مصاعب كثيرة لم تكن بالحسبان.

كانت ملكية بونشو تعود لجده من والدته. وكل امرىء كان يعلم أن بونشو هو الوريث الشرعي له.. لكن فجأة ظهرت قريبة له تدّعي أنها زوجة خاله وأتت لتطالب بورثتها، دخلت بيت بونشو واستقرت متربعة في وسطه مع صناديقها وصررها وأكياسها، ترافقها ابنة أخ لها مترملة هي الأخرى أيضاً.

دهش بونشو بهذه المفاجأة لعلمه أن زوجة خاله قد توفيت منذ سنوات عديدة. فأجابته بحزم ومن غير إبطاء أنه حالما توفيت زوجة خاله الأولى، لم ينتظر خاله طويلاً حتى اتخذ زوجة ثانية. اعترض بونشو قائلاً إن خاله لا يمكن أن يكون قد تزوج ثانية لأنه توفي قبل زوجة خاله بسنوات عديدة.

أكدت هذه المرأة أن زواج خاله الثاني منها قد جرى ليس بعد وفاته إنما خلال حياته. وهي من خوفها أن تجبر على العيش مع الزوجة الأولى لزوجها، بقيت ساكنة مع أبويها. لكن بعد وفاة زوجها تنسكت وغادرت إلى

«فريندافان» وزعمت أن موظفي هاريش كوندو وضباطه ومستأجرين عنده كانوا يعلمون كل هذه الأمور وإذا استدعاهم مالك الأرض بحزم، فلن يتوانوا لحظة واحدة ليعترفوا أن بعضاً منهم كانوا قد حضروا حفلة الزفاف وأنهم قد يمثلون فجأة ليشهدوا بذلك.

أما بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما كنت منهمكاً بآخر تحوّل حصل في سلسلة السيرة الإرثية لبونشو، أرسلتْ بيمالا في طلبي من الجناح الداخلي للبيت (اندرمحل). تراجعتُ قليلاً وسألتُ:

- «من أرسل في طلبي؟ هل هي زوجة أخي الصغرى، أم زوجة أخي الكبرى؟»

- «كلا يا سيدي إنها زوجتكم بيمالا»

- «بيمالا!» شعرتُ وكأنها لم تنادني منذ مائة عام.

تركتُ الجميع ينتظرون في قاعة الاستقبال وذهبتُ باتجاه أندرمحل. دُهِشتُ عندما رأيتُ بيمالا في غرفة النوم، لكني دُهِشتُ أكثر عندما رأيتها مرتدية ثياباً غير اعتيادية لمثل هذا الوقت في المنزل، ولمثل هذه المناسبة. فكانت لأيام عديدة خلت قد أهملت ترتيب مظهرها ولم تظهِر أي علامة اهتمام – فكان كل شيء فيها مبعثراً متناثراً لدرجة أن الغرفة نفسها بدت وكأنها شاردة الذهن؛ لكن في ذلك اليوم لاحظتُ أنها استعادت شيئاً من نظامها القديم.

وقفتُ صامتاً أنظر إلى وجه بيمالا مستفهماً. احمرت قليلاً، ثم بدأت تحرك أصابعها بقلق وكأنها تلعب بسوارها، وقالت:

- «هل صحيح أن في كل أنحاء البنغال، سوقنا هو الوحيد الذي لا يزال يستورد ويبيع ألبسة انكليزية؟» فسألتها:

- «ماذا تعتقدين أنه من المستحسن لنا أن نفعله؟»

- «لماذا لا تطلب أن تُنبذ هذه البضائع؟»

- «البضائع ليست ملكي أنا».
- «لكن السوق ملكك».
- «السوق ملك الشعب الذي أتى إلى هنا ليشتري البضائع التي يرغبها».
- «حرِّضهم كي يشتروا بضائع محلية».
- «سأكون أسعد الناس إن فعلوا ذلك، لكن ماذا إن أبوا؟»
- «ماذا تقول؟ هل سيكونون وقحين لدرجة أنهم لن ينفذوا ما تقوله؟ حقاً إنك...»
- «إنني مشغول جداً في الوقت الحاضر، علي أن اذهب، لكن ما الفائدة في الجدل بمثل هذه المواضيع؟ أنا لا أستطيع أن أقمع شعبي وأظلمه».
- «الاستبداد لن يكون لمصلحتك بل لمصلحة الأمة».
- «عندما أرهِبُ الناس باسم الأمة، سأكون فقط قد قمعتُ الأمة، أنتِ لن تفهمي هذا الأمر أبداً».

خرجتُ من الغرفة وعدتُ إلى قاعة الاستقبال. بدا عالمي كله وقد اشتعل أمام عيني. شعرتُ في دمي أن حمولة الأرض كلها لن تثقل عليّ.

في كل طور من تطور الأرض المستمر عبر العصور، حتى بعد أن أملت مهمتها في إمداد الحياة، أسرعتْ تدور في الفضاء بزخم من الطاقة الرائعة، تدور دون توقف بدورة من تناوب النهار والليل مثل مسبحة الصلوات في اليد.

كان العمل الذي قامت به بلا حدود ومتعذراً قياسه، يا له من عمل أبدي خلف حدود الزمن، ولم يكن هناك حدود لنبض الحرية فيها، إنها طاقة ليس لها حدود، كما لو أن لا أحد أو لا شيء أياً كان أو مهما كان يستطيع أن يقيدها.

فجأة، انبعثت من أعماق قلبي سعادة عارمة كأنها دعامة جبارة بدت وكأنها تلامس غيوم السماء. سألتُ نفسي مراراً عما حصل لي.

لم أستطع في أول الأمر أن أجد جواباً شفافاً واضحاً. ثم أدركتُ أني قد رأيتُ للتو كسراً كبيراً في القيد الذي كان قد أقلقني ورماني في عذاب ليلاً نهاراً طيلة الأيام السابقة. فوجئت بأنني قد تخلصتُ من حالة الذهول التي كانت قد أصابتني. استطعتُ أن أبصر بجلاء كل الأشياء التي كانت قد خططت لها بيمالا وكأنها على لوحة فوتوغرافية. استطعتُ أن أدركَ تماماً وبوضوح أنها قد تأنقت في ملبسها خصيصاً لتنتزع شيئاً ما مني. قبل هذا اليوم لم أكن أنظر أبداً إلى لباس بيمالا وزينتها على أنها أشياء مستقلة عنها. لكن اليوم، عندما رأيتُ تسريحة شعرها بالدُرجَة الانكليزية وكأنها ثعبان من شعر قد التف على رأسها، رغم أن عقدة الشعر هذه كانت في الماضي غالية جداً على قلبي. أيقنتُ في ذلك اليوم أنها عُرِضَت للبيع كسلعة رخيصة.

لقد كان لي مشادات في المناقشات حول مفهوم الأمة مع سانديب في كل المراحل وعلى جميع الأصعدة.

كانت اختلافات حقيقية. لكن كلام بيمالا باسم الأمة كان قد تشكل في ظل سانديب، وليس خارج الأفكار الواقعية. قد يتغير كلامها إن خضعت أوهامها بخصوص سانديب إلى تحولات. أبصرتُ كل ذلك بوضوح تام – دون أن أجد أي غموض أو ضبابية في أية نقطة منه.

حين خرجتُ من ذلك القفص المحطم الذي هو غرفة نومي إلى ضوء الشمس الإلهي، رأيتُ بعض الطيور قد بدأت على حين غرة تزقزق بحيوية لأسباب تخصها. وعلى كِلا الجانبين من الدروب المفروشة بالحصى، إلى الجنوب من الشرفة، صفوف من الأشجار تحمل زهوراً وردية اللون ظللت السماء من شدة غزارتها. بعدها بمسافة قصيرة، وفي نهاية الدرب الممتد عبر الحقول، ترقد عربة صغيرة قد ارتفعت مؤخرتها باتجاه السماء مع أحد ثيرانها الذي يرعى العشب، أما الثور الآخر فهو مستلقٍ تحت الشمس مغمض العينين بينما يقتات غراب الحشرات التي على جسده. هذه الوضعية الهادئة الاسترخائية هي التي أدت به إلى إغماض عينيه. شعرتُ في ذلك اليوم كما لو أني اقتربت أكثر فأكثر من نبض صميم الأشياء البسيطة لكن العظيمة في

العالم، وكلما اقتربتُ من إيقاع نغم الأرض لامستني أنفاسها الدافئة بعبير ورودها، وأطربني نشيد عذب ينبعث من تكوينها، وأراح قلبي تنهدها المتقد الممزوج بعطر الزهور الوردية، واستراح فيه. شعرتُ وكأن هويتي امتزجت مع كل حضورٍ في الكون لتشكل عذوبة لحن أوركسترالي كريم عميق وفائق الروعة والجمال.

بهذه الأجواء تذكرتُ بونشو، الواقع في فخ الفقر من جهة وبين أنياب مالك الأرض من جهة أخرى. رأيته في عصر ذاك اليوم من أيام الشتاء، وكأنه قد امتد عبر كل المزارع والحقول في البنغال، مثل ثور مغمض العينين – ليس استراحة واسترخاء إنما إنهاكاً وإعياءً وجوعاً. بدا وكأنه يجسد كل فقراء البنغال. شاهدتُ أيضاً وجه هاريش كوندو السمين، المؤدي طقوسه الدينية بشكل استثنائي متجاوزاً حدود المقبول، هو أيضاً لم يكن قصيراً بل كان هائلاً ضخم الجسد – مثل غشاوة خضراء اللون دهنية الملمس استطالت وتمددت على مستنقع نتن فاسد تحت غابة الخيزران. وقد تمدد من ضفة المستنقع الأولى إلى ضفته الأخرى فبدا وكأنه يتجشأ بشكل متقطع زَبَدَه المسموم.

كان الحس الشهواني الجامح هو في غاية تضحياته، أعمى في جهله، ومبتذلاً بكسله وبلادته، من جهة أخرى، قد انتفخ وثمل من مص دماء الموتى، يقلق العالم ويشوهه بغروره السلبي وجموده وباعتداده القاصر بنفسه. يود المرء لو يتصارع مع أمثاله إلى النهاية المرّة والمأسوية – لقد كان ذلك لقرون عديدة. تمنيتُ لهواجسي أن تنتهي، وأن ينقشع الحجاب من حولي، وأملي ألا تضيع رجولتي نفسها فتقع في فخ نزوات وخداع حياتي الخاصة.

نحن رجال، منذورون للتحرير، وعندما تنادينا مثلنا العليا نهّبُ لتلبية ندائها، مسرعين إلى الأمام، لنستعيد الأميرة الأسيرة بتسلق أسوار حصن التنين. والمرأة التي نسجت بمهارة راية النصر لمغامرتنا هذه، هي رفيقة أصيلة في الحياة. وينبغي علينا أن نكون قادرين على تحديد ونزع قناع الإغراء والإغواء

الذي يحيك لنا شبكة عنكبوتية من الأوهام قابعة في زاوية بيتنا. آمل أن أصل إلى تبصر وبصيرة حقيقية في شخصيتها، وليس بتلوينها بألوان من عواطفي لرفعها إلى مستوى ملاك يود مسرعاً أن يلهيني فقط عن تأملاتي. أعتقد اليوم أني سأنتصر - لقد وضعتُ نفسي في الاتجاه الصحيح والمستقيم جداً. فأنا أتفحص كل شيء بوضوح وصراحة تامة. لقد تحررتُ، ووجب أن أعترف بهذه الحرية وأسلِّم بها.أما وسيلة خلاصي ونجاتي فتكمن في عملي.

أعرف طبعاً أن الألم الذي سيعاودني ذات يوم سينتشر في داخلي كسكرة الموت، لكني أدرك الآن وأميز كنه هذا الألم وكنه هذه السكرة. فأنا لن أستطيع أن أحترمها بعد الآن أبداً. وأعلمُ أن هذا الألم يصيبني وحدي فقط، فليس له أية قيمة. أفضِّل الآن أن أزيّن نفسي باحتضان معاناة العالم وألمه.

أيتها الحقيقة! أنقذيني حرريني، لا تدعيني أعود إلى فردوس العار الزائف. وإن جعلتني أجتاز الدرب وحيداً، فليكن في دربك، فقلبي يردد صدى نقر الطبول احتفالاً بانتصارك في يومي هذا.

الفصل الثاني عشر

سانديب

تفجرت سدود الدموع كلها بقوة لتتدفق منها مشاعر الخيبة؛ أرسلتْ بيمالا في طلبي في ذلك اليوم، لكنها لم تستطع أن تتفوّه ولو بكلمة واحدة لتعبر عما يحزنها بهذا الشكل لكن عينيها بدأتا تتلألآن وقد فاضتا بالدموع. فأدركتُ أنها لم تحرز أي تقدم مع نيكهيل، رغم الثقة التي كانت ملؤها غطرسة لدرجة اعتقدت نفسها قادرة على إقناعه إما بالإيقاع به أم بالاحتيال عليه. لكني لم أكن أشاطرها هذا الأمل. فالنساء يعرفن مكامن ضعف الرجال، لكن لا يستطعن أن يسبرن لغز صدقهم. في حقيقة الأمر، يشكل الرجال لغزاً للنساء، كما أن النساء لغز للرجال. لو لم يكونوا بهذا الشكل، لهدرت الطبيعة طاقاتها في محاولة للتمييز بين الجنسين.

الكبرياء المجروحة! إنها لم تأخذ بعين الاعتبار تعذر إنجاز الشأن الملِّح والضروري، لقد حزنت فقط لأن ما رجته وخططت له بنفسها لم يُسْتجبْ له... المطالب الأنانية التي تضعها النساء يملأنها بوافر من الألوان والإيماءات والدموع وحتى بالخداع والتكلف، وهنا يكمن جمالهن. والنساء متميزات بل استثنائيات كأفراد أكثر مما نحن عليه. عندما خلق الله الرجل كوّنه من جعبة الكتب والوقائع، أما عندما خلق المرأة، فقد أبدعها من ألوان وريشة فنان.

لهذا السبب وقفت بيمالا صامتة متوردة الوجه بحماستها المتوقدة باكية في كبريائها المجروحة كسحابة مطر مظلمة احمرت خجلاً من اتقاد الغروب

في الأفق، لقد بدت لي حقاً امرأة فاتنة. اِقتربتُ منها وأمسكتُ يدها بقوة فارتعدت، فقلتُ لها:

- «يا ملكتي، تذكري أننا شركاء، لدينا الهدف نفسه، اِجلسي لنتحدث في الأمر». ثم قدتها إلى المقعد وجعلتها تجلس وتستريح.

لكن الأمر الغريب في الموضوع أن حماستنا قد وصلت إلى هذا الحد في الوقت الراهن وليس أبعد من ذلك. فكانت كما لو أن نهر «البادما» الذي بدأ يزأر حنقاً وغضباً بفيضانه مطيحاً بالضفاف على جانبيه، قد غير اتجاهه فجأة، ولم يدرك النهر أنه يحمل مخلوقات في الأعماق ترقد مخفية تحت سريره كحواجز من كتل تترنح متعثرة. عندما شددتُ على يد بيمالا، تناغم عزف ألحاني النابع من أعماق كياني استجابة لملامستها، لكن لماذا توقفت المقطوعة الموسيقية عند حدود المقدمة ولم يتعاظم صوتها ولم تستمر لتصل إلى التصعيد؟

أدركتُ أن أعمق نقطة في قلب تيار الحياة قد خلقت منذ عصور خلت، وأن فيض الشهوة عندما يتدفق بقوة فهو يتلف بعد حين الدرب الذي سار فيه، أو يتعثر ويسقط أحياناً أخرى؛ هل هو نوع من الخجل ورواسب من عدم الثقة بالنفس ظلت في داخله؟ أم ماذا تكون هذه الظاهرة؟

الواضح أنها ليست عاطفة معينة وحدها، بل مجموعة عواطف تضافرت مع بعضها بعضاً لذلك لم أستطع أن أتبين بوضوح ظاهرها – كل ما استطعتُ فهمه هو أنها عقبة فحسب؛ وفهمتُ تماماً أن معنى هويتي لا يمكن أبداً أن يثبت بواسطة الشهود في المحكمة وفي الوثائق الشرعية، بل إنه لغز محيّر بالنسبة إلى نفسي ذاتها، ولذلك أجد أني متعلق تعلقاً عميقاً بذاتي، فلو عرفتُ نفسي بالكامل، لعريتها تماماً لأحقق حالة روحية أسمى من الهناء والسعادة.

بدأ وجه بيمالا يشحب تدريجياً بعد لحظات من جلوسها على المقعد، لقد أدركتْ وأحسَّتْ في أعماق قلبها أنها قد تفادت أزمة، وفي لحظات عاطفية، قد

مرَّ النجم المذنب لكنه تجنبها عدا ذنبه المتقد الذي لفحها فأربك وعيها وشعورها لفترة من الزمن. وكي أساعدها على استعادة رباطة جأشها والخروج من هذا الذهول، قلتُ لها:

- «هناك عقبات حقيقية تعترضنا، لكن بدل من أن ننوح ونندب عليها، دعينا نواجهها وننتصر عليها، ما رأيك يا ملكتي؟»

سعلت بيمالا سعلة خفيفة لتطلق أوتار حبالها الصوتية وردَّت بكل بساطة بكلمة نعم. فقلتُ لها:

- «لنضع خطة نستطيع من خلالها معرفة كيف يمكننا أن نبدأ بالعمل»

فأخرجتُ من جيبي بعض الأوراق وقلماً وبدأتُ بمناقشة المسألة وكان أول بند فيها هو أن نخصص جزءاً من عملنا لننشط بين الشبان الذين عادوا من كالكتا كي نضمهم إلى مجموعتنا، لكن بيمالا قاطعتني قبل أن أنهي حديثي قائلة:

- «دع هذا الآن سانديب بابو سأعود في الساعة الخامسة، وعندها سنناقش هذا الموضوع بالتفصيل». ثم أسرعت خارجة من الغرفة.

فهمتُ تماماً أنها رغم محاولتها تمالك أعصابها لم تكن قادرة على التركيز ولا على استيعاب كلامي. ربما ينبغي عليها أن تخلو بنفسها لفترة من الزمن وتعيد ترتيب أفكارها، أو أنها بحاجة لأن ترقد في السرير وتطلق العنان لدموعها. بعد أن غادرت بيمالا الغرفة بدا جوها ينتعش وكأنه غدا أكثر سكراً ونشوة من ذي قبل، تماماً كما لو أن السحب في السماء تورد متوقدة بغزارة ألوانها لبرهة من الزمن بعد مغيب الشمس، كذلك قلبي كان مشتعلاً ناراً بعد ذهاب بيمالا، شعرتُ كما لو أني تركتُ اللحظة المصيرية الحاسمة تفلت مني، يا لهذا الجبن! فهي عندما رأت ترددي الغريب ربما شعرت بالازدراء وذهبت، إنها على حق فلا يمكنني أن ألومها.

بينما كان دمي يرتعش من شدة انفعالي، جاء خادم ليعلمني بقدوم «آموليا» الراغب بمقابلتي. شعرتُ في البدء أنني غير راغب في مقابلته لكنه دخل الغرفة قبل أن أقرر ما سوف افعله. نقل لي كل أخبار المعركة حول الملح والسكر والملابس.

تحرر جو الغرفة من الانفعال والنشوة بأسرع من البرق!. ظننتُ نفسي أنني أستيقظ من حلم، فاستجمعتُ قواي استعداداً للمضي إلى ساحة المعركة مع التوسل إلى إله الحرب.

كانت الأخبار كلها أخبار التجار المستأجرين عند هاريش كوندو والذين جلبوا بضائع بغية بيعها في السوق وأنهم جميعهم قد سلَّموا بالأمر وانضموا إلينا. حتى موظفو نيكهيل من الباعة كانوا يناصروننا سراً وأصبحوا من زمرتنا، يشدون الحبال ويسحبونها من الداخل. كما أن تجار «مارواريس[١]» قد عرضوا رشوة كي يُسمح لهم ببيع بضائع بريطانية وإلا سيقعون في خسارة كبيرة تؤدي بهم إلى إعلان إفلاسهم. أما بعض التجار الآخرين من الفئات المختلفة فقد استمروا على موقفهم رافضين الخضوع.

وكان أحد الفلاحين قد اشترى لأطفاله بعض الشالات الألمانية الرخيصة، ومضى بها إلى بيته فاستوقفه فتى من فصيلنا وانتزع منه هذه الشالات وأحرقها كلها. ما أثار موجة من الصراخ والبكاء، وتفاقم الأمر حتى رحنا نسترضيه بأن نشتري له بدلاً عنها أصوافاً محلية. لكن أين نجد أصوافاً محلية رخيصة الثمن يكون باستطاعتنا شراؤها؟ لم أتمكن من العثور على شالات محلية ملونة - وفي حقيقة الأمر ليس لدي القدرة المالية لأشتري له شالات كشمير... ذهب الرجل إلى نيكهيل شاكياً، فنصحه باللجوء إلى القانون أي برفع قضية ضد الفتى الذي حرق له شالاته. لكنَّ بعضاً من موظفي نيكهيل تكفلوا بإعاقة القضية بحيث لن تؤدي إلى نتيجة. في الواقع كان المحامي وكيله في صفنا.

المشكلة الحقيقية في هذا الموضوع هي أننا لن نستطيع أن نتدبر المال إذا كان علينا في كل مرة أن نعوِّض الألبسة المحروقة بألبسة محلية، وفوق ذلك ندخل بعدها في قضية جزائية، من أين يمكننا أن نتدبر كلفة هذه الأمور كلها؟

---

(١) Marwaris

والغريب في هذه المسألة أن هذا الإتلاف للبضائع الانكليزية زاد من الطلب عليها وازدهرت تجارتها. وقد سمعتُ قصة كالأسطورة عن تاجر اسمه «نواب» الذي كان ينتقل من غرفة إلى غرفة في قصره يكسر الثريات، فقط لأنه كان يتلذذ برنين الزجاج المكسور، فازدهرت فعلياً تجارة بائعي الثريات في ذلك الوقت.

القضية الثانية كانت أن الأصواف المحلية الرخيصة لم تكن متوفرة في الأسواق. وكان الشتاء على الأبواب – فهل ينبغي علينا أن نتشدد في مقاطعة الشالات الانكليزية والستر وأصواف المرينوس[١] البيضاء النفيسة والمغزولة من الغنم الاسباني، أم نتركها تباع ما دام لا يوجد أصواف هندية أنيقة ورخيصة؟

فقررتُ أخيراً أنه من غير المعقول أن نقدم مكافأة من الملبوسات المحلية إلى أولئك الذين صودر منهم ما اشتروه من ملبوسات انكليزية. فهم المقصودون بالعقوبة لا نحن، بل ينبغي علينا أن نحرق محصول الذين يلجؤون إلى القضاء لرفع قضية ضدنا، لا أن نتسامح معهم. فقلتُ:

- «لماذا تبدو هكذا مذعوراً يا آموليا؟ إنني لا أجد متعة كبيرة في إضاءة الكون عن طريق إحراق ممتلكات المزارعين، لكن في نهاية الأمر إنها الحرب، فإن كنتَ خجولاً متردداً تخاف من إيقاع الأذى بأي شخص كان اتخذ القلم بدل السيف وتفرغ للاعتناء بنفسك وتوجّه للانشغال بأمور رومانسية لطيفة، اغمر نفسك في حب «رادها» التي يغمى عليها في كل مرة تسمع صوت الحرف «ك».

لكن وماذا عن أمر الأصواف الانكليزية؟ مهما ستكون المتاعب التي يمكن أن نواجهها، فإننا لن نقبل بها. كما أننا لا يمكن أن نقبل بتسوية أو بأي حل وسط مع أي شيء أو شأن انكليزي. ففي الماضي عندما لم يكن هناك أرواب ودثر انكليزية متعددة الألوان، كان الفتى الريفي يمضي شتاءه بطبقتين

---

(١) merinos.

من الملابس القطنية يدثر بها نفسه - فليستمر على هذا المنوال. أعرف أنها قد لا ترضي ذوقهم لكن هذا ليس وقت التفكير بالهوى والنزوات.

كان علينا ان نضمن تواطؤ بعض ملاَّحي المراكب بالقوة أو بالخداع، فهم الذين كانوا يجلبون البضائع إلى السوق. كان أكبرهم «ميرجان» – الذي رفض أن يتراجع أو يخفف من صلابة موقفه. فسألتُ مدير الأعمال «كولادا» إن كان بإمكانه أن يغرق مركب «ميرجان» فقال إنها مهمة سهلة جداً بالنسبة إليه لكنه يأمل ألا يُعتبَر مسؤولاً عن هذا العمل فيما بعد. فقلتُ له:

- «إننا لا نلعب في الماء، ينبغي علينا ألا نعمل بدون تنظيم وبشكل غير محسوب وألا نتهاون بالمسؤولية، لكن إن حصل ثمة تهديد لأحدهم فإني مستعد للمواجهة ولاتخاذ قضيته على عاتقي مع تحمّل أعبائها..»

بعد انتهاء السوق الأسبوعية، كان مركب «ميرجان مربوطاً في المرسى على الضفة، ولم يكن فيه أحد حيث كان الربّان غائباً عن الأنظار؛ فدبَّر مدير أعمالنا «كولادا» حفلاً تراثياً يدعى الـــ «جاترا[1]» تُروى فيه أساطير الأقدمين، ودعا إليه الجميع. وكان المركب قد فكَّ من مرساته في تلك الليلة واُحدث فيه ثقباً ووضِعَ فيه رزم ضخمة من النفايات ودُفعَ به إلى وسط النهر حيث غرق.

فهم «ميرجان» كل شيء، فجاءني باكياً مسترحماً وقال:

- «لقد كنت مخطئاً يا سيدي، لكن الآن...» فسألته:

- «كيف أدركت خطأك بهذه السرعة وبهذا الوضوح الآن؟» لم يجب على سؤالي لكنه تابع قائلاً:

---

(١) جاترا jatra: تمثيل مسرحي في الهواء الطلق، حيث تقع خشبة المسرح في وسط الجمهور الذي يجلس في الجهات الأربعة، ويتم فيه عادة تقديم أدوار تاريخية وأساطير خرافية.

- «لا يساوي هذا القارب أقل من ألفي روبية يا سيدي. إنني أعرف الآن أن خطيئتي عظيمة، لكن لو بإمكانك مسامحتي عن هذه الغلطة للمرة الأخيرة...»

وركع أمامي وحضن ساقي بذراعيه. فقلتُ له أن يعود إليّ بعد حوالي عشرة أيام. لو كان باستطاعتي أن أعطي هذا الرجل ألفي روبية على الفور لاستطعتُ أن أشتري ولاءه إلى الأبد، وتكون مصلحة كبيرة لنا إن استطعتُ ضمّه إلى مجموعتنا. أدركتُ حينها أننا لن نتمكن من تحقيق نتائج ممتازة دون الحصول على مبلغ مناسب من المال.

حالما دخلت بيمالا غرفة الجلوس في ذلك المساء، نهضتُ لاستقبالها وقلتُ لها:

- «يا ملكتي، كل شيء جاهز تقريباً، انتصارنا ليس بعيد المنال، لكننا بحاجة إلى المال تحديداً في الوقت الحاضر».
- «مال؟ كم يلزمنا؟»
- «ليس مبلغاً كبيراً، لكن ينبغي علينا أن نحصل عليه بأية وسيلة ممكنة».
- «قل لي كم؟»
- «خمسون ألف روبية تكفي في الوقت الحاضر».

من المؤكد أن بيمالا قد شعرت بالرعب عند سماع قيمة المبلغ، لكنها كتمت خوفها ولم تظهره. فكيف يمكنها التسليم بأنها غير قادرة على عمل شيء من اجل القضية؟ فقلتُ لها:

- «يا ملكتي، الأمر يعود لك لتحقيق المستحيل. إنك فعلت ذلك سابقاً، حبذا لو أستطيع أن أبين لك مدى ما حققته من إنجاز لكنت علمت قيمة أعمالكِ. لكن ليس الوقت مناسباً لذلك الآن، ربما سأقوم بشرحه لك يوماً ما. أما الآن فإننا نحتاج نقوداً».
- «سأوفره لك».

وخمنتُ في نفسي أنها قررت بيع مجوهراتها كي تحصل على المال من أجلنا. فقلتُ لها:

- «لكن ينبغي عليك ألا تفرِّطي بمجوهراتك الآن - إذ لا ندري متى نحتاج إليها في المستقبل».

فحدَّقت في وجهي بانشداه دون أن تعبر عن شيء. فقلتُ لها:

- «ينبغي أن تحصلي على هذه النقود من صندوق زوجك الحديدي».

فبدت أكثر ذهولاً لسماع هذا الكلام. وقالت بعد فترة قصيرة:

- «كيف يمكن لي أن آخذ هذا المال؟» فقلتُ لها:

- «أليس مال زوجك هو مالك أيضاً؟» فأجابت بإحساس قوي وبكبريائها المجروحة:

- «كلا»، فقلتُ لها:

- «إن لم يكن مالك فهو ليس ماله أيضاً هذا المال هو ملك الأمة. لقد سلب نيكهيل الأمة وحرمها من هذا المال وهي في أمسّ الحاجة إليه».

فسألتْ متوسلة:

- «كيف يمكنني أن أحصل على هذا المال؟»

- «سرقة أو احتيالاً، ينبغي عليك أن تقومي بهذا العمل، وتعيدي المال لأصحابه الشرعيين. باندي ماتارام! اليوم سيفتح باندي ماتارام الصناديق الثقيلة الوازنة، وسوف يهشم متاريس خزنته الفولاذية المحصنة ويمزق قلوب الذين باسم الدين لا يستجيبون لقوة الأمة الكبيرة. لماذا لا ترددين من بعدي يا ملكتي: باندي ماتارام – باندي ماتارام!»

نحن رجال وملوك، لذلك سوف ننتزع الأرباح ضريبة. منذ ولادتنا ونحن ننهب هذه الأرض، وكلما ازدادت مطالبنا منها ازدادت خضوعاً وتسليماً لنا. فمنذ العصور البدائية، قطع الرجال الأشجار، وقطفوا الثمار، وحفروا في الأرض واكتشفوا بواطنها، واصطادوا الحيوانات من طيور

وأسماك وذبحوها، واستمرَرْنا نطلب ونجني وننتزع من أعماق الأرض ومن قاع البحر أو حتى من أنياب الموت. نحن جنس الذكور، لم نوفر أي صندوق كنز في خزينة الله، لقد كنا على الدوام ننهبُ ونختطف الأشياء اختطافاً. وتبتهج الأرض بتلبيتها حاجات الذكور، وبإرضائها ليلاً نهاراً هذه المطالب المتعنتة، حتى أصبحت أكثر جمالاً، وأكثر خصوبة، وأعظم شاناً. ولولا ذلك، لبقيت تائهة في القفار والصحاري ولم تكن لتعرف نفسها ماذا تكون، ولبقيت كل أبواب قلبها مغلقة، وظل الألماس مستوراً في منجمه ولظلت اللآليء في محارها لا ترى ضياء النهار.

أمطنا اليوم اللثام عن الإمكانية الكامنة في نسائنا بقوة متطلبات حاجاتنا الضرورية. لقد حققن عظمتهن ومداهن باستسلامهن المتواصل لنا، وميّزن أنفسهن في هذه المسيرة بتسليم كل ماسات فرحهن ولآليء أحزانهن إلى خزينتنا الملكية. هناك تمايز في الطبائع بين الجنسين، فبالنسبة إلى الرجال، أن تأخذ هو أن تعطي حقاً، بينما بالنسبة إلى النساء، أن تعطي هو ربح صادق حقيقي.

إن مطلبي من بيمالا كان مطلباً كبيراً. لقد أقلقني هذا الموضوع في بداية الأمر وشعرتُ بشيء من التحرج لكن أليس من طبيعتنا الثانية نحن الذكور أن نكون في صراع غير مبرر مع أنفسنا؟ لقد شعرتُ في نفسي أنني كنتُ مزعِجاً بعض الشيء معها وأني كلفتها بمهمة عسير تنفيذها، لدرجة عزمتُ فيها على أن استدعيها ثانية لأقول لها إنه ليس عليها التورط في كل هذه المتاعب، وأنني لا أريد تشويش هدوئها النفسي وتعكير صفو حياتها، ناسياً في ذلك الحين أن الرجال يحققون المكاسب والانجازات بنجاح لأنهم، في سبيل أن يجعلوا من حياتهم وجوداً له شأنه ومستحق الجهد، لا يتوانون مطلقاً عن خلق الاضطراب والقلق بين غير المنجزين. لو أننا لم نجعل النساء يبكين منذ العصور التاريخية، لبقيت آلامهن مكبوتة أبد الدهر. الرجال معنيون بإرضاء ومكافئة كل شيء في هذا الكون وذلك بجعله يبكي - وإلا، لماذا تكون أيديهم بهذه القوة وقبضتهم بهذه الصلابة؟

لقد كانت بيمالا تتوق من أعماق روحها أن اطلب منها – أنا سانديب – مطلباً عظيماً، أو أن أدعوها حتى أن تضحي بحياتها، وإلا كيف يمكن لها أن تسعد بغير ذلك؟ لقد كانت تنتظرني طوال كل تلك السنوات لأنه لم يكن لديها الفرصة السانحة للبكاء. لقد كانت حياتها مفعمة بالسعادة لمدة طويلة لكن حالما رأتني، تظلل أفق قلبها بسحب زرقاء كثيفة تنبيء بقرب انهمار عذابات غزيرة تروي حياتها. فلو أني تعطفتُ وكبحت تدفق دموعها، لما كان العالم بحاجة إلى أمثالي.

لقد كنت متردداً بعض الشيء لأن مطلبي كان مطلباً مالياً. ولأن واقع الحال هو أن المال يكون دوماً ملك الرجال، يصبح طلبه محرجاً ويبدو كأنه شيء من التسول والاستجداء. لذلك كان عليَّ أن أرفع من قيمة المبلغ المطلوب. لكن مبلغ ألف أو ألفين من الروبيات سيبدو كسرقة تافهة حقيرة، بينما مبلغ خمسين ألفاً فهو مبلغ محترم تبحث عنه أفظع العصابات الهندية.

إلى جانب ذلك، ينبغي أن أصبح غنياً جداً. كم من رغباتي أعيق تحقيقها في كل خطوة ومرحلة من حياتي بسبب عدم توفر المال؟

ولو كان قدري ظالماً فحسب لسامحته، لكنه كان مؤلماً ومضحكاً في الوقت نفسه، إذ من غير المقبول لشخص مثلي أن يحتار ويقلق ذهنه بشأن تسديد أجرة المنزل! أو أن يضطر إلى القسط في النقود عند شراء تذكرة سفر بالقطار وبالدرجة الثانية. مهما كانت الظروف ومهما توجب من أمور فإن ذلك لم يكن لائقاً بحقي.

أستطيع فهم ذلك تماماً بالنسبة إلى شخص مثل نيكهيل، فقد ورث عن أجداده أملاكاً شاسعة زائدة عن حدها الطبيعي، فلو كان فقيراً لناسبه ذلك أكثر هو وأستاذه الماسترموشه، كي يظلا سعيدين بالمضي قدماً بذلهما وبؤسهما.

وأخيراً سأتلمس بيدي مبلغ خمسين ألف روبية لأول مرة في حياتي، وسأصرفها خلال يومين لا أكثر من أجل رفاهيتي ومن أجل خدمة البلاد أيضاً. لدي رغبة كبيرة أن أرى نفسي في المرآة وأنظر إليها كرجل غني، طارحاً عني مظهر الرجل الفقير ولو لبضعة أيام.

لكني غير متأكد حقيقة أن باستطاعة بيمالا تدبر أمر خمسين ألف روبية بهذه السهولة. ربما قد تستطيع في النهاية أن توفر لنا مبلغ ألفين أو أربعة آلاف روبية فقط لا غير. لكن لا بأس حتى هذا المبلغ يفيدنا، فالإنسان الحكيم الزاهد يتنازل عن نصف ثروته[١]. لكن طالما المبلغ الذي أتنازل عنه ليس طوعياً، فإن هذا الحكيم (الباندیت) البائس ينبغي عليه أن يكون سعيداً لأنه تخلى عن مبالغ أكثر بكثير من التي ساوم عليها، فهو في الواقع قد تخلى عن مجموعها تقريباً.

لقد كتبتُ هذه الخواطر والحسابات إلى هذا الحد – وكان هذا الكلام كله تأملات شخصية. آمل أن أتمكن من الكتابة في هذه الأمور خلال أوقات فراغي لكن بطريقة أكثر تركيزاً. أما الآن فليس لدي الوقت الكافي لأقوم بذلك. لقد أرسل مدير أعمالنا رسالة صغيرة مفادها انه عليّ أن اذهب إليه على الفور. لقد سمعتُ من أحدهم أن ثمة بلبلة قد حدثت هناك.

قال لي مدير أعمالنا إن رجلاً من بين الذين ساعدوا بإغراق المركب كان مشتبهاً به من قبل الشرطة، لأنه سجين سابق ومطلوب القبض عليه. لكنه داهية وسيكون من الصعب انتزاع أي اعتراف منه. ومع ذلك ينبغي أن نكون حذرين فلا ندري ما يمكن أن يحصل، ولسنا متأكدين من أي شيء، قد لا يستطيع مدير الأعمال أن يتدبر أية وسيلة لمصلحته، خصوصاً وأن نيكهيل كان منزعجاً من القضية بمجملها. وهددني مدير الأعمال بقوله إنه إن حصلت له متاعب بهذا الشأن فسوف لن يسكت عني بل سيجعلني أدفع الثمن. فسألته:

- «ما هو الشرك الذي ستستخدمه للإيقاع بي؟» فقال المدير:

- «في حوزتي رسالة منك وثلاث رسائل من آموليا».

---

(١) استعان سانديب بالحكمة السنسكريتية، "Ardham tyajati pandita" ليثبت أنه كالباندیت الزاهد قانع وراغب في أن يتنازل عن نصف ما طالب به.

أدركتُ الآن لماذا أرسل لي المدير رسالة عاجلة وطلب فيها مني الرد السريع الذي لم يكن له أي ضرورة. إنني أتعلم أساليب ومناورات جديدة. كان المدير واثقاً بأنني طالما أغرقتُ مركب العدو، فبإمكاني أن الحق الضرر بصديق. لكان احترامه لي زاد لو أني أجبتُ على رسالته شفهياً!

والمسألة الهامة في هذه القضية أنه ينبغي علينا أن نرشو الشرطة فإن لم تنته المسألة عند هذا الحد، ينبغي علينا أن نعوِّض ميرجان عن مركبه الذي أغرقناه. وتبين لي الآن وبوضوح تام أن جزءاً كبيراً من مال الشبكة التي نقودها سيذهب إلى جيوب مدير الأعمال، لكن ينبغي عليَّ أن أتجاهل هذا الموضوع في الوقت الراهن.

ظاهرياً، كلانا يصرخ «باندي ماتارام» بأعلى صوته.

إن الأدوات والوسائل التي استخدمناها بعملنا مليئة بالثغرات حيث يهدر بسببها أكثر مما يبقى لنا. وضميرنا ضمير مستتر، لكنه راسخ بقوة في صميم كياننا. لذلك غضبتُ بشدة في المواجهة الأولى مع مدير الأعمال، وكدتُ من تأثري بهذا الموضوع أن أكتب في يومياتي عن خداع واحتيال المواطنين. لكن ينبغي عليَّ أن أشكر الله لأنه أعطاني ذهناً واضحاً وبصيرة تزيل من أمامي الغموض داخلياً وخارجياً. ربما قد أخدع الآخرين إنما لا يمكن أن أخدع نفسي. ولذلك لم أستطع الاستمرار في غضبي. إذا اتبع المرء علم الحقيقة فينبغي عليه أن يعرف أنه مهما كانت الحقيقة كاملة ومهما كان كنهها فهي ليست لا خير ولا شر. لأنه بعد أن تتشرب الأرض كل المياه التي هي بحاجة إليها، يتحوَّل ما تبقى من الماء إلى بركة، والأرض تحت أناشيد «باندي ماتارام» سوف تمتص بعضاً من الماء. فأنا والوكيل، كلانا سوف ينال مطلبه من هذه المياه، وما تبقى بعد ذلك سيكون لـــ «باندي ماتارام». باستطاعتي أن ألعن هذه الأمور وأقول إن ذلك هو الخبث بعينه، لكنها أمور

ينبغي أن تقبل كما هي لأنها الحقيقة. ففي كل عمل عظيم في العالم هناك طبقة من الوحل ومثل هذا الفساد موجود أيضاً في قاع المحيطات.

إلا أنه قبل الاندفاع في أي مسعى عظيم، على المرء أن يأخذ بحسابه ما هي متطلبات الوحل. فمدير الأعمال سيحدد حقوقه ومطالبه، وأنا أيضاً لي احتياجاتي، التي ينبغي أن تندمج في حساب القضية الكبرى. لأنه ليس كافياً أن تطعم الحصان، بل عليك أن تشحم دواليب العربة أيضاً.

نحن بحاجة للمال بأي ثمن وتحت أي ظرف. ولا يمكننا الانتظار إلى أن يصلنا مبلغ خمسين ألف روبية. ينبغي أن نفعل المستحيل للحصول على أي مبلغ مهما كان قدره. فالضرورات تبيح المحظورات، ونحن واقعون تحت ضغط معين لذا ينبغي ألا نفكر بالعواقب الآن، ولو أن العاجلة قد تذهب بالآجلة أي ربما الخمسة آلاف روبية اليوم تنهي إمكانية الحصول على الخمسين ألفاً غداً....

لذلك قلتُ لنيكهيل إن الذين يسيرون في درب التنازل ليس عليهم أن يكبحوا أي نوع من أنواع الجشع، بينما الذين هم بخلاء عليهم أن يفعلوا ذلك في كل خطوة.

لقد تنازلتُ عن خمسين ألف روبية، بينما ليس على نيكهيل ولا على الماسترموشه تشاندرانات بابو أن يفعلا ذلك.

من الانفعالات الستة[1]، الانفعالان الأولان والانفعالان الأخيران هي انفعالات تخص الرجال، بينما الاثنان الباقيان فيخصّان الجبناء. لو لم يكن هناك بخل أو افتتان يلوِّن رغباتي، فإنه الإحباط والإفلاس. أولئك الذين لم يكونوا قادرين على التركيز على الحياة الحاضرة: «هنا والآن» قد سمعوا دوماً عزف نايات العصور الأخرى، فهم مثل الحب - الوحيد المهجور

---

(١) في الفلسفة الهندية الفيدانتاس Vedantas، التي هي انفعالات الشهوة والغضب والتكبر، والجشع، والافتتان، والحسد، وهي معروفة أيضاً على أنها أعداء داخلية للإنسان.

لشاكونتالا[١] لا يستطيعون أن يسمعوا نداء الضيف الذي عندهم وأضاعوا فرصة لقاء الزائر البعيد المنتظر الذي يرغبون به.

المرء الذي يكون وحيداً، فحتى لو أن زوجته وطفله قريبان منه فهما ليسا له لذلك فإن مثال موهامادكار[٢] أو البيزر الذي يكسر الأوهام، هو مناسب لأولئك الذين ينساقون وراء شهواتهم.

في ذلك اليوم ضغطتُ على يد بيمالا لغاية في نفسي، وتوقعتُ أن تجد هذه اللمسة لها صدى عندها، كما أن رنينها لم يتوقف إيقاعه في نفسي أيضاً. ينبغي أن نحافظ على حيوية هذا النبض، وإلا تفسده رتابة الاعتياد. لم تتح لبيمالا حتى الآن فرصة التساؤل «لماذا» بعد أي شيء أقوله. وأنا مشغول جداً، ففي الوقت المتبقي، سأشرب فقط زبد كأس هذه العاطفة، فإن أنا شربتُ الكأس كله، سوف يسبب لنا متاعب مبكرة. عندما تتضح الأمور ويصبح الوقت مواتياً سوف لن أمنع نفسي عنه. يا لك من شخص انفعالي شهواني، أقلع عن جشعك، اكبحه، سيطر على ولهك سيطرة تامة، وأعزف لنجاحك بأدق الأوتار.

لقد ارتفعت وتيرة نشاطاتنا، ونشرت مجموعاتنا شبكات عملها في المنطقة، لكن بعد أن بحَّت أصواتنا معلنة أننا وكل الطوائف أخوة، بدأنا ندرك بأننا لن نستطيع أبداً أن ننتخب من المجموعات الأخرى بأي طريقة كانت، أو نزعم بأن يقدموا لنا ترضية ما. ينبغي علينا في هذه الحالة أن نقمعهم بشدة،

---

(١) كانت شاكونتالا Shakuntalas منشغلة بشوقها ولهفتها لحبيبها دوشييانتا لدرجة إنها غفلت فيها عن حضور مهاراشي دورباشا شخصياً فكرهها دورباشا ولن يعترف بها أبداً كما أنها لن تحظى بقرب حبيبها دوشييانتي فهي بذلك أضاعت الفرصتين معاً.

(٢) أورد سانديب على سبيل المثال العبارات من نشيد «موهامودكار» حيث يعود تأليفه إلى فيلسوف من القرن الثامن: سان شانكاراشاريا saint Shankaracharya مؤسس فلسفة تؤكد على حاجة الإنسان إلى الانعزال، حتى ضمن العلاقات الأولية بين الزوج والزوجة، أو بين الأب والابن.

كما ينبغي عليهم أن يعلموا أن القوة هي بأيدينا ونحن السادة هنا. سوف لن يعيرونا انتباهاً في الوقت الحاضر، ويكشرون عن أنيابهم سخرية منا، لكن سيأتي اليوم الذي سأجعلهم يرقصون كالدببة المروضة على الأنغام التي سأعزفها لهم.

فاعترض نيكهيل قائلاً:

- «إن كانت فكرة وحدة الهند فكرة حقيقية فجميع طوائفها هم جزء ضروري منها». فأجبته:
- «هذا صحيح لكن ينبغي على الجميع أن يعرفوا مكانهم، وينبغي علينا أن نلزمهم به قسراً، وإلا فسوف يقومون بحركة تمرد». فسأل نيكهيل:
- «هل تريد أن تلغي المعارضة لتخلق النزاعات؟» فقلتُ له:
- «ما هي خطتكَ؟» جواب نيكهيل:
- «هناك طريقة واحدة ممكنة لإنهاء المعارضة».

إنني أعرف آراء نيكهيل فهي تنتهي كلها بإسداء نصائح غير مطلوبة، كالحكايات التي يكتبها الحكماء. أما ما هو مثير للاستغراب فإنه بعد أن يروي هذه الخطب الأخلاقية لمدة طويلة من الزمن، فهو لا يزال يؤمن بها حتى اليوم. فلا عجب عندما أقول أن نيكهيل ولد تلميذ مدرسة. فضيلته الوحيدة وعظمته هو أنه صادق وصريح بالكامل، مثل «تشاند» التاجر[١]، إنه تلميذ الوهم، لذلك عندما تلدغه أفعى، فهو لن يسلم باللدغة حتى لو أدت به إلى الموت. المشكلة بالنسبة إلى أولئك الناس بمعتقدهم أن الموت ليس آخر اختبار للحياة. لقد أغمضوا أعينهم وقرروا أن هناك شيئاً ما ما ورائياً وأنه أعظم من الموت نفسه.

---

(١) تقول أسطورة "شاند سوداغار Chand Saudagar" بأنه رفض عبادة "ديفي مانوشا Devi Manosha" الولية نصيرة الأفاعي وصيادي الثعابين، رغم أنها لعنته وواجه بسببها العديد من المصائب. وأخيراً هدته كنته ليكرس نفسه للإلهة، فبدأت بعد ذلك ممارسة عبادة مانوشا بوجا Manosha Puja.

كنتُ أفكر منذ مدة بعيدة بخطة لم أعلن عنها، ولو تمكنتُ من وضعها موضع التنفيذ لأشعلت الثورة في طول البلاد وعرضها. لن يستفيق الشعب في بلادنا إلا إذا استطاع أن يرى تجلياً واضحاً ومنظوراً للتعبير عن صورة الأمة - الدولة. نحن نحتاج إلى رمز يعبر عن سيادة الأمة ويجعل منها معبوداً. تأثر أصدقائي بهذه الفكرة واقترحوا أفكاراً يتمثلون بها الصورة وكيفية نحتها. فقلتُ لهم إن الأمر لن يصلح بهذه الطريقة أي بتخيل رمز جديد بل ينبغي علينا أن نأخذ صورة معبودة تراثية ونحولها إلى معبودة وطنية فتتجه عبادة الشعب نحوها فائضة في سياق العادات القديمة. ينبغي علينا أن نحاول إعادة توجيه تيار إيماننا باتجاه البلاد عبر الدرب نفسه.

وكان لي مع نيكهيل نقاش حاد منذ بضعة أيام حول هذا الموضوع، حيث قال إنه:

- علينا ألا نمزج الحقيقة بالوهم وألا نخلط بين الوسيلة والغاية. فقلتُ:
- «هذه الرهافة هي للناس المختلفين المتميزين[١]. أما الناس العاديون لا يمكنهم أن يعيشوا دون أوهام، وثلاثة أرباع العالم هم عاديون. لهذا تقام الآلهة في كل بلد للإبقاء على الإغواء والتجربة وكي يبقى الوهم حياً لا يموت – ففي نهاية الأمر الكائنات البشرية تعرف نفسها جيداً». فقال نيكهيل:
- «الله موجود للتغلب على الإغواء وإبليس هو الذي يدعمه».
- «حسناً، فلنفترض جدلاً انه إبليس – لكن يبدو أن لا شيء يتقدم إلى الأمام بدونه. إنه أمر مؤسف فبالرغم من أن أوهامنا قد بقيت سليمة كما هي، بل أكثر من ذلك فقد نمت وازدهرت لأننا غذيناها باستمرار، لكننا غير قادرين على الاستفادة منها. انظر إلى البراهمة،

---

(١) يورد سانديب هنا أهزوجة سنسكريتية الـــ "ميشتاناميتاريجانا Mishtannamitarejana" تغنى في احتفالات الأعراس الهندية وردت في الـــ "مانو سامهيتا Manu Samhita" والتي تحدِّد مسؤوليات كبيرة على العروس والعريس وأبويهما، لكن الآخرين هم مجرد ضيوف ليستمتعوا بحفل الزفاف.

فنحن نعطيهم الكثير من الهبات ومال الإحسان، ونلمس التراب من تحت أقدامهم، وبدل أن نستفيد من هذا العمل، نترك الفرصة تذهب في مهب الريح؛ إن نحن أعطينا للبراهمة الحرية في ممارسة قدراتهم، يمكننا تحقيق المستحيل؛ ففي هذا العالم تجد مخلوقات لا يمكنها إلا أن تتذلل وتبقى تحت أقدام مخلوقات أخرى وهي أكثر عدداً من مجموع الباقين، وهذه المخلوقات لا يمكنها أن تقوم بأي عمل إلا إذا اتخذت من غبار أقدام الآخرين غطاءً لها، سواءً رُكِلت أم بوركت؛ الوهم هو قوة عظيمة تمكننا من أن نستخدمها. لقد احتفظنا بهذه القدرات راكدة في أجهزتنا كخط دفاع احتياطي، لكن أما حان الوقت لاختبارها، إذ كيف يمكننا أن نهمش مثل هؤلاء الناس؟»

لكن من الصعب جداً إقناع نيكهيل وجعله يرى المعنى الحقيقي لكل هذه الأمور. الحقيقة هي لا شيء لكنْ هناك رأي مسبق منحرف في أسلوب تفكيره، كما لو أن الحقيقة هي واقع موضوعي! لقد حاولتُ أن أشرح له مراراً وتكراراً أنه حيث تكون الحقيقة زائفة، فلا مفر من أن يكون الزيف هو الحقيقة. لأن بلادنا فهمت هذا الموضوع تماماً فيمكنها أن تعلنه للأشخاص الذين لا يعلمونه. فالذي يضلّ عن هذا الزيف يسقط بعيداً عن الحقيقة. إن صورة الأمة تفعل فعلها الصحيح في الشخص عندما يقبل رمز الأم – الربة على إنه حقيقة.

نحن محدودون بحكم طبيعتنا وبالأحكام السلفية التي نحملها ونعتقد بشعار الأمة المقدس أكثر من الأمة نفسها. وعندما تصبح هذه الحقيقة واقعاً معلوماً فالذين يريدون أن يحققوا أي إنجاز سيحتفظون بهذه الحقيقة في أذهانهم عندما يعملون.

ثار نيكهيل بشكل غير متوقع وقال:

- «لقد فقدتَ القدرة على تكريس نفسك للحقيقة ولذلك فأنتَ لا تزال تتأمل ببعض النتائج الرائعة بأن تهبط لك من السماء هبة. بينما

لقرون خلت ظلت الأمة ترقد نائمة والآن عليها أن تنجز ما عليها بكل طاقتها، إنك تؤله الأمة وتنتظر منها أن تهبك البركة». فقلتُ له:

- «علينا أن نحقق المستحيل، لهذا السبب يصبح من الضروري أن نؤله الأمة». فقال نيكهيل:
- «هذا يعني أن روحك لن تهدأ بإنجاز ما هو ممكن. وأنت تتوقع أن كل شيء قائم سيبقى على حاله ثابت لا يتغير، لكن النتائج فقط ستكون من المعجزات والخوارق». فقلتُ له:
- «اسمع يا نيكهيل، أي شيء تقوله يصلح أن يكون نصيحة ومشورة قد نحتاجها في بعض مراحل حياتنا. لكن هذه الأفكار قد استنفذت أغراضها الآن. أستطيع أن أرى بوضوح أمام أعيني أن زرعاً لم أحرثه في حياتي قد أعطى اليوم ثماراً. فبأي قوة حصل ذلك؟ أليس لأنني قادر أن أعي بلادي على أنها إله في وجداني؟ على الأشخاص الموهوبين في يومنا هذا أن يعملوا جاهدين على إحياء هذه الأفكار وإعطائها شكلاً ملموساً، فمثل هذه المواهب لا تجادل بل تخلق. سأعطي الشكل الحقيقي لما تراه الأمة أنه صحيح وحقيقي في الوقت الحاضر.

سأذهب من بيت إلى بيت وأذيع على الملأ أن الإلهة ظهرت لي في أحلامي ودعت إلى القيام بمراسم العبادة. سنذهب ونقول للبراهمة إنهم عابدو الإلهة، وأنهم قد حصلوا على انتقامهم لأن العبادة كانت قد توقفت منذ زمن بعيد جداً. وتقول إنني أتفوه بأكاذيب؟ كلا! هذه هي الحقيقة، هناك الملايين من مواطني بلادنا قد انتظروا طويلاً حتى سمعوا هذا الكلام من فمي، وما أقوله هو الحقيقة بعينها. وإن استطعتُ أن أنشر هذه الرسالة سوف ترى النتائج الخارقة». فقال نيكهيل:

- «إلى متى سيطول عمري باعتقادك؟ مهما كانت النتائج التي باستطاعتك أن تنجزها للأمة سيكون لها بالطبع آثار ما، لكنك لن تكون قادراً على لمسها الآن». فقلتُ له:

- «أريد نتائج في الوقت الراهن، هي فقط النتائج التي أهتم بها وأسعى إليها».

فقال نيكيل:

- «أفضل أن أرى نتائج الغد لأن كسبها يتحقق جماعياً».

في الواقع، عند نيكهيل موهبة خاصة قد ورثها من البنغال وهي موهبة الخيال، لكن تضافرت معها نحلة اسمها علم الأخلاق وأظن أنها تسربت إليه من الخارج، واستحوذت على تفكيره وظلت ممسكة به في قبضتها حتى كادت أن تقتله.

ففي الهند عبادة «دورغا- جاكادهاتري» التي أدخلها البنغاليون، فأعطتهم هوية موحدة. إنني أستطيع القول بكل ثقة إن هذه الآلهة هي آلهة سياسية بامتياز. هاتان الربَّتان هما تجليات مختلفة للنعمة التي طلبها البنغاليون من الربَّة – الأمة خلال الحكم الاستعماري – كي يتمكنوا من الانتصار على أعدائهم؛ هل هناك جماعة أخرى في الهند كانت قادرة على إعطاء مثل هذا الشكل المرئي لعبادتها؟

الواضح أن قدرة نيكهيل على التخيل قد تلاشت تماماً. لهذا السبب قال لي بكل ثقة بالنفس:

- «هل تعلم، انه خلال الحكم الاستعماري، استخدم «الماراثا والسيخ» أسلحتهم الخاصة ببراعة، بينما سلم البنغاليون أسلحتهم متخلين عنها لآلهتهم، يرتلون أدعيتهم، منتظرين أن يشاهدوا نتائج خارقة للطبيعة؟ وبما أن الأمة لم تكن من الآلهة كانت النتيجة التضحية برؤوس الماعز والجاموس بهذه الأسلحة. الإله الحقيقي هو الإله الذي يسمو بالأمة إلى الأعلى، فنحن لن نحصل على نتائج صادقة وحقيقية إلا في اليوم الذي نبدأ فيه بالعمل لمصلحة البلاد».

المشكلة هي أنه عندما تكتب أقوال نيكهيل على الورق يبدو وقعها جيد، لكن أقوالي ليست معدة لتطبع على الورق - بل ينبغي أن تدمغ كالختم في

قلب الوطن بغرسها فيه بنصل معدني. فأقوالي ليست كالنظريات المدرسية في الزراعة، مكتوبة بحبر الطباعة بل هي متماثلة مع أمنيات المزارع، الممسك بقبضة محراثه بثبات يدفع به رسوخاً في عمق الأرض.

عندما رأيتُ بيمالا في المرة التالية قلتُ لها:

- «بعد دهور من الزمن وعندما ظهرتُ في العالم لأكرس نفسي لعبادة إلهة خاصة، هل يمكنني أن أؤمن بها من كل روحي وكل كياني حتى تتجلى لي في النهاية؟ فأنا لو لم أقابلك لما استطعتُ أن أرى الأمة كياناً واحداً. وقد قلت لكِ هذه الأمور مراراً، لا أدري إن كنت تفهمين ما أقصد من كل هذا الكلام. إنه من الصعب أن أجعلك تفهمين أنه بالرغم من أن الآلهة تبقى غير مرئية في عليائها، لكنها تظهر نفسها وتتجلى لنا على الأرض فقط».

نظرت بيمالا إلي نظرة استغراب وقالت:

- «لقد فهمتُ كلامك بوضوح تام، يا سانديب»، وكانت هذه المرة الأولى التي تناديني بها باسمي الحميمي مجرد من الألقاب «سانديب». فقلتُ لها:

- «كان أرجون يرى «شري كريشنا» على أنه سائق عربته، لكن ذات يوم رآه أرجون بصورته الكونية العظيمة، لقد رأى حينها الحقيقة كاملة. لقد رأيتُ جمال الكون في أمتي من خلالك، ورأيتُ قلادة من سبع سلاسل الغانج والبراهمابوترا تلتف حول عنقك؛ ورأيت في سواد عينيكِ المزينتين بالكحل حدود غابة محيطة بضفاف بعيدة لنهر داكن الزرقة. ويتمايل ساريكِ المقلَّم بألوان براقة مع النسيم، لقد رأيتُ نوراً وظلاً يتلألآن فوق حقول الأرز الخضراء، ورأيتُ مشيئتك القاسية كمشيئة أسد يلهث مدلياً بلسانه الأحمر في الصحراء تحت شمس أيار اللاذعة. وعندما تتجلى الربّة أمام عابديها بهذا الشكل الأعجوبة، سأنشر قضية عبادتها في كل أرجاء البلاد،

وعندها فقط تنهض البلاد بتجديد الحياة. سأنحت لك تمثالاً في كل معابدي. لكن الشعب كله لم يدرك بعد كل ذلك حق الإدراك. لذلك اتخذتُ قراراً بأنني سوف أدعو الأمة جميعها كي تشارك في عبادة الربة التي خلقتها بيدي، ولن يجرؤ أحد أن يشكك بها بعد الآن. أعطني البركة يا ربتي وامنحيني هذه القدرة!»

أغلقت بيمالا عينيها وظلت مفتونة ثابتة في مقعدها كتمثال نُحِتَ على الحجر نحتاً. ولو مضيتُ في كلامي أكثر من ذلك لتهاوت مغمى عليها. ثم فتحتْ عينيها واسعتين بعد فترة وجيزة من الزمن وقالت وهي شاخصة ببصرها وكأنها لا تزال غائبة عن الوعي:

- «أنتَ يا سالك درب الدمار، من ذا الذي يجرؤ على اعتراضك عندما تباشر في مشروعك مبحراً فيه إلى نهاية المسار. أستطيع التنبؤ أن لا أحد سيتمكن من تطويع أو قهر رغبتك المتأججة. سيضع الملك صولجانه عند قدميك، ويسارع الغني بفتح خزينته لمرضاتك، وحتى الذين لا يملكون شيئاً يقدمونه لك سيبذلون حياتهم في سبيلك؛ وسيجرف تيارك كل القوانين والتشريعات التي تميز الحق من الباطل. أنت مليكي، أنت بعد إلهي، لا أدري ماذا وجدتَ فيَّ، لكن رأيتُ فيك صورة الكون كله منطبعة في قلبي. فماذا أكون أنا مقارنة بها! يا لهذه القوة الهائلة الرائعة كم فيها من قدرة جبارة على التدمير! لن أستطيع متابعة الحياة حتى تدمرني بالكامل، فأنا لم يعد بإمكاني احتمالها - إن قلبي يتمزق إرباً إرباً!»

انهارت بيمالا وسقطت من مقعدها على الأرض مترامية عند قدميَّ، عانقتهما وجسدها مثقل بفيض من الدموع المنهمرة.

هذا هو بحق التنويم المغناطيسي، إنها القدرة التي ستخضِع العالم! فهي ليست مؤلفة من مكونات الوهم أو أنها أسلوب من أساليبه، من قال إن

الحقيقة[١] ستنتصر؟ بل النصر سيكون حليف الدجل والضلال. لقد أدرك البنغاليون هذا الموضوع لذلك أدخلوا عبادة الإلهة ذات الأيادي العشر ممتطية صهوة الأسد ضمن شعارات بلدهم. هؤلاء البنغاليون أنفسهم سيخلقون اليوم من جديد معبودة لهم يغزون بها العالم ويسحرونه بالتنويم المغناطيسي. باندي ماتارام!

أمسكتُ بيد بيمالا وأجلستها بلطف في مقعدها. وقبل أن تذهب السكرة وتأتي الفكرة بعد كل هذا الانفعال، قلتُ لها:

- «لقد فوضتني الأم المقدسة أن أنظم طقساً لعبادتها في كل أنحاء البنغال، لكن للأسف، كيف يمكن لي ذلك وأنا رجل فقير؟»

كانت بيمالا لا تزال متوردة الوجه، غائمة العينين تغشيهما الدموع. قالت بصوت مختنق من شدة الانفعال:

- «كيف يمكن أن تكون فقيراً؟ إنك تمتلك مال المجتمع بأكمله؟ ولِما تكون مجوهراتي في صندوقها؟ صادر كل ما أملك من ذهب ومجوهرات من أجل طقوس عبادتك، فأنا لا أحتاج إلى أي منها».

لقد عرضت علي بيمالا حليها سابقاً في مناسبات عديدة ورغم أن ضميري لم يؤنبني أبداً، لكني شعرتُ في أعماق نفسي أنه ينبغي عليّ أن أرفض قبولها، لأن أخذها يعتبَر تحقيراً لرجولتي، فكيف أقبل حلياً من امرأة في الوقت الذي ينبغي عليَّ كرجل أن أغدق عليها بالمجوهرات؟

لكن ينبغي عليَّ أن أنسى نفسي في مثل هذه الظروف فلست أنا الذي يطلب هذه المجوهرات، إنها ستذهب لعبادة الأم المقدسة – الإلهة – أتمنى أن يشارك الجميع في هذه العبادة. كما ينبغي علينا أن نقيم شعائر هذه العبادة بأبهة وعظمة لم ترَ البلاد مثيلاً لها من قبل. بل وينبغي أن يعيَّن لها يوم نعيد

---

(١) Satyameva jayate شعار من "مونداكوبانيشاد Mundakopanishad" الذي كرر الـــ "ساتياميفا جاياته نا آنهريتام Satyameva jayate na anhritam"- الحقيقة ستنتصر وليس الزيف. لقد تم تبني هذا الشعار لاحقاً كشعار وطني لاستقلال الهند، وضع في موقع تحت الراية.

فيه، ويصنَّف إلى الأبد ضمن تاريخ البنغال الحديث، وسأجعله من أكبر المساهمات التي قدمتُها لخدمة أمتي في حياتي. المغفلون فقط يعبدون الآلهة والإلهات، وسانديب سوف يخلق واحدة منهم.

تلك كانت القضية الكبرى. لكني أحتاجُ أيضاً إلى فتح موضوع أقل أهمية. ففي الوقت الراهن، من غير الممكن أن نقوم بأي عمل دون أن يكون بحوزتنا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف روبية – في الواقع، من الأفضل أن تكون خمسة آلاف روبية. لكن كيف يمكن للمرء أن يتحدث عن المال في غمرة هذه الأجواء المحملة بمعان أخرى؟ مع ذلك لم يبقَ لدينا متسع من الوقت كي نتحرك.

تجاوزتُ كل خجل وتردد واستجمعتُ ثقتي بنفسي وقلتُ لها:

- «يا ملكتي! صندوق المال هنا فارغ تقريباً وعملنا من أجل القضية يوشك أن يتوقف بسبب هذا النقص!»

بدت على الفور آثار الحزن على وجه بيمالا فأدركتُ حالاً أنها لا تزال تفكر في تلك الخمسين ألفاً المتعذر الحصول عليها. لقد كان بالتأكيد حملٌ أثقل صدرها وأقلقها وخطف النوم من عينيها وجعلها تكابد الليالي سهداً لتجد له مخرجاً، لكن عبث المحاولة. فهي لم يكن لديها شيء آخر تقدمه لي عربوناً لحبها المتوقد. في النهاية لا تستطيع أن تهبني قلبها بحرية، لذلك فهي تتوق لتقدم لي مبلغاً ضخماً من المال رمزاً لمشاعرها الحبيسة، لكنها تشعر بالألم لأنها لم تجد الوسيلة لتحقيق ما تريد، كما أن هذه التعاسة البادية على وجهها تؤلمني أيضاً. إنها الآن كلها لي. لا يلزمني وقت طويل كي أتمم اقتلاعها من جذورها لكن ينبغي عليَّ أن أحيطها بكثير من الرعاية. فقلتُ لها:

- «يا ملكتي! نحن لا نحتاج الخمسين ألفاً في الوقت الحاضر. لقد قمت بحساباتي فوجدتُ أن خمسة آلاف وربما ثلاثة آلاف قد تكفينا الآن».

تحررت فجأة من وطأة قلقها وابتهجت ووثبت فرحة وبدت وكأنها تغني وهي تقول إنها ستحضر لي الخمسة آلاف روبية على الفور، بإيقاع كأنه انطلاق زغرودة كالتي أنشدتها راديكا:

لحبيبي تلك الزهرة النادرة

في شعري سأعقدها سافرة

لا تجد مثلها في الأرض الزاخرة

ولا في السموات وجهنم العامرة

هل سمعت عزف ناياته الحائرة

تحلق في النسائم ليس للناس العابرة

انظر إلى نهر يامونا كيف مياهه الهادرة

فاضت وغمرت ضفافه الساهرة.

إنها الأغنية نفسها واللحن نفسه، والكلمات نفسها. فعندما تقول: «خمسة آلاف سأحضرها لك» فهي مثل راديكا التي تتباهى بالزهور النادرة على رأسها من أجل عشيقها. لأن المساحة الداخلية للناي ضيقة، ولأن هناك معوقات من حولنا، فالأغنية منها كانت عذبة جداً. فلو أنا اليوم كسرتُ الناي وحطمته بجشعي الشديد لكنت سمعت بدل الأغنية الجميلة، «لماذا - فيم يلزمك هذا المبلغ كله من المال؟ إلخ، إلخ». ولم يكن للألحان والكلمات أي تناغمٍ مع أغنية راديكا. لذلك أقول إن العشق وحده هو الواقع الحقيقي. لو كان الناي مجرداً من الحب بل من الوله، لحصلنا على فراغ أجوف داخل ناي مكسور

قد بدأ نيكهيل يشعر بهذا الفراغ المطلق الذي ظهر على وجهه إنما متأخراً بعض الشيء وهذا أمر مؤلم، وفي الوقت نفسه أنا أيضاً أشعر بالألم لرؤيته بهذا الوضع. لكن نيكهيل كان يفخر بأنه لا يريد شيئاً سوى

الحقيقة، بينما كنتُ أنا من جهة أخرى أزعم مفتخراً بأنني لن أدع الوهم يفلت من قبضتي أبداً. يحقق المرء ما فكر به ملياً واعتزم أن يفعله[1]، فكل منا نال ما يهواه، لذلك لا حاجة لي كي أتأسف على شيء.

أجلتُ طلب الخمسة آلاف روبية كي أتأكد من أن روح بيمالا بقيت محلقة بصورة جنونية في الأجواء السماوية، وركزتُ في عقلي وروحي على موضوع تنظيم عبادة الآلهة ماحقة الشياطين، ومسألة أين ومتى ستقام شعائر التقديس، وهل ستكون في موقع داخل إمارة نيكهيل ويكون الموعد في مطلع شهر كانون الأول وهو العيد السنوي الذي يحتشد فيه الناس أفواجاً بمئات الألوف للتقديس؟ ستكون فعلاً مناسبة رائعة وناجحة إن استطاع الإنسان أن يحضِّر لها كما ينبغي.

اشتعلت بيمالا حماسة للفكرة، وفكرت أنه طالما ليس في العملية إحراقٌ للبضائع الانكليزية أو لبيوت الناس فلن يعترض نيكهيل على مثل هذا الاقتراح النبيل. فضحكتُ بيني وبين نفسي. صحيح أن نيكهيل وبيمالا قد عاشا معاً خلال تسعة أعوام لكن ما أقل ما يعرفان عن بعضهما بعضاً لعلهما يعرفان شيئاً عن حياتهما الداخلية المنزلية لكنهما إن واجها قضايا خارجية فهما يفترقان بالرأي ويختلفان اختلافاً شديداً. بعد تسع سنوات من بقائهما داخل جدران البيت أصبحا يعتقدان أن العالم ليس سوى صورة عن هذا البيت. أما اليوم فقد أدركا أن كليهما لم يتحدا في حياتهما أبداً كما لا يمكن لهما أن يتآلفا مع بعضهما ويندمجا بهذه السهولة.

---

(١) أفضى سانديب بمكنون قلبه باللغة السنسكريتية مستشهداً بالـــ «جادريشي بهابانا جاسيا سيدهيربهاباتي تادريشي» "Jadrishi bhabana jasya siddhirbhabati tadrishi"، وهي معتقد موضَّح بتعابير لا لبس فيها في الـــ «بانشاتانترا» "Panchatantra" أي في شعائر البانشا وأدبياتها والتي ترتبط بمقدرة الفرد على إنجاز أي شيء بممارسة ومتابعة اتجاه فكري والثبات في الإيمان به.

غير أن الذين أساؤوا فهم بعض الأمور سيتعلمون حين يصطدمون بالعالم – لكن ماذا يعنيني أنا من ارتباكهم؟ سوف لن أترك بيمالا تحلق طويلاً أسيرة أجوائها الانفعالية، لذلك ينبغي علي أن أفرغ من العمل الذي بدأتُ به. حين نهضت بيمالا منصرفة وكادت تبلغ الباب سألتها بعدم اكتراث:

- «يا ملكتي ، متى نحصل على النقود...؟» التفت بيمالا وقالت:
- «في نهاية هذا الشهر».
- «كلا، هذه مهلة غير مناسبة».
- «متى تريدها إذاً؟»
- «غداً».
- «حسناً ستحصل عليها غداً».

الفصل الثالث عشر

نيكهيليش

بدأت الصحف المحلية تنشر تقارير جديدة ورسائل ضدي وسمعتُ أن الجهود مستمرة على قدم وساق لطباعة قصائد هزلية ساخرة وصور كاريكاتورية. كما أخذت تنتشر هنا وهناك نكات وقصصاً، والجوار كله متحمس يهلل لهذا التدفق الزائف الذي يُنشر على هذا النحو. هم يعلمون أن لعبة الرمي بالوحل الخيالية هي احتكار لهم، ولا يمكن لأي إنسان نبيل بريء يسير على حافة الطريق أن ينجو من رميهم ويحافظ على بياض ثيابه من التلوث.

لقد كتبوا في صحفهم أن سكان مقاطعتي بجميع طبقاتهم قد تأثروا بالسواديشي وأصبحوا مؤيدين له. وأنهم لا يستطيعون أن يظهروا أنفسهم أو يفعلوا أي شيء خوفاً من الإرهاب الذي أمارسه عليهم. وأني باعتباري من ملاك الأراضي فأنا لا أتوانى عن ممارسة العرف والتقليد المنسوب إلى تراث مالكي الأراضي باضطهاد من وجدوا الشجاعة الكافية ليتحدّوني ويبيعوا بضائع محلية. وزعموا أن ثمة علاقات واتفاقات سرية بيني وبين رجال الشرطة، وأني أكتب رسائل سرية إلى قاضي التحقيق، وأن الصحافة قد علمت من مصادر جديرة بالثقة أنني أقوم بجهودٍ حثيثة لإضافة لقب جديد إلى اللقب الوراثي الذي أحمله وأن هذه الجهود مثمرة بهذا الصدد بالتأكيد.

وكتبوا أيضاً أن الرجال الذين عملوا ليكسبوا اسماً في الوطن قد تم تقيمهم وتقديرهم، لكنهم قالوا أيضاً إنهم واعون تماماً للمواطنين من منطقتنا الذين دبروا مكائد وإهانات لمثل هؤلاء الرجال، لكنهم لم يذكروا اسمي، إنما

تلك الضبابية واضحة جداً وواضح ما يعنون بكلامهم المبهم. من جهة أخرى أصبحت الصحف مملوءة بالمديح لأولئك البررة من أبناء وطننا، ملاك الأراضي مثل هاريش كوندو وغيره. وكتبوا أنه لو كان في البلاد عدد أكثر من أمثال هؤلاء الوطنيين المخلصين الذين يعملون لمصلحة الوطن – الأم فقط، لقام عمال مصانع الألبسة في مانشيستر وأنشدوا بصوت عال : «باندي ماتارام».

ومن جهة أخرى وصلتني أيضاً رسالة مكتوبة بالحبر الأحمر تسرد أسماء ملاك الأراضي الخونة المخلصين إلى ليفربول والذين أحرقت خزائنهم وقاعات محاكمهم لأنهم امتنعوا عن تأييد القضية. وتمضي الرسالة لتقول أن إله الطهارة بنفسه قد أخذ على عاتقه مهمة تطهير البلاد، وأنه قد تم اتخاذ تدابير لمنع أولئك الذين ليسوا أبناء أوفياء للوطن – الأم من إيجاد ملاذ لهم فيه.

والتوقيع في أسفل الرسالة كان كالتالي: الشريك الأكثر تواضعاً في خدمة الأم- الوطن، شري آمبيكا شاران غوبتا[١] والواضح أنه اسم مستعار.

علمتُ بعد ذلك أن هذه الرسائل كانت من فعل الطلاب الذين يعيشون هنا. فأرسلتُ بطلب بعضهم وأطلعتهم على الرسالة. فأنبأني الطالب حامل الشهادة الجامعية بنبرة جدية:

- «لقد سمعنا أيضاً بأن مجموعة من الوطنيين المستقلين في البلاد، وهي مجموعة متهورة يائسة ومستعدة لفعل أي شيء في سبيل إزالة كل العقبات التي تعترض مسار السواديشي». فقلتُ له:
- «لو وقع شخص واحد من مواطنينا في شباك هؤلاء المغامرين وخضع لضغوطهم الظالمة لكانت هزيمة البلاد».
- فقال الطالب الذي يحمل شهادة الماجستر بالتاريخ:
- «أنا لا أفهم ما تقوله».

لقد قلتُ:

---

(١) Shri Ambika Charan Gupta .

- «إن بلادنا هي فعلياً نصف ميتة بسبب الخوف السائد عند الجميع وذلك اعتباراً من الآلهة إلى أبسط خادم متزلف. وإن أردتم اليوم باسم الحرية أن يظلّ هذا الخوف الزائف منتشراً بأسماء أخرى، وإذا أردتم أن ترفعوا رايتكم المنتصرة، راية الجبن بوسيلة القمع والاعتداء على حقوق الآخرين، فلن يخضع لقراركم جميع الصادقين والمخلصين للوطن ولن يخفضوا رؤوسهم حتى مقدار شعرة واحدة أمام سلطة الإرهاب».

فقال خريج الماجستير في التاريخ:

- «هل ثمة بلد من بلاد العالم لا يحكم فيها الملك بالترهيب ولا يتم الخضوع لحكومته إلا بالخوف؟»

فقلتُ له:

- «يمكن للإنسان أن يعرف مدى تحرر الشعب في بلد ما من مقدار حدود سلطان الخوف والإرهاب. فحيث يكون تهديده مقتصراً على أولئك الذين يميلون إلى الإضرار بمصالح الناس أو السرقة أو القتل أو الإساءة إلى بقية المواطنين، تستطيع الحكومة أن تدّعي أنها حررت الإنسان من عدوان الإنسان. لكن إذا كان الخوف هو الذي سيملي على الناس أي نوع من الثياب ينبغي عليهم أن يلبسوا ومن أي سوق يشترون، أو أين يتاجرون أوماذا يأكلون ومع من يأكلون، فهنا تكون حرية إرادة الإنسان غير معترف بها على الإطلاق ومعنى الإنسانية قد أتلف من الجذور».

وعاد طالب التاريخ يقول:

- «ألسنا نرى مثل هذا القهر لإرادة الإنسان في البلاد الأخرى أيضاً؟».

فقلتُ له:

- «من قال لا يوجد؟ الجنس البشري قد أهلك نفسه من انتشار تجارة الرق الموجودة في كل بلد».

- «هذا يدل إذاً على أن تجارة الرق هي طبيعة ثانية – في الواقع إنها إنسانيته».

فقال أحد الخرِّجين:

- «لقد تأثرنا فعلاً بالمثل الذي أوضحه لنا سانديب بابو منذ أيام عندما قال إنك إن حاولتَ أن تلقي نظرة عامة على كل المناطق الواقعة تحت حكم ملكية هاريش كوندو أو شاكرابارتيس اوف شانكيبهانكا[١] فإنك لن تستطيع أن تخرج أوقية واحدة من الملح الانكليزي من هذه المناطق، لماذا؟ لأنه ظل يحكم دوماً بيد من حديد، ويمارس الإكراه والقسر في هذه المجالات. أما الذين هم عبيد بطبعهم فهم يتخوفون أكثر إن لم يكن لهم سيد قوي يقودهم».

وروى شاب آخر، كان قد رسب بامتحان التخرج، حادثة قد سمع بها:

- «عند تشاكرابارتيس مؤاجر من الكاياستا لم يكن يريد أن يتبع خطه بما يتعلق بالتجارة، فسلط عليه القانون حتى انتهى به الأمر إلى الفقر المدقع حيث لم يجد ما يقتات به هو وعائلته. ولما ظل دون طعام لمدة يومين لجأ إلى بيع حلى زوجته الفضية. ولكن لم يجرؤ أحد في منطقة شاكرابارتيس على شرائها. فعرض عليه وكيل أعمال مالك الأرض أن يشتريها بخمس روبيات وكان سعرها الحالي يساوي ثلاثين روبية، ولما وافق على بيعها كي لا يموت جوعاً، أخذ الوكيل مجموع الحلي وقال له ببرود إن هذه الروبيات الخمس ستخصم من إيجاره الذي هو دين عليه لمالك الأرض. عندما سمعنا بهذه الرواية قررنا قطع علاقاتنا بشاكرابارتيس. لكن سانديب بابو سألنا إن نحن أقصينا عنا مثل هؤلاء الناس، مع من سنتواصل ومع من سنتعامل؟ أنمضي في بناء أمة تدعمنا فيها جثث

---

(١) Chakrabartys of Shankibhanga.

من جبال «الكهاتس[١]» المشتعلة؟ وأوضح لنا أن الأشخاص الذين هم من أمثال شاكرابارتيس قد ولدوا سادة لأنهم يعرفون ما يريدون وكيف يحصلون عليه. أما أولئك الذين لا يعرفون كيفية التعبير عن رغباتهم ولا يعرفون كيف يفرضون إرادتهم ينبغي عليهم في النهاية أن يعملوا أو يموتوا وفقاً لإرادة الآخرين. فقارنهم بك. وقال: «لا يوجد رجل في ولاية شاكرابارتيس كلها يجرؤ أن يتلفظ بكلمة واحدة مناهضة للسواديشي. بينما نيكهيل لن يكون قادراً على دعم السواديشي في ولايته حتى لو أراد ذلك».

فقلتُ:

- «إن رغبتي في الدعم هي شأن أعظم بكثير من السواديشي، لذلك من الصعب علي أن أترك السواديشي يستمر. لا أريد أخشاباً ميتة بل أفضل أن أرعى أشجاراً حية. وبناء على ذلك فإن عملي يحتاج إلى زمن أطول بكثير مما في معتقدكم».

سخر المؤرخ مني وقال:

- «أخشى يا سيدي أنك لن تحصل لا على أخشاب ميتة ولا على أشجار حية. لأننا نؤمن بأقوال سانديب بابو وتعليمه الحق، أن من أراد الحصول على شيء فعليه أن ينتزعه. لقد كنا بحاجة لوقت طويل كي نستوعب هذه التعاليم الجديدة لأنها مخالفة تماماً لما تعلمناه في المدرسة. لقد رأيتُ بأم عيني أن جابياً من جباة هاريش كوندو واسمه «كوروشاران بهادوري» كان قد ذهب ليجمع عائدات الإيجارات، لكنه لم يجد عند المستأجر أي شيء يباع ليفي بالإيجار، فكل ما كان يملك هي زوجته الشابة، فاقترح عليه بهادوري أن يتنازل عنها مقابل الإيجار. فوجدوا شخصاً كان جاهزاً ليتزوج من الزوجة ونال المالك إيراده. الحق أقول

---

(١) ghats.

لك يا سيدي إن منظر دموع هذا الرجل قد منع عني النوم ليالي؛ لكن مهما كانت الحادثة مؤلمة وعلى الرغم من تأثري، أدركتُ أن من يعرف كيف يحصل على المال الذي يريده ولو ببيع زوجة مدينه لهو رجل أفضل مني. كما أعترف بأنني لا أستطيع أن أقوم بالعمل نفسه، إن ذلك فوق طاقتي، إني ضعيف وتفيض عيناي بالدموع بسرعة كبيرة ، فلذلك تذهب جهودي سدى. لكن في الوقت نفسه ينبغي الاعتراف أيضاً أن إنقاذ بلادي قد يتم بمقدرة أشخاص من أمثال كوندو ووكيله جابي – الإيجار شاكرابارتيس».

لقد جزعتُ لما سمعته جزعاً تعجز في التعبير عنه الكلمات وصحتُ أقول:

- «إن كان ما تقوله صحيحاً فإني أرى جلياً أن جهد حياتي ينبغي ألا ينصرف لشيء غير إنقاذ البلاد من أمثال كوندو وشاكرابارتيس. انظر، عندما زُرِعَتْ بذور العبودية فينا ونمت وبدأتْ تعطي براعمها، حيث أخذت تحقق انجازات هائلة في صناعة المستبدين منا، فالمرأة - الكنة التي تكون مقموعة من قبل الحماة تصبح أكثر الحموات قمعاً في معاملة كنتها عندما تتبدل المواقع، والشخص المقهور اجتماعياً يلجأ إلى قمع رب البيت بطريقة مرعبة عندما يصبح هو صاحب السلطان، ولأنكم عشتم في ظل سلطة الإرهاب انحنيتم أمام الكثير من الأمور دون أن تتساءلوا أو ترتابوا، وتعودتم الخضوع للسلطة من شدة الخوف حتى آمنتم أن إخضاع الآخرين هو عقيدة وديانة، فاستخلصتم من ذلك أن لكم الحق بارتكاب الأعمال الوحشية بحق الناس لإقناعهم بأسلوب تفكيركم ومعتقدكم، إن معركتي ستكون ضد هذا الضعف الرهيب فيكم».

كانت أقوالي بسيطة جداً لدرجة أن الناس العاديين لن يستغرق فهمهم لها وقتاً طويلاً. لكن في بلادنا، يقوم أصحاب الشهادات العليا بتحريف الأقوال بمعلوماتهم التاريخية، غرضهم الوحيد من ذلك هو تشويه الحقيقة الموضوعية.

من جهة أخرى، إني قلق بشأن زوجة خال بونشو المزيفة، لأنه من الصعب علينا إثبات كذب ادعائها وكشف هويتها، فالمعروف إنه من الممكن دوماً أن تحشد شهوداً وبراهين لا تحصى على شيء لم يحدث بينما في هذه الحالة قد لا نجد أي شاهد عليها. والظاهر أن هذه المكيدة قد خُطِطَ لها بمكر وبراعة لإبطال الحقوق الوراثية لبونشو في المكان الذي اشتريته منه.

ولمّا لم أجد مخرجاً من هذا المأزق، فكرتُ أن أمنح بونشو كوخاً ضمن أملاكي. لكن أستاذي الماسترموشه قال لي:

- «سوف لن أقبل الهزيمة أمام الظلم، وينبغي أن أحارب تلك الأساليب الوضيعة، سوف أتولى معالجة المسألة بنفسي». فصحتُ بدهشة شديدة:

- «أنتَ»

- «نعم أنا».

لم أستطع التفكير ولا الرؤية بشيء من الوضوح فيما عسى أن يفعله أستاذي الماسترموشه لإصلاح نقاط الضعف في النظام القضائي كله، أو لكشف التلاعب والحيل القانونية. لم أره في ذلك المساء حيث لم يأت لزيارتي في وقته المعتاد. ولما سألتُ عنه قيل لي إنه قد غادر المنزل ومعه حقيبته وفيها ملابس ودثار وترك رسالة مع الخادم بأن غيابه سيستغرق بضعة أيام وأنه لا داعي للقلق. فحسبته ذهب ليبحث عن شهود، لذلك فمن الأرجح أنه قصد منزل خال بونشو. إن كانت تلك هي غايته فإني موقن بأنه لن يظفر بطائل وأن جهوده ستذهب أدراج الرياح. كما أنني لن أتمكن من إيجاده في المدرسة لأنها مغلقة لبضعة أيام بسبب عطل أعياد جاكادهاتري بوجا، ومحرم والأحد[١] لذلك، يبدو أنني لن أجد له أثراً.

تبدلت أحوال نفسيتي ومزاجي في يوم عيد «هيمانتا» عندما بدأت عيون النهار تهدل جفونها على ضيائه ليصبح الغسق غامضاً ضبابياً. هناك العديد من

---

(١) Jagaddhatri Puja، Moharram، Sunday.

الأشخاص في العالم تقيم نفوسُهم في منازل وكأنها مكونة من الآجرّ، متمكنين تماماً من تجاهل «الخارج»، لكن روحي أنا تسكن تحت ظلال الأشجار، تستقبل الرياح الطليقة الآتية من الخارج دون وساطة لتغطي كل كياني، بينما يغمر أعماق قلبي رنين الترنيمة الحائرة في توليفة بين النور والظلام.

وعندما يحتد ضياء النهار، يقف العالم محتشداً من حولي بكل مهماته التي لا تُعدّ ولا تحصى، أشعر وكأنني لا أحتاج أي شيء آخر من حياتي هذه، لكن عندما يبهت لون السماء، وتهبط على الأرض ستائر من نوافذ السماء، يحدثني قلبي عن ذلك الغسق الذي يغمر العالم فقط ليستر ما يحدث فيه. يبدو أن كل العناصر تتآمر مع بعضها بعضاً برفقة متناغمة لإعادة إملاء الظلام اللامتناهي. والحياة التي تزدهر خلال أوقات النهار بين العديد من الناس، تسعد مع شخص واحد عند المساء. يبدو أن هذا الأمر هو جوهر النور والظلام. لا أستطيع أن أبقى حيادياً مع هذه الحقيقة. عندما يعم المساء على العالم كالمخلص، تحدثني عيون حبيبتي وتحدثني روحي وكل وجودي ليقولوا لي إن هذا العمل لا يمكن أن يكون بداية الإنسان ونهايته وأنه ليس وحده حقيقة الإنسان، فالإنسان ليس عبداً فحسب، وهو لم يخلق ليكدح فقط حتى لو أنه يعمل للحق والإنصاف.

آه! يا نيكهيل! هل فارقتَ إلى الأبد ذاتك والرجل الحقيقي الذي في داخلكَ، المنعتق من عالم الأعمال اليومية إلى ضياء النجوم، ليغمر نفسه في الظلمة الخالدة لتبتلعه؟ ما أشد وحشة الإنسان الذي لا يستطيع أن يصادق اللانهاية في هذا الكون!

عند ساعات أصيل ذاك اليوم، لم يكن لدي أي شيء أعمله، كما أنه لم يكن في ذهني أي مشروع أقوم بتنفيذه، حتى أن أستاذي الماسترموشه لم يكن هنا ليؤنسني. عندما يتوق قلبي الشاعر بالفراغ للتعلق بأي شيء في هذا الكون، تقودني خطاي إلى حدائق بيتنا الداخلية، فقد كنت مولعاً جداً بزهورها وهي زهور الـــ «شاندراماليكا» وكنت أعتني بها كثيراً وزرعت منها ألواناً

متعددة في أحواض خزفية داخل حديقتي. وعندما كانت تزهر كنتُ أشعر وكأنها زبد قزحي يتهدهد على أمواج بحر أخضر. لقد مضى وقت طويل لم أذهب فيه إلى ذلك الجانب من الحديقة. ابتسمت في داخلي في ذلك اليوم عندما فكرتُ أنه حان الوقت أخيراً لأذهب وأسعى لتهدئة ألم الفراق بجوار زهوري هذه.

عندما دخلتُ الحديقة، ظهر القمر هلالاً وكاد يبدو رسمه واضحاً على سورنا، مع ظهور ظل كثيف في أسفله، اخترقه ضياء القمر المائل الذي تسرب من الجانب الغربي للحديقة. بدا القمر فجأة مسرعاً ليغمر الظلام ويعصب له عينيه وهو يبتسم بخبث. على أحد جوانب السور كان هناك صفوف من أحواض الزهور مشيت بينها فرأيتُ أن هناك أحدهم ممدداً بهدوء على العشب تحت الرفوف حاملة الزهور. بدأ قلبي ينبض بسرعة مفاجئة. وحالما اقتربتُ منه نهض وقد أرعبه وقع خطاي. ماذا أفعل بعد ذلك؟ وقفتُ متردداً أسال نفسي هل يحسن أن أسرِع بالانسحاب؟ وكذلك كانت بيمالا ولا شك تتلمس سبيلاً للهرب ولكن الذهاب لم يكن أقل إحراجاً من البقاء! وقبل أن أعزم في أي اتجاه أمضي، نهضتْ بيمالا وجذبتْ طرف ساريها على رأسها ومضت إلى الجناح الداخلي من البيت.

في هذه اللحظات القليلة ظهر لي جلياً فداحة ما تتحمله بيمالا من شقاء، وفي الوقت نفسه زالت عني هموم شكواي وتذمري من هذه الحياة وذهبتُ إلى ضفاف بعيدة. فناديتها: «بيمالا» فوقفت مشدوهة، لكنها لم تلتفت إلي، فذهبتُ ووقفت بمواجهها. كان الظل بجانبها لكن نور القمر كان على وجهي، بقيتْ في مكانها، وأغمضتْ عينيها وجمعت كفيها بشدة. فقلتُ لها:

- «لقد طوقك قفصي المغلق من كل الجهات، فما الذي يدعوني لأبقيك حبيسة فيه بهذا الشكل، فأكون سبباً لذبولك وانكسارك؟»

لكن بيمالا ظلت مغمضة عينيها ولم تنطق بكلمة. فقلتُ لها:

- «أعلم أني لو أجبرتك على البقاء هنا، فلن تكون حياتي سوى أغلال حديدية تقيدني أنا أيضاً، فهل تعتقدين أنه بإمكاني أن أكون سعيداً إن أنا فعلتُ ذلك؟» لم تخرج بيمالا عن صمتها. فأنهيتُ كلامي قائلاً:
- «أقول لك الحقيقة: سأدعك تذهبين. إذا لم أكن أعني لك شيئاً فأنا لا أريد أن أكون قيدك، اذهبي أنت حرة».

بعد أن قلتُ لها ذلك ذهبتُ باتجاه البيت.

كلا، هذا لم يكن كرماً مني ولا عدم مبالاة. ولكني كنت قد أدركتُ أخيراً أنني لن أكون حراً إن أنا لم أحررها. لن أحتفظ بشخص يثقل على قلبي وهو الذي أردته كالجوهرة فيه. أجمع يديّ وأتضرع إلى الله ألا يبقيني أسيراً مقيداً حتى لو ابتليت بالأحزان والآلام لأني أستطيع أن أتقبلها حتى لو ولم أحصل على السعادة المرجوة. أن يتشبث الإنسان بالزيف، ويعتقد أنه حقيقة يصبح كمن يخنق نفسه. يا الله، أرجوكَ، أنقذني كي لا أقدم على إهلاك نفسي بهذا الشكل.

عندما دخلتُ قاعة الاستقبال رأيتُ الماسترموشه جالساً هناك ينتظرني. لكن كان قلبي في هذه اللحظات لا يزال يخفق بشدة مما حصل معي. عندما رأيته، وقبل أن يقول أي شيء، انفجرت بغير هدى ولا تفكير بالقول:

- «يا سيدي ماسترموشه، الحرية هي أعظم شيء للجنس البشري. كل شيء عداها تافه ولا يمكن لشيء أن يوازيها قيمة».

دهش ماسترموشه لحالتي المضطربة. وبدون أن يقول شيئاً، استمر بالتحديق في وجهي. فقلتُ:

- «لا يستطيع الإنسان أن يفهم شيئاً من الكتب. لقد قرأتُ في الـــ«شاستراس[1]» أن شهوة الإنسان هي أكبر عبودية له، وهي لا تكبل الذات فحسب بل تكبل معها الآخر. لكن الكلمات تبقى جوفاء.

---

(١) الشاستراس Shastras: النصوص المقدسة والتفاسير التحليلية للبوذية.

فأنا اليوم مستعد لأفرج عن عصفوري من قفصه، وأدركتُ أن العصفور هو أيضاً قد حرَّرني. عندما أحتفظ بأحدهم محبوساً في قفص، فهذا الشخص بالمقابل يربطني من خلال إرادتي الحرة: الأسر المتعمد هو أقوى من أي قيد يمكن لك أن تربطني به. أقول لك ما يراودني من أفكار لأنني أجد أن لا أحد في هذا العالم يبدو أنه يفهم كلامي. كل شخص يعتقد أن طقس التطهر ينبغي أن ينفذ في مكان آخر. لكنه لا ينفذ في أي مكان إلا في مدى رغبتنا».

فقال ماسترموشه:

- «نحن نعتقد أننا أحرار وسادة أنفسنا عندما نشبع رغباتنا. لكننا لن نكون سادة أنفسنا حقاً إلا حين نطرح شهواتنا من نفوسنا، فالحرية الفعلية هي المقدرة على التضحية الصادقة بما نرغب».

- «يا سيدي ماسترموشه، تبدو أقوالنا أشبه بموعظة بليدة. لكن كلما ألقي حتى ولو نظرة خاطفة على التحرر، أشعر انه وسيلة خلاصي ونجاتي. فالآلهة تشرب مثل هذا الرحيق الإلهي كي تصبح خالدة. فنحن لا نستطيع أن نرى الجميل حتى نتخلى عنه. عندما وضحتُ حقيقة أن «بوذا» هو الذي غزا العالم لا الإسكندر، تحوَّل ذلك إلى كذب. متى سأصبحُ قادراً على التعبير عن هذا الحق بأغنية؟ متى تفيض هذه الحقائق الكونية العميقة من صفحات الكتب المطبوعة وتقفز إلى نهر مقدس كنهر الغانج الذي ينبع من عليائه المقدسة:نبع كانكوتري[1]؟»

وتذكرتُ فجأة غياب أستاذي ماسترموشه هذه الأيام الأخيرة وجهلي لسبب هذا الغياب، وشعرتُ بالحرج حين سألته:

- «أين كنتَ من هذه الأرض طوال هذه المدة؟»

- «في بيت بونشو».

---

(١) Gangotri.

- «في بيت بونشو؟ حقاً ظللت هناك لمدة أربعة أيام؟»
- «نعم، أردتُ أن أتفاوض مع تلك المرأة التي تدعي أنها زوجة خال بونشو. كانت في البدء مندهشة قليلاً عندما رأتني، فهي لم تتخيل أنه يمكن أن يوجد بين السادة أبن «بهادرالوك» شخص غريب مثلي. ثم بدأتْ تصبح محرجة، فقلت لها، «لن يكون باستطاعتك إهانتي ولا التخلص مني يا طفلتي. وما دمتُ أنا مقيماً هنا فسيقيم بونشو معي أيضاً، ألا ترين أني لا أستطيع أن أقف وأنظر إلى أطفاله الذين لا أم لهم يُطرَدون إلى الشارع؟»

ظلت تستمع إلى كلامي بصمت لمدة يومين لكن دون أن تقول نعم أو لا. في النهاية وجدتها هذا الصباح تحزم صررها. وقالت إنها ذاهبة إلى بريندابان وطلبت بعض مصاريف للسفر. إنني أعلم أنها لن تذهب إلى بريندابان، لكن ينبغي علينا أن نعطيها هذا المبلغ الكبير ولهذا السبب جئتُ إليك».

- «حسناً، سأعطيها ما تحتاج إليه».

ومضى أستاذي يقول متأملاً:

- «ليست هذه العجوز امرأة شريرة، إن بانشو لم يسمح لها بلمس جرته ويبدأ بالصراخ عندما تدخل غرفته أو تلمس شيئاً من أدواته، ولهذا كانا في شجارٍ دائم بشأن هذه الأمور؛ لكنها عندما سمعت أنني مستعد أن آكل من طعامها وأني لا أعترض على أسلوب طهيها، نظرت إلي نظرة مختلفة وخدمتني بإخلاص؛ إنها طباخة ممتازة. لكن بونشو قد فقد البقية الباقية من احترامه لي. كان يظنني في الماضي إنساناً عادياً، لكن الآن يعتقد أنني أكلتُ من الطعام الذي أعدته هذه المرأة العجوز[1] لغرض في نفس يعقوب، أي

(١) لم يكن بونشو متأكداً من طائفة هذه الامرأة لذلك أبى أن يجاذف ويشرب الماء من الكأس نفسه الذي تشرب منه، أو أن يجلس في الغرفة نفسها. على عكس الماسترموشه المتحرر من تراتبية الطوائف لذلك أكل طعاماً من طهيها.

لأغويها... مثل هذه الأمور الكيدية ضرورية في العالم لكن ليس على حساب التقوى! لو استطعتُ أن أتغلب عليها بتقديم شهادة زور لكانت المسألة مختلفة. وحتى بعد أن غادرت المرأة ينبغي علي أن أحمي منزل بونشو لبعض الوقت- وإلا قد يلجأ هاريش كوندو إلى تلفيق أكثر من مكيدة كارثية له. يبدو أنه أوعز لأتباعه ما يدل على نواياه بقوله:"لقد جهزتُ له زوجة خال مزورة والآن قد هزمني بأنه أوجد أباً مزيفاً، لكن لننتظر ونرى كيف سيكفله هذا الأب وكيف سيخرجه من المأزق، ومن يعش يَرَ».

فقلتُ:

- «قد ينجو بانشو وقد يموت، لكن صراعنا ضد هؤلاء الناس الذين اخترعوا أنواعاً لا تعد ولا تحصى من الدسائس والحبائل لأبناء أمتنا في مجالات الدين والمجتمع والأعمال هو صراع مستمر، فحتى لو استشهدنا فإننا على الأقل نموت سعداء».

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الرابع عشر

بيمـالا

من الصعب أن يصدق الإنسان أن هذه الأحداث ممكن أن تحصل له في حياة واحدة، خيّل إلي وكأني قد مررت عبر سلسلة من الولادات عشت فيها سبع حيوات. مرت هذه الأشهر القليلة وكأنها ألف سنة، لقد كان الزمن يمر بسرعة حتى أني لم أكن اشعر بحركته، تحسسته فقط في ذلك اليوم بعد أن تلقيتُ الصدمة.

علمتُ ذلك عندما فتحتُ موضوع منع البضائع الأجنبية من سوق زوجي. لم يكن ممكناً تجنب الخلاف، لكني كنت على الأقل معتقدة أنني لن أحتاج للجدال بغية إسقاط حججه. فهناك نوع من السحر في الأجواء المحيطة بي. فحتى رجل عظيم مثل سانديب انكسر كموجة بحر وخرَّ عند قدمي. فأنا لم أوميء له بشيء أبداً ولم أدعُهُ لأي مشروع كان، إنه تأثير سحري وجاذبيتي، هي «الهالة» المحيطة بي التي فعلت فعلها.

وعند مقابلتي في ذلك اليوم للطفل- الفتى آموليا الذي لا يزال بريئاً وطاهراً كبرعم الخيزران الأخضر في قلب الناي، رأيتُ ضياءً جديداً بدأ ينبعثُ من مجرى حياته تماماً كما ينبثق اللون واضحاً من نهرٍ يتدفق عند بزوغ الفجر؛ ونظرتُ يومها في وجهه فآمنتُ حقاً كيف يمكن للآلهة أن تكون مغمورة عندما تحدِّق في وجه عابدها المشرق؛ يفعل سحري كعصا الساحر، بل هو سحر قدرتي على صنع الخوارق.

من ثم، وبثقة كبيرة بقدرتي هذه، ذهبتُ إلى زوجي، كسرعة البرق المصحوب بالرعد. لكن ما الذي حدث؟ لم أرَ خلال السنين التسع وجه زوجي بهذا المظهر الحزين، كسماء الصحراء لا أثر فيه لأي عاطفة، عيونه شاردة لا تعبير فيها ولا ينعكس من نظرها أي مغزى. تمنيتُ حينها لو انفجر غاضباً لشعرتُ ببعض الراحة، ولكني لم أستطع بأي حال إيجاد منفذ يمكنني الاقتراب منه. شعرتُ وكأنني كنتُ كذبة في حياته أو حلماً أبعدَهُ عن تفكيره في ظلال الليل الدامس.

كنت فيما مضى أشعر بالغيرة من جمال سلفتي الصغرى ثم سكنتُ إلى الشعور بأن السماء لم تمنحني قدرة بل كان حب زوجي لي هو قوتي الوحيدة. لقد شربتُ وشربتُ من هذا الكأس المنعش لأرتوي والآن وقد أفرغتُ كأس القوة هذا وعندما أوشكتِ الثمالة تجتاحني بنشوتها، وقع الكأس فجأة على الأرض لأجده محطماً عند قدمي وتركني في حيرة من أمري عما ستؤول إليه حياتي بعد الآن، متسائلة في أعماقي ترى كيف سأعيش مستقبلاً؟

جلست لأضمَّ شعري بسرعة في العقدة. آه! يا لهواني! ويا لخزي وإذلالي! عندما مررتُ مقابل غرفة سلفتي صاحت تقول: «آه يا أميرتي الصغيرة! تبدو عقدة شعرك كأنها تتسلق وتقفز فوق رأسك – لا تتركيها تحمله معها، آمل أن يكون رأسك بخير!»

ومنذ أيام قليلة قابلتُ زوجي في الحديقة، وصرَّح لي أنه منحني حريتي؛ لكن هل تعطى الحرية لإنسان بهذه السهولة، وهل هو يأخذها ويقبلها بسهولة أيضاً؟ هل الحرية شيء جامد؟ هل يمكن أن تؤخذ وتعطى كالإناء الفارغ؟

لقد كنتُ أشبه بالسمكة طالما كنت أسبح دوماً في مياه حنانه، وعندما أطلقني في الهواء وقال إنني حرة أدركتُ أنني لن أتمكن بعد الآن لا من التحرك ولا من متابعة العيش.

عندما أدخل غرفة نومي في هذه الأيام لم أعد أرى سوى الأثاث والمرايا والأسرَّة وخزائن الألبسة، لكن القلب الذي يجتاحني والذي يسمو بكل

هذه الأشياء لم يعد موجوداً، بل يوجد هنا تحرير، عتق، إطلاق، لكن كلها فارغة، لقد جف شلال المياه بالكامل حتى تعرت أحجاره وحصاه الكامنة في الأسفل، وعوضاً عن المشاعر والحنان هناك فقط أثاث وجماد.

حين وصلتُ إلى حالة من الحيرة الشاملة وسألتُ نفسي إن كان قد بقي لي في هذا العالم شيء صادق وأين عساي أجده؟ صادفتُ سانديب مرة أخرى في لقاء غير متوقع فيما بيننا وفي فترة غير اعتيادية بين جلستين، فاشتعلت النار فينا من جديد، فلماذا أعتقد أن هذه الأحاسيس هي مزيفة؟ بل هي مفعمة بالحقيقة – الحقيقة التي تفيض وتتجاوز الحدود، إنها تجلي عمقي الداخلي الذي هو أصدق ألف مرة من سلفتي الثانية ووصيفتها ثاكو وأغانيها البلهاء، وسائر من يتكلمون ويضحكون من حولي. فسلفتي الكبيرة تمسك بحبات المسبحة بيدها وتصلي طوال النهار، وسلفتي الصغيرة تضحك مع وصيفتها ثاكو أو تغني أغانيها....

قال سانديب إنه يحتاج إلى خمسين ألف روبية. ونادته روحي الثملة، ما الخمسون ألفاً إنها لا شيء، سأتدبرها لك. كنت فعلاً ضيقة الأفق لم أفكر لا في كيفية الحصول عليها ولا من أي مصدر يمكن لي أن أطلبها؟ ففي لحظة واحدة حولتُ نفسي من شخص نكرة إلى شخص ذي أهمية كبيرة في الحياة، وبإشارة من أصبعي كل شيء سيتحقق وسأحصل على المبلغ، وسأنجح بذلك طبعاً! سأنجح بالتأكيد! هذا ما لا ريب فيه.

عدتُ إلى الجناح الداخلي، ونظرتُ من حولي، أين كان المال؟ أين هي الآن تلك الشجرة السحرية التي كانت تثمر مالاً وفيراً؟ لماذا يُهين واقع العالم الخارجي عمق داخلنا؟

لكنني قررتُ أن أحصل على المال حلالاً أم حراماً، وهذه العملية لن تضنيني ولن ترهقني، كما لا يمكن أن يكون ثمة إثم فيها فالإثم لا يلوث إلا الضعفاء ولكنه لا يطال الأقوياء، فاللص الفقير معروف أنه سارق، أما الملك المنتصر فهو يغزو وينهب وهو في النتيجة غانم... ينبغي أن أعرف مكان الخزنة ومن يضع فيها المال ومن يحرسها.

ذهبتُ في منتصف الليل إلى الجناح الخارجي من البيت وصرتُ أنظر بجرأة إلى المكتب. لكن كيف يمكن لي أن أسرق خمسين ألف روبية من داخل هذه القضبان الحديدية؟ لقد أصبحتُ قاسية بدون رحمة، ولو أستطيع أن أتلو صلاة أجعل بها كل أولئك الحراس يسقطون موتى في أمكنتهم لما ترددت لحظة واحدة. أيمكنني أن أجري إلى الغرفة فوراً بهذه الحالة المسعورة، وفي ذهن ربَّة هذا البيت عصابة كاملة من اللصوص المسلحة ترقص رقصتها على مذبح الإلهة طالبة النعمة والبركة؟ لكن السماء في الخارج ظلت صامتة وغير مضطربة، والحراس يبدِّلون ورديتهم في ساعات معينة، وكانت الساعة ترن بدقاتها العالية معلنة مرور الساعة تلو الساعة والقصر الضخم ينام بسلام بدون خوف.

في آخر الأمر أرسلتُ بطلب آموليا، وقلت له:

- «الأمة بحاجة إلى نقود، هل بإمكانك أن تحصل عليها من الخزنة؟

انتفخ صدره وقال:

- ««لمَ لا؟»

آه! وا أسفاه! لقد قلتُ أيضاً «لِمَ لا» لسانديب بالطريقة نفسها. إن انتفاخ صدر آموليا لم يعطني أي انطباع للثقة بنفسي، فقلتُ له:

- «أخبرني كيف ستقوم بهذا العمل؟»

بدأ آموليا يعرض مسودة مخططات غريبة لا تصلح أن تنشر سوى على صفحات الكتب الرديئة ذات الروايات الخيالية أو في صحيفة شهرية. قلتُ له بقسوة:

- «لا يا آموليا، لا تكن صبيانياً».

- «حسناً، سأرشو الحراس حتى يفتحوا لي باب الخزنة».

- «من أين ستأتي بالمال؟» أجاب بدون خوف:

- «سأنهب السوق».

- «لا حاجة لأن تقوم بمثل هذا العمل، يمكنك أن تستخدم مجوهراتي».

- «على أي حال، سوف لن يقبل أمين الصندوق بالرشوة. لكن هناك طريقة سهلة التنفيذ».

- «ما هي؟»

- «الأفضل ألا تعرفيها. إنها فعلاً بسيطة جداً».

- «لكنني أود معرفتها».

أخرج آموليا من جيب سترته نسخة من كتاب «الجيتا» ووضعه على الطاولة، ثم أخرج مسدساً صغيراً وأراني إياه لكنه لم يزد قولاً.

فليمنعه الله! يا للفظاعة إنه لم يتردد لحظة واحدة ليقرر قتل صرافنا العجوز الطيب. مع أن وجهه كان يبدو بريئاً لدرجة تظنه أنه غير قادر على قتل ذبابة، لكن الكلمات التي صدرت عنه كانت مختلفة تماماً. فهو لا يمكنه أن يفهم فهماً تاماً ما هي مكانة الصراف الكهل في العالم، فهو لم يكن يرى سوى سماء فارغة مكانه، سماء لا حياة فيها ولا شعور بالألم، إنما فقط عبارات محفوظة من «الجيتا»: «من يقتل الجسد فهو يقتل عدماً[1]». فصحتُ به أخيراً:

- «ما الذي تعنيه يا آموليا؟ ألا تعلم أن عزيزنا ريموشه له امرأة وأطفال...» فقاطعني قائلاً:

- «أين يمكنني أن أجد في هذه البلاد رجلاً ليس له زوجة وأطفال؟ إن الشيء الذي نسميه شفقة ليس في صميمه إلا إشفاقاً على أنفسنا؛ إننا لا نستطيع أن نحتمل جرح غرائزنا الرقيقة ولهذا لا نضرب أبداً، الشفقة، إنها قمة الجبن!»

أذهلني سماع عبارات سانديب من فم ذلك الصبي. كم كانت سذاجته جميلة محببة، كان في تلك السن التي لا تزال تستطيع أن تؤمن بالخير على

---

(١) إنها آيات من الـــ "بهاغافاد جيتا Bhagavad Gita" التي تؤكد على تفوق وأولوية الروح على الجسد.

إنه خير، في تلك السن التي يحيى فيها المرء حقاً وينمو. استيقظ شعور الأمومة فجأة في داخلي!، لم يبقَ خير ولا شر بالنسبة إليَّ، لم يبقَ خير ولا شر، لم يبق سوى الموت صورة جذابة لموت عذب وسامٍ. لكن جسدي كله ارتجف لسماع هذا الغلام ذي الثامنَ عشرَ ربيعاً يتحدث بهدوء عن قتل شيخ بريء مسالم معتبراً هذه الجريمة مهمة جهادية يتوجب عليه القيام بتنفيذها دون تردد! لكن عندما تبين لي أنه ليس آثم لا بطبعه ولا بنفسيته، بل إن الإثم فقط في تلك العبارات التي يطلقها بأسلوب ماهر جداً، رأيتُ فيه طفلاً بريئاً يحمل خطايا آبائه.

مس أوتار قلبي منظر عينيه البريئتين اللتين تلمعان إيماناً وإيحاءً، لقد كان منطلقاً كالمسحور حتى كاد أن يدخل في فك الثعبان. ومن ذا الذي سينقذه؟ لماذا لا تنهض أمتي وتتنكب وظيفتها كأم حقيقية وتحتضنه وتتبناه؟ ولماذا لا تقول له: «ماذا ينفع إنقاذك لي إن أنا لم أستطع حمايتك؟»

أعلم أن كل قوة الأرض تتعاظم حين تلتحم بالشيطان لكن هناك «الأم» التي تضعِف هذا التقدم الشيطاني العظيم وتبطل روعته وتقف ضده ولو كانت وحدها. إن الأم لا تبالي فقط بتنفيذ مهمة ولا بالنجاح وحده مهما يكن عظيماً، إنها تريد أن تمنح الحياة وأن تحمي أبناءها وتنقذ الحياة، وإني اليوم بكامل كياني روحاً وجسداً، في توق لضم هذا الفتى بين ذراعي لإنقاذه وحمايته.

منذ لحظات، أوحيتُ له بالسرقة، فإن أوحيتُ له الآن بعكس ما طلبتُ منه، ومهما أقلْ له إني منفرة من هذه الخطوة، فسيضحك وسيفسر ذلك على أنه ضعف المرأة. الفتيان لا يقبلون ضعف المرأة إلا حين يكون للفتنة ودمار العالم. قلتُ له أخيراً:

- «لا حاجة الآن أن تفعل شيئاً يا آموليا سأتدبر أمر النقود، إنها مسؤوليتي». ولم يكد يبلغ الباب حتى ناديته ليعود إلي وقلتُ له:

- «آموليا، إنني بمثابة أختك الكبيرة، واليوم هو ليس ذكرى يوم الأخ[1] في التاريخ، لكن كل أيام السنة بعددها الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً يمكن أن نحتفل فيها على أنها يوم «الأخ» فلتكن بركتي معك، وليحرسك الله دائماً وأبداً من الأذى والسوء».

فوجيء آموليا بهذه الكلمات غير المتوقعة مني فوقف برهة لا يتحرك ثم عاد إليه إدراكه فركع أمام قدمي، وأحنى رأسه احتراماً وقبولاً منه لهذه الصلة.

آه! يا أخي الصغير! إنني مسرعة بشكل فعلي إلى موتي بكل الأحوال، لكني آمل أن أحمل معي كل أعباء خطاياك، فأنت سوف لن ترتكب أي ذنب ولن تلوث براءتك بحضّ مني. فقلتُ لآموليا:

- «عليك أن تعطيني مسدسك كعربون منك لاحترام تعهدك».

- «لكن ما حاجتكِ إلى المسدس وماذا ستفعلين به يا أختي؟»

- «سأتدرب بواسطته على كيفية الموت».

- «هذا ما نبتغيه يا أختي، حتى المرأة عليها أن تتعلم كيف تقتل وكيف تموت». قال آموليا هذه الكلمات وأعطاني المسدس.

عندما غادرني هذا الفتى آموليا أحسستُ وكأنه أضفى على حياتي لمسات صافية مشرقة تبرق من وجهه الفتي كأشعة الشمس عند الفجر. فوضعتُ المسدس في صدري بين الملابس، وقلتُ في نفسي فلتكن هذه الهدية التي هي بمناسبة عيد آموليا «الأخ»، آخر ملجأ أنقذته لنفسي.

وجدتْ غريزة الأم في قلبي الأنثوي فجأة مخرجاً ومتنفساً لها هذه الأيام، وبدت وكأنها ستظل مفتوحة أبداً، ولكن هذا المعبر إلى الخير الأسمى أُغلِقَ حين حلت الحبيبة محل الأم موصدة باب سرّ الأمومة المقدس.

---

(١) "Bhai Phota بهي فوتا" هو الإحتفال السنوي بـــ «يوم الأخ» وفيه تقوم الأخوات بدهن جبهات إخوتهن بمرهم خشب الصندل، وبالكحل والزبدة السائلة كإماءة صلاة من أجل العمر المديد والسلامة.

في اليوم التالي نفسه قابلتُ سانديب، فاجتاح قلبي مرة أخرى ابتهاج غامر وبدأ يرقص ويعربد كالمجنون الأعزل إلا من حماقته القصوى. ماذا كان ذلك؟ أهذه هي طبيعتي إذاً؟ أهي نفسي في أصدق حالاتها؟ كلا، أبداً ليست هي! إنني لم أصادف في حياتي مثل هذه الصفاقة الرائعة، فأنا لم أكن أعرف قط هذه النفس المستهترة القاسية فيَّ.

لقد جاء الساحر فجأة وأخرج الثعبان من بين طيات الساري الذي ألبسه، لكنه لم يكن بين هذه الطيات قط، ربما كان داخل شال الثعبان الساحر نفسه. شعرتُ وكأنني ممسوسة أو مسكونة بنوع من الأحاسيس الشيطانية، لكن كل ما أفعله اليوم هي أفاعيل الشيطان ولا شأن لي بها.

لقد جاءني اليوم هذا الشيطان بذاته وبمشعله الساطع قائلاً: «أنا أمتك أنا هو رجلك سانديب، ولن يكونَ لك من هو أعظم مني، أنا أقرب إليك من كل ما لديك». «باندي ماتارام!»

وأجبته وقد كتفتُ يدي: «أنت ديني، أنت جنتي- سأترك كل شيء أملكه وأرتد لعقيدة حبي لك. باندي ماتارام!» أتريد خمسة آلاف روبية؟ حسناً، فلتكن خمسة آلاف! تريدها غداً؟ غداً تأخذها! بهذه الجرأة وهذا التسيب، ستبرز هدية الخمسة آلاف روبية كزبد خمر معطر على حواف الكأس، يليها احتفال السكر والعربدة.

ستزلزل الأرض الراسخة تحت أقدامي، وستلمع عيناي شرراً وستزأر في آذاني عاصفة، وأنا غير قادرة على إدراك ما ينتظرني، أتراني أسير بخطىً مترنحة إلى موتي؟ وفي لحظة تخمد النار المشتعلة كلها وتذوي ويُنثر رمادها في الهواء ولا يبقى شيء بعدنا.

لا أزال حتى هذه اللحظة حائرة في أمري وغير قادرة على تحديد مصدر يمكنني منه الحصول على النقود. لكن وسط هذا الهياج الرائع وهذا القلق الهائل، مَثلتْ أمامي الصورة بوضوح واتخذت شكلاً واقعياً.

اعتاد زوجي في كل عام في موسم أعياد «الدورغا بوجا[1]» أن يقدِّم لكل أرملة من أرامل أخويه هدية إجلال مقدارها ثلاثة آلاف روبية، ويودع المبلغ في كل عام باسمهما في المصرف بغية كسب بعض الفوائد من الرصيد الرئيسي؛ وكالعادة قدم لهما الهدية هذا العام أيضاً، لكنه لم يرسل هذا المبلغ إلى المصرف بعد، وأنا أعرف أين هو هذا المال الآن، لقد كان موضوعاً بشكلٍ مؤقت في صندوق فولاذي في غرفة الجلوس الصغيرة المجاورة تماماً لغرفة نومنا.

وكان زوجي في كل عام يأخذ هذه النقود بنفسه إلى كالكتا ليودعها في المصرف هناك، لكن لم يتح له هذا العام القيام بهذه المهمة. فكيف يمكنني ألا أؤمن بالعناية الربانية؟ لقد اُبقيَتْ النقود هنا لأن الأمة بحاجة إليها وفي عُرفنا متى طلبتها وجدتها. من ذا الذي يستطيع أن ينقل المال إلى المصرف؟ إن آلهة الدمار قد وضعت كجة تسولها واستجدائها أمامي وقالت إنها تموت جوعاً، وطلبَتْ النقود. بإعطائي الخمسة آلاف روبية هذه أكون قد أعطيتُ دماء قلبي.

آه! يا أمنا العظيمة السامية أولئك الذين فقدوا مالهم فقد فقدوا الشيء اليسير، لكنك جعلتني أنا مفلسة تماماً في هذه العملية.

كثيراً ما كنتُ في الماضي أسمّي سلفتّي باللصتين لأني كنتُ أتهمهما بخداع زوجي الطيب كي تبتزا منه النقود، وكنت أقول له مراراً إنهما بعد موت زوجيْهما لجأتا إلى إخفاء الكثير من الأشياء التي هي ملك الولاية، ونبهته مرات عديدة لهذه الناحية لكنه لم يكن يجيب على ادعائي ضدهما وكان يلزم الصمت على الدوام، فكنت أثور وأغضب وأقول: «إن كنت تريد أن تكون محسناً، أعطيهما أنت بنفسك، لكن لماذا تسمح لهما بالسرقة منك؟» لا بد أن الآلهة تكشر الآن بتهكم من شكواي، فأنا عازمة اليوم على القيام بالعمل نفسه، سأسرق نقودهما من خزنة زوجي.

---

(١) Durga Puja.

كانت من عادة زوجي أن يبدل ملابسه ليلاً في غرفة الجلوس الداخلية نفسها، كما كانت عادته أيضاً أن يترك مفاتيحه في جيوب ملابسه حين يخلعها قبل النوم ويدعها في هذه الغرفة. فأخذتُ مفتاح الخزانة الفولاذية وفتحتها وخيل إليّ أن الصوت الصغير الذي أحدثته سُيوقظ العالم بأسره، واعترتني قشعريرة مفاجئة جعلت يديَّ وقدميَّ باردتين كالثلج وارتجف جسدي بأكمله من رأسي إلى قدميّ.

كان في داخل الخزنة الفولاذية درج جارور، وحين فتحته لم أجد في داخله عملة ورقية، كانت فقط قطعاً ذهبية ملفوفة بقطع ورقية، ولم يكن لدي الوقت الكافي لأعدّ كم قطعة ذهبية يوجد داخل كل لفافة وإلى كم قطعة أحتاج. كان هناك عشرون لفافة أخذتها جميعها وربطتها في حاشية الساري الذي ألبسه.

لقد كانت ثقيلة الوزن، كاد قلبي يسقط رازحاً تحت عبء هذه السرقة، لعلها لو كانت أوراقاً مالية لبدا الأمر أقل شبهاً بالسرقة لكنها كانت كلها ذهباً!

بعد أن تسللتُ إلى غرفتي في تلك الليلة كلصة، بدت لي وكأنها لم تعد غرفتي. عندما سرقتُ من الغرفة نفسها التي أتمتع فيها بحقوق الملكية، أكون قد فقدتُ هذه الحقوق. فمضيتُ أتمتم منشدة: «باندي ماتارام! باندي ماتارام! الأمة، أمتي! أمتي الذهبية! كل الذهب هو ملك الأمة، وليس لأحد غيرها».

لكن قلبي ضعف في عتمة الليل، وكان زوجي نائماً في الغرفة المجاورة أغمضتُ عينيّ وخرجتُ، وذهبتُ إلى شرفة الجناح الداخلي وتمددتُ فوق غنيمتي المربوطة بحاشية الساري، فبدت هذه اللفات الورقية المليئة ذهباً وكأنها ترن داخل صدري.

جلس الليل الصامت على حافة سريري مصوِّباً سبابة اتهامه نحوي، لم أستطع أن أفصل بيتي عن أمتي، فبنهب غرفتي اليوم أكون قد سلبتُ الأمة، وجزائي على هذه الخطيئة أن فقدتُ بيتي وأمتي معاً. لو أني تسولتُ طالبة إحساناً في سبيل خدمة الأمة، وحتى لو أني متُ دون أن أتمم هذه الخدمة،

لكان هذا الطقس الذي تعذر تحقيقه هو من أعمال عبادتي وتقديسي ولتقبَّله الله مني، لكن السرقة ليست عبادة، فكيف يمكنني أن أقدمها لأمتي؟ ألا أكون على وشك تدمير الأمة من عبء بضاعتي المسروقة؟ فأنا سأموت إن عاجلاً أم آجلاً، فلماذا أفسدُ الأمة بتشبثي بالمال بهذا الشكل؟

لا سبيل لي الآن لإعادة النقود إلى الصندوق الذي كانت فيه فقد أغلِقَ الدربُ إذ ليس لدي القوة للعودة إلى تلك الغرفة في الليل وإعادة فتح الخزنة بالمفتاح ثانية، فلو كان عليَّ فعل ذلك لانهرتُ وأغمي عليّ على عتبة غرفة زوجي. فالسبيل الوحيد الباقي لي هو السير قدماً إلى الأمام.

لم يكن بإمكاني أن أجلس بهدوء وأعدّ النقود التي أخذتها حيث بدا فعلاً أمراً مربكاً ومزعجاً جداً بالنسبة إليّ، فتركتها كما هي، ولم أقم بإجراء مراجعة حسابات لسرقتي.

لم يكن هناك ضباب يغشي سماء تلك الليلة الشتوية، بل كانت النجوم تلمع متلألئة مضيئة. فقلتُ في نفسي متسائلة وأنا راقدة هناك، لو كان عليّ باسم الأمة أن أسرق النجوم المحفوظة في قلب الظلمة واحدة تلو الأخرى كما لو كانت قطعاً ذهبية فسيؤدي غيابها إلى ترمل الليل إلى الأبد، ولفقدَتْ السماء عيونها التي تبصر بها، وأكون بذلك قد سرقتُ الكون من بابه الواسع، لكن الذي سرقته اليوم لم يكن سرقة نقود فحسب بل سرقة النور الأبدي للكون كله، وسرقة اليقين والإيمان من العالم أجمع.

قضيتُ الليل راقدة في الشرفة، ولما أيقنتُ أن زوجي قد استيقظ وغادر الغرفة، لففتُ الشال حول جسدي وسرت ببطء باتجاهها. كانت سلفتي الكبيرة في هذه الأثناء تجول على شرفتها تسقي نباتاتها بقدرها النحاسية، فحالما رأتني صرخت تقول:

- «هل سمعتِ الأخبار يا أميرتنا الصغيرة؟»

فوقفتُ صامتة جامدة بمكاني - وبدأ قلبي ينبض بسرعة، شعرتُ وكأن الجنيهات الذهبية المعلقة بحاشية الساري قد برزت زيادة عن اللزوم من تحت الشال، أو كأن الساري سيتمزق وستتبعثر منه قطع النقود محدثة برنينها ضوضاء على كل الشرفة،عندها سيصرخون مرددين أن لصة نهبت ثروتها الخاصة وأفلست من جراء هذه العملية، وستعرض الحادثة أمام وصيفات وخدم المنزل، وحينها يا للفضيحة!!

فقالت سلفتي الكبيرة:

- «لقد كتبتْ لنا» عصابتكِ من لصوص ديبي شودهوراني[1]» رسالة مجهولة أعطتها إلى الأمير نيكهيل تهدد فيها بسرقة صندوق المال».

أما أنا فبقيتُ صامتة صمت اللصوص. وتابعتْ سلفتي:

- «رجوتُ أخي نيكهيل أن يستنجد بك؛ فامنحينا رضاكِ أيتها الإلهة وأوقفي صبيانك عنا. سنقسم بباندي ماتارام، ونقدم لها القرابين إن أنتِ أنقذتنا. ما أعجب ما يجري في هذه الأيام! لكن بحق الله لا تبقي على اللصوص داخل بيتكِ».

أسرعتُ باتجاه غرفتي دون أن أجيب. لقد وضعتُ قدمي في رمل مغرق سيَّار ولم يعد باستطاعتي الخروج منه في الوقت الحاضر، لأنه كلما اضطربتُ لانسحب زادني ذلك غوصاً في الرمل. آه لو أني أستطيع التخلص من القطع الذهبية العالقة في حاشية الساري وأضعها بين أيادي سانديب، عندها سأشعر بالارتياح؛ فأنا لم يعد باستطاعتي تحمل مثل هذا العبء بعد اليوم – لقد كاد ثقله يحطم أضلعي.

سمعتُ في ذلك الصباح نفسه أن سانديب كان بانتظاري، فلم أبالِ يومها لا بملبسي ولا بزينتي بل لففت الشال حول جسدي وأسرعتُ إلى الغرف

---

(١) Debi Choudhurani (١٨٨٤) ديبي شودهوراني، رواية ألفها "بانكيم تشاندرا تشاترجي Bankim Chandra Chaterjee" وفيها يروي تاريخ ملكة لصة تسرق من الأغنياء لتعطي الفقراء.

الخارجية؛ وحين دخلتُ الغرفة وجدتُ فيها سانديب ومعه آموليا، فشعرتُ أن كل ما تبقى لي من شرف وكرامة يتدفقان من جسدي سفاحاً على الأرض لأصاب بعدها بالخدر التام؛ هل محتَّم عليَّ الآن أن أكشف أقصى عار لامرأة أمام هذا الفتى بالذات؟ سوف يتحدثون عن فعلتي هذه – عن سرقتي – في اجتماعهما مع الفصائل، ولن يهمهما حفظ أو ستر خصوصيتي.

نحن النساء لن نفهم الرجال أبداً. عندما يمتطون صهوة طموحاتهم فهم لا يترددون ولا يبالون بأن يسحقوا قلب العالم ويطحنوه تراباً ليعبِّدوا به درب رحلتهم. وعندما تستحوذ عليهم فكرة الخلق بأيديهم يستمتعون بتدمير خلق الله. إنهما حتى لم يلاحظا خجلي الذي يفطر القلب، ولم يأبها بمشاعري، كل قلقهما مركز على تحقيق أغراضهما. وا حسرتاه! ما أكون أنا بالنسبة إليهما! مجرد زهرة على جانب الطريق في وجه سيل دفاق.

لكن ما هي مصلحة سانديب بتدميري بهذا الشكل؟ هل هي بكل بساطة الخمسة آلاف روبية؟ ألست أساوي أكثر من ذلك بكثير؟ طبعاً كنت أساوي الدنيا وما فيها، هذا ما أقنعني سانديب بتصديقه، فعندما كنتُ أسمع مديحه لي كنتُ مستعدة أن أترك الأرض والدنيا وكل شيء في هذا العالم وألحق به؛ لقد تحررتُ وبرزتُ وعبَّرتُ عن نفسي بالمعتقد السعيد المبارك بأنني سأنشر نوراً ثقافياً وأمنح سلطة، وأرتقي فهماً وأصبح خالدة. ولو أن أحداً حقق لي هذه السعادة لكنتُ شعرتُ أنني برئتُ حتى في موتي، وما فقدتُ أي شيء رغم أن بيتي كله تدمر بهذه العملية.

هل يريدان أن يقولا لي الآن أن كل ذلك كان كذباً؟ أليس عند الإلهة التي تسكن في داخلي القدرة على توفير الحماية لنصيريها؟

ألم تكن غاية نشيد التزلف الذي سمعته، والذي أنزلني من السماوات إلى تراب العالم السفلي، بسط الجنة على هذا التراب نفسه؟ أم أن الغاية كلها كانت تدمير السماء؟ نظر سانديب إلي بنظرته الحادة وقال: «يا ملكتي، نحتاج

للمال». أما آموليا فاستمر بالتحديق بي، فهذا الفتى، صحيح أنه لم يولد من رحمي لكنه ولد من رحم أم وكل الأمهات سواء في كل بقاع الأرض. وا أسفاه! على وجهه البريء وعيونه الصافية وسنين شبابه! وأنا امرأة كأمه، لقد كان طلبه: «أعطني بعضاً من السم» وهكذا كان، رباه! كيف استطعتُ أن أقدِّم له ذلك السم الذي طلبه؟ «يا ملكتي، نحتاج للنقود».

رن سؤال سانديب الوقح في أذني وودتُ لخجلي وغضبي أن أقذف بثقل العملة الذهبية على رأسه. بدأتْ أصابعي ترتجف ارتجافاً شديداً حين حاولتُ حل عقدة الساري، لكن عندما سقطت لفافات الورق على الطاولة، اكفهر وجه سانديب ربما ظن أنها من العملة الهندية التي تساوي أجزاء من الروبية. أي احتقار كان في نظراته! وأي ازدراء قاس من عجزي! شعرتُ عندها وكأنه يهم في ضربي! ربما اعتقدَ أني جئتُ لأفاوضه لتخفيض مبلغ الخمسة آلاف التي طلبها إلى بضع مئات من الروبيات. وفي لحظة من الزمن ظننتُ أنه سيخطف اللفافات ويرشقها من النافذة معلناً أنه ليس متسولاً بل ملك يطلب الجزية.

فسألني آموليا: «ألا يوجد أكثر من ذلك يا «أميرة؟» كان صوته كله حنو وددت لو أستطيع الصراخ والبكاء، لكني تماسكتُ تماماً واستعدتُ قوتي واكتفيتُ بأن أومأتُ له برأسي. ظل سانديب واجماً، لم يلمس اللفافات ولم ينطق بكلمة. هممتُ بالمغادرة لكن أقدامي ظلت جامدة في مكانها، لو أن الأرض انشقت نصفين وابتلعتني لاندفنتْ فيها ورطتي ولارتاح هذا الجسد الحقير وسُتِر في وحله. مست مذلتي قلب الفتى فقال بحماسة مفاجئة مصطنعة:

- «هذا ليس بالمبلغ القليل! إنه أكثر مما نحتاج، لقد أنقذتنا يا أميرة».

بعد أن قال هذه الكلمات مزق غطاء اللفافات وبرقت الجنيهات الذهبية. وفي لحظة بدا وكأن الغشاوة المظلمة قد انقشعت عن وجه سانديب، فأشرق وجهه ولمعت عيناه تهللاً وابتهاجاً وفقد التحكم بانقلاب مشاعره، قفز عن

الديوان وركض باتجاهي، ولست أدري ماذا كان ينوي فعله، لكن بلمح البرق نظرتُ إلى آموليا فإذا بوجه الفتى قد شحب من تأثير اللسعة المفاجئة، دفعتُ سانديب عني بكل ما أوتيتُ من قوة، ففقد توازنه وارتطم رأسه بحافة المنضدة الرخامية وسقط على الأرض، وبقي حيث هو لا يتحرك لبعض الوقت. أما أنا فقد أنهك المجهود قواي فانهرتُ على المقعد. وتألق وجه آموليا غبطة وفرحاً حتى أنه لم يلتفت إلى سانديب بل أقبل وجلس عند قدمي ومسح التراب عنهما.

آه! يا أخي! آه يا ولدي! إنَّ لمستك لقدمي تحية وإجلالاً كانت آخر قطرة شراب من الرحيق الإلهي بقيت لي من عالمي المقفر. لم أعد أتمالك نفسي، وفاضت دموعي انسكاباً، فغطيتُ وجهي بطرف الساري وأجهشتُ بالبكاء منتحبة قهراً وغضباً. وكلما شعرتُ بلمسة آموليا الرقيقة على قدمي محاولاً تهدئتي تجددت نوبة بكائي.

سيطرتُ بعد قليل على نفسي وكبحتُ دموعي وفتحتُ عيني لأرى سانديب جالساً حول المنضدة يجمع الجنيهات في منديله وكأن شيئاً لم يحدث. نهض آموليا من مكانه وعيناه تفيضان بالدموع، لكن كل ذلك لم يمنع سانديب من النظر إليّ بكل برود قائلاً:

- «إنها ستة آلاف روبية». فقال آموليا:
- «ما حاجتنا إلى هذا القدر يا سانديب بابو، لقد قمنا بإجراء حساباتنا ووجدنا أن كل ما يلزمنا لعملنا في الوقت الراهن ثلاثة آلاف وخمسمائة روبية». فأجاب سانديب:
- «إن حاجتنا ليست مقتصرة على العمل الفوري والمباشر الذي نقوم به الآن، كما أنه ليس مخصصاً لهذا المكان وحده، ترى هل هناك حدود لمطالبنا؟»
- «فليكن، لكني أتعهد أن آتيك بكل ما نحتاج إليه في المستقبل، لكن أرجوك أن ترد الألفين والخمسمائة إلى الأميرة».

فنظر سانديب إليّ مستفهماً فبادرته بالقول:

- «كلا، كلا، لا أريد أن أمسَّ هذه النقود ثانية، أرجوك افعل بها ما يحلو لك».

فنظر سانديب إلى آموليا وقال:

- «هل يستطيع الرجال أن يعطوا كما تعطي النساء؟» فوافقه آموليا بنشوة:
- «يا لهن من آلهات!» ومضى سانديب يقول:
- «نحن الرجال نستطيع على الأكثر أن نساهم بطاقتنا، لكن النساء يتنازلن عن أنفسهن. يحملن الأطفال من لدنهن وليس من الخارج، ويقمن بتربيتهن، إنهن هبة حقيقية من الله». ثم التفت إلي قائلاً:
- «يا ملكتي! لو كان ما أعطيتنا إياه هو المال وحده لما لمسته ولكنكِ أعطيت ما هو أكبر عندك من الحياة نفسها!»

لا بد أن لدى الإنسان على الأرجح نوعين من الإدراك الحسي والقدرة على الفهم. ففي إدراكي الحسي وفهمي الأول عرفتُ أن سانديب كان يحاول خداعي، أما الإدراك الآخر فكان راضياً بأن يُخدَع. سانديب ليس شخصاً متميزاً لكن لديه قدرة فائقة، لذلك بعد أن بعث الحياة في داخلي عاد في الوقت نفسه وضربها حتى الموت؛ لديه جعبة الآلهة التي لا تنضب، لكن السهام فيها من الأبالسة. لم يتسع منديل سانديب للنقود كلها فسألني:

- «يا ملكتي، هل يمكنك أن تعطيني منديلاً آخراً؟» وحالما أخرجتُ المنديل وأعطيته إياه، لمس به جبينه احتراماً، ثم جلس فجأة عند قدمي ولمس التراب بجبينه وأحنى رأسه قائلاً:
- «يا إلهة! إنما أنا أسرعتُ واقتربتُ منك لأقدم تحية ولائي وإجلالي، ولكنك رفضتني ودفعتني حتى سقطتُ على الأرض، فإن رفضك مقدس ومبارك وأقبله بكل تواضع».

قال ذلك وأشار إلى موضع الصدمة في رأسه. هل أسأتُ فهمه إذن؟ هل كانت يداه الممدودتان موجهتين إلى قدميّ حقاً؟ لقد اعتقدتُ أن النشوة التي

فاضت فجأة من عينيه ووجهه كانت واضحة أيضاً لآموليا نفسه. لكن سانديب بارع في وضع الموسيقى لأغنية ثنائه بحيث لا أستطيع بعدها جدالاً، كما أن عينيَّ اللتين من المفروض ألا تشاهدا إلا الحقيقة أسدلتا الجفنين من نشوة الأفيون الذي استنشقتُه. وردَّ لي سانديب الضربة التي أنزلتها به ضعفيها قوة وعنفاً، وبدأ الجرح في رأسه ينزف في قلبي دماً. لكن بعد ذلك، حين تلقيتُ تحية سانديب توقيراً وإكباراً، اكتسبتْ سرقتي مجداً وكرامة، وبدت جنهيات الذهب على الطاولة متلألئة ضاحكة، تسخر من كل النقد الاجتماعي ومن كل خوف العار ووخز الضمير ومن الصدمة التي هزت حسّي المناقبي.

لقد فُتِنَ آموليا مثلما فتِنتُ أنا تماماً بل كان وكأنه منوَّم مغناطيسياً، فعاد احترامه لسانديب يقوى ثانية بعد أن كان قد تراجع لفترة قصيرة، وتجددت القرابين المزهرة في قلبه لتوقيري أنا وسانديب، وفاضت عيناه بعطر منعش من وثوقه البريء الساذج، ينبثق منها إيمانه المشع كنور نجمة الصباح. بعد أن قدمتُ فروض العبادة والتقديس، بدأتُ أتلقى إضاءة محتدمة على حساب ذنبي تتوهج لمعاناً وحرارة. وحين نظر آموليا إلى وجهي كتف يديه احتراماً وقال: «باندي ماتارام!»

لكني لم أكن استطيع سماع كلمات النشيد في كل وقت، ولم تكن لدي الوسائل الضرورية للمحافظة على احترامي لنفسي. فأصبح من الصعب عليَّ دخول غرفة نومي، كأن سريرنا يمد يده ليمنعني والخزانة الفولاذية تعبس في وجهي، شعرتُ وكأنني أهربُ من هذه الإهانة التي جلبتها لنفسي والتي تؤرقني وتوخز وجداني، لأذهب إلى سانديب كي يُسمعني مديحاً أتشجع به، فلم يبقَ لي في العالم سوى هذا الهيكل الصغير لعبادتي وسط كهوف هواني وذلي، فأي خطوة بعيدة عنه لن تُجْدِني نفعاً، لذلك أردتُ الاعتصام به ليلاً نهاراً، منتظرة بفارغ الصبر سماع إطرائه وثنائه لي متمنية أن يستمر دهراً، فأي نقص في كأس نشوتي سيقتلني. أتشوق كل يوم لسماع كلمات سانديب لأنني أحتاجه في عالمي لتحقيق قيمة وجودي في هذه المرحلة الحرجة من حياتي.

عندما يأتي زوجي ظهراً لتناول وجبة الغذاء، لم أعد أحتمل في هذه الأيام فكرة الجلوس أمامه، غير أنه من المحرج جداً ألا أجلس في مكاني الاعتيادي، فهذا أمر لا أستطيع فعله أيضاً، لذلك عمدتُ إلى الجلوس خلفه بحيث لن أجبر على مواجهته، وبقيتُ أجلس على هذه الصورة، إلى حين دخلت سلفتي منذ أيام وانضمت إلينا ثم قالت:

- «لكَ أن تضحكَ يا أمير من خطابات التهديد التي تأتينا من عصابة السلب والنهب، لكنها تخيفني كثيراً. ألم ترسل النقود التي أعطيتنا إياها إلى مصرف كالكتا بعد؟»
- «كلا، لم أجد وقتاً كافياً لذلك».
- «ألا ترى يا أخي العزيز أنك مهمل، ينبغي أن تحترس، فهذه النقود...» فقال زوجي وهو يضحك مطمئناً:
- «إنها في الخزنة الفولاذية في الغرفة الملاصقة لغرفة نومي».
- «ومن قال إنهم لن يستطيعوا أخذها من هناك؟»

«إن استطاع أحدهم أن يسرق من هذه الغرفة فقد يسرقونك يوماً ما!»

- «آه! لا تقلق، لا أحد يبتغي سرقتي أنا امرأة مسكينة، هناك صيد ثمين في غرفتك جدير بالسرقة. أرجوك يا أمير دعكَ من المزاح الآن ولا تجازف بترك النقود في تلك الغرفة».
- «لا يزال أمامي حوالي خمسة أيام لإرسال العائدات السنوية، سأرسل النقود إلى مصرف كالكتا في هذا الوقت بالذات».
- «أرجوك يا عزيزي ألاّ تنسى الموضوع كله، فلنكن حذرين، إنك شارد الذهن وكثير النسيان هذه الأيام».
- «حتى إن سرق شيء ما من هذه الغرفة سيكون فقدُه مسؤوليتي – ولن تخسري شيئاً منها - ما المبرر كي تتحملي فقدانها يا أختي العزيزة؟»
- «يؤلمني جداً أن أسمع مثل هذه الكلمات يا أخي العزيز، هل ميزتُ يوماً ما بين مالك وبين مالي؟ لنفرض أن نقودك سرقت ألا يُعتبَر

ذلك إساءة لي أيضاً؟ أتراني لا اقدِّر حق التقدير قيمة سلفي وفضله عليّ، والذي تصرف مثل «لآكشمان»[1] بعد أن شاء الشيطان الرجيم أن ينتزع كل شيء مني في هذه الدنيا؟ إنني أختلف عن سلفتي الكبيرة فأنا لست من النوع الذي يمكن له أن يتضرع إلى الله طوال النهار والليل، فما منحني إياه الله لهو شيء عظيم جداً. لكن لماذا أنتِ صامتة كدمية خشبية يا بيمالا؟

أتعرف يا أخي العزيز، بيمالا تعتقد أني أتملقك، حسناً إن كان عليَّ أن أفعل ذلك فلن أتردد لحظة واحدة لأقوم به، لكن هل تراك يا سلفي العزيز من أولئك الذين يحتاجون التملق؟ لو كنتَ كذلك لنسيَتْ سلفتي الكبيرة استرضاء آلهتها – ولأمضتْ أيامها تلتمس رضاكَ، ولكان ذلك أنفع لها من الانتقادات التي تقوم بها».

وهكذا مضت سلفتي تثرثر بهذه الطريقة لكن في الوقت نفسه تلفت انتباه سلفها بين الفينة والأخرى إلى هذه الطرفة أو تلك بينما يُقدَّم له على المائدة ما لذَّ وطاب من ألوان ثمار البحر كالقريدس وغيره. أما أنا فكان رأسي في هذه الأثناء يدور، إذ ليس هناك من وقت أضيعه – لا بد لي من إيجاد مخرج من هذا المأزق حالاً وسريعاً.

بينما كنت أسائل نفسي عما يمكن لي فعله، كانت ثرثرة سلفتي أشق احتمالاً عليَّ من أي شيء آخر، لأن عينيها الحادتين لم يكن ليفوتهما شيء وكانت بين الفينة والفينة ترمقني بارتياب ولستُ أدري ماذا استطاعت أن تقرأ في وجهي لكن كان يخيّل إليّ أن كل شيء مكتوب عليه بوضوح.

لقد كنتُ بمنتهى الجرأة والتهور عندما تصنعتُ ضحكة وقلتُ بنبرة مازحة:

---

(١) من أبطال الرامايانا: قصة وفائه لأخيه الأكبر راما وزوجة أخيه سيتا، حيث أصبحت مضرب الأمثال.

- «في الحقيقة أرى سلفتي تشكك بي أكثر من أي شخص آخر – كل ما تدعينه بشأن عصابة اللصوص هو مجرد هراء».

ابتسمت سلفتي بخبث وقالت:

- «أنت على حق، إن سرقة النساء هي أفدح السرقات، ولكن لا يمكنك أن تفلتي من قبضتي، فأنا في النهاية لست رجلاً فكيف ستستطيعين خداعي؟»

فقلتُ لها:

- «إن كنتِ قلقة إلى هذا الحد، دعيني أعطيكِ رهناً بكل ما أملك من مال ليكون ضماناً في حال أي خسارة حصلت لك، فيصبح بإمكانك اقتطاعها من هذا الرصيد المرهون عندك».

ابتسمت سلفتي والتفتت إلى زوجي وقالت:

- «اِسمع ما تقوله أميرتنا الصغيرة الساذجة! ألا تعلم أن من الخسائر ما لا يعوِّضه ضمان لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر؟»

لم يدخل زوجي في نقاشنا هذا كله وعندما فرغ من طعامه ذهب إلى الجناح الخارجي، فهو لم يعد في هذه الأيام يستلقي لقيلولته في الداخل. كانت كل مجوهراتي مودعة في الخزينة بعهدة الصراف. ومع ذلك فإن ما أحتفظ ُبه لا بد أنه كان يساوي ما لا يقل عن ثلاثين إلى خمسة وثلاثين ألف روبية؛ فأخذتُ صندوق حليي وذهبتُ به إلى غرفة سلفتي وفتحته أمامها وقلت:

- «إنني أتركُ هذه عندك يا أختي الأميرة، ستجعلك في مأمن من القلق». وضعت سلفتي يدها على خدها وقالت:

- «يا إلهي! إنك تدهشينني باستمرار يا أختي، يا أميرتنا الصغيرة، هل تعتقدين حقاً أنني لا أستطيع النوم ليلاً خوفاً من أن تسلبيني مالي؟»

- «أين الخطأ في ذلك؟ وماذا لو تخافين خوفاً ينفعك؟ كيف يمكن أن نعرف بعضنا بعضاً في هذه الدنيا يا أميرتي؟»

- «هل تحاولين تلقيني درساً تبرهنين فيه أنك تثقين بي؟ فأنا أجد بصعوبة مكاناً آمناً أحتفظ فيه بمجوهراتي، وفوق ذلك ينبغي علي أن أحرس مجوهراتكِ أيضاً! هناك كثير من الوصيفات والخدم يتجولون في كل أنحاء البيت – فأرجوكِ خذي حليك وعودي بها إلى مكانها يا عزيزتي الأميرة».

ذهبتُ فور خروجي من غرفة سلفتي إلى قاعة الاستقبال في الجناح الخارجي واستدعيتُ آموليا؛ فجاء ومعه سانديب أيضاً. كنت في عجلة من أمري إذ ليس لدي وقت أضيعه فقلتُ لسانديب: «معذرة أريد التحدث مع آموليا بشأن خاص، هل تسمح بأن ...» فابتسم سانديب ببرود وقال:

- «هل ترين أني وآموليا شخصان منفصلان عن يعضهما بعضاً؟ فإذا كنتِ تريدين إغراءه ليبعد عني فلن أستطيع منعه».

لم أجب على ذلك بل وقفت صامتة أنتظر. فقال سانديب:

- «حسناً ليكن ما تريدين، لكن بعد أن تنتهي حديثك مع آموليا عليك أن تمنحيني فرصة لحديث منفرد معكِ، أستطيع تقبّل كل شيء إلا الهزيمة، وينبغي أن يكون نصيبي على الدوام نصيب الأسد، فهذا كان نضالي مع القدر طوال حياتي..»

خرج سانديب من الغرفة بعد أن حدَّج آموليا بنظرة شريرة. فقلتُ لآموليا:

- «يا عزيزي، يا أخي الصغير! عليك أن تقوم بمهمة عاجلة من أجلي».

- «إنني مستعد للموت بامتثالي لأوامرك ولأي واجب تلقينه على عاتقي يا أختي الأميرة».

فأخرجتُ صندوقَ حليّ من بين ثنايا شالي ووضعته أمامه وقلتُ له:

- «أنا لا أهتم بكيفية تدبيرك للأمر لكن عليك إما أن ترهن هذه المجوهرات أو أن تبيعها ثم تجلب لي ستة آلاف روبية بأسرع وقت ممكن».

استجمع آموليا قواه وقال:

- «كلا يا أختاه، كلا – دعي هذه الحلى كما هي وأنا سأتدبر أمر توفير الستة آلاف روبية دون رهن حليك أو بيعها».

فقلتُ له وقد نفذ صبري:

- «دعك الآن من هذه الرقة ولم يعد لدي أي وقت أضيعه. خذ صندوق الحلى هذا واذهب به إلى كالكتا بقطار الليل، لكن ينبغي عليك أن تعود بعد غد تحديداً ومعك ستة آلاف روبية».

فتناول آموليا من الصندوق عقداً مرصعاً بالماس ورفعه إلى الضوء ثم رده إلى مكانه مكتئباً. فقلتُ له:

- «هذه الحُلى الماسية لن تباع أبداً بسعرها الحقيقي، لهذا السبب أعطيك مجوهرات بقيمة أكثر من ثلاثين ألفاً. وإنني لا أبالي إن ذهبتْ جميعها ولكن ينبغي في نهاية الأمر أن أحصل على الستة آلاف روبية دونما أي إبطاء».

فقال آموليا:

- «أتعلمين يا أختي الأميرة أنني اختلفتُ مع سانديب بابو لدرجة المشادّة الكلامية بشأن الستة آلاف روبية التي انتزعها منك. إنني لا أستطيع أن أصف لك مقدار خجلي منك. لكن سانديب بابو يرى أنه ينبغي أن نتخلى حتى عن خجلنا من أجل الأمة. قد يكون ذلك صحيحاً لكن هنا الأمر مختلف، لقد اكتسبتُ قوة داخلية تجعلني أموت وأقتل دون رحمة في سبيل الأمة، لكني لا أستطيع أن أنسى خزيي بأخذ النقود منك. ففي مثل هذه المواقف قد بلغ سانديب منها شأواً عظيماً وهو أقوى مني بكثير – فهو لا يشعر بمقدار ذرة ألم أو قلق بهذا الشأن، ويقول إنه ينبغي علينا التخلص من الوهم القائل إن النقود ملك لمن يتفق أن توجد في خزانته – وإن لم نستطع فأين هو مفعول نشيد باندي ماتارام وبماذا يفيدنا؟» وازداد آموليا حماسة وهو يتكلم، فحديثه يكتسب حرارة حين أستمعُ إليه. وتابع يتحدث:

- «يقول اللورد كريشنا في «الجيتا» أنْ لا أحد يمكنه أن يقتل الروح، فالقتل هو مجرد تعبير لا أكثر، كذلك سرقة المال من الآخرين، فلمن هو ذاك المال؟ إن أحداً لم يخلقه ولا أحداً سيأخذه معه حين يفارق هذه الدنيا، فالمال في النهاية، ليس جزءاً من روح الإنسان؛ المال هو اليوم لي وغداً لابني وبعده لدائني. وبما أن هذه النقود الجوالة ليست ملكاً لأحد، فأي لوم يمكن أن يتعرض له رجالنا الوطنيون خدام الأمة إذا هم أخذوها بدل تركها لولد فاسد لا رجاء منه؟»

حين أسمع كلمات سانديب يكررها هذا الفتى يبدأ قلبي ينبض بشدة من الرعب. فلندع من هم سحرة – الثعابين يلعبون على مزاميرهم ويسلوّن أنفسهم ما شاؤوا بتلك الثعابين حتى ولو أرادوا الموت بها. لكنني أتحسّرُ على هؤلاء الفتية الأبرياء الذين لا يزال عودهم أخضر ليناً، والقاعدة الأساس في العالم تبارك وتقدس حمايتهم. إنهم يلاعبون الثعبان جاهلين بطبعه وحين نراهم يبتسمون بثقة وهم يضعون أيديهم حيث تبلغ ناباه، عندها ندرك ما في الثعبان من خطر وبلاء فظيع. إن سانديب على حق حين يشك أني وإن رضيتُ لنفسي الموت بشباكه، لكني سوف أبعدُ عنه هذا الفتى قسراً وأنقذه. ابتسمتُ وسألتُ آموليا:

- «هل المال مطلوب ليكون بتصرّف رجالكم الوطنيين خدام الأمة؟» فرفع آموليا رأسه بفخر واعتزاز وقال:

- «أجل. في الحقيقة هم ملوكنا، والفقر ينتقص من طاقتهم الملكية. أتعلمين أننا لا نسمح أبداً أن يسافر سانديب بابو إلا في حافلة درجة أولى؟ وهو لا يتردد أبداً بقبول مثل هذه الرفاهية، إذ عليه المحافظة على مظاهر المهابة والكرامة ليس من أجله هو بل لعزتنا جميعاً. لقد قال لنا سانديب بابو إن جاذبية الثروة بفخامة مظاهرها هي أعظم سلاح لملوك الأرض، وليس التزام الفقر بالنسبة إليهم قمعاً للنفس فحسب بل هو انتحار».

وهنا دخل سانديب الغرفة بلا صوت فأسرعتُ إلى تغطية صندوق الحلي بشالي. فسأل بنبرة ساخرة:

- «يبدو أن جلستك الخاصة مع آموليا لم تنته بعد».

فقال آموليا وهو مرتبك قليلاً:

- «بلى لقد انتهينا ولم يكن أمراً ذا بال.» فقلتُ:

- «لا يا آموليا إننا لم نتهِ بعد». فقال سانديب:

- «على سانديب إذاً أن يخرج مرة ثانية؟» فقلتُ:

- «نعم».

- «وماذا عن عودة سانديب الثانية؟»

- «اليوم لا أستطيع، إن وقتي لا يتسع لمقابلة أخرى».

فقال سانديب وعيناه تعكسان حسداً:

- «وقتك لا يسمح إلا بالجلسات الخاصة. وليس عندك وقت تضيعينه سدىً»؟

إنه الحسد، عندما يبدي الرجل القوي ضعفاً فهنالك لا يملك الجنس الأضعف إلا أن يدق طبول النصر، وهكذا كررت بحزم:

- «إن وقتي لا يتسع».

خرج سانديب وقد اكفهر وجهه، وبدا آموليا قلقاً ومنزعجاً بشدة وقال: «يا أختي الكبيرة ويا أميرتي، إن سانديب بابو منزعج».

فقلتُ له بشي من الحدة:

- «ليس هناك من سبب يدعوه للغضب كما أن ليس له الحق في ذلك؛ دعني أحذركَ من شيء واحد يا آموليا»:

- «لا تخبر سانديب بابو بشيء عن بيع المجوهرات لو كلفك ذلك حياتك».

- «كلا لن أفعل».

- «فمن المستحسن إذاً ألا ننتظر، اذهب اليوم وخذ قطار الليل».

وخرجنا أنا وآموليا معاً فرأينا سانديب واقفاً في الشرفة. ولم يخفَ عليّ أنه كان منتظراً ليتصيد آموليا؛ ولأمنع ذلك وأحمي آموليا، كان لا بد لي من أن أشغله فبادرتُ بالقول:

- «ماذا أردتَ أن تقول لي يا سانديب بابو؟»
- «ليس لدي شيء بعينه أريد قوله، لكن لديّ بعض الحديث، وما دام وقتك لا يتسع...»
- «بل أستطيع أن أمنحكَ قليلاً منه».

وكان آموليا قد ذهب فسألني سانديب ونحن ندخل الغرفة:

- «ما ذلك الصندوق الذي حمله آموليا؟»

لم يخف الصندوق عن عينيه بيد أني ظللتُ راسخة في موقفي وقلتُ له:

- «لو كنت أريد إخباركَ لأعطيته إياه في حضوركَ!»
- «أتظنين أن آموليا لن يخبرني بشأن هذا الصندوق؟»
- «كلا، لن يفعل».

لم يعد سانديب قادراً على إخفاء غضبه، فانفجر صائحاً:

- «أتحسبين أنك ستعلين عليّ؟ آسف، إن ذلك لن يكون لك أبداً لأنه ليس بمقدورك أن تفعلي ذلك؛ فأنا لو أردتُ سحقه تحت أقدامي لمات وهو سعيد؛ هل تريدينه أن ينحني لك ويركع عند قدميك؟ هذا لن يكون ما دمتُ أنا على قيد الحياة».

آواه! الضعيف، الضعيف، أدرك سانديب أخيراً أنه ضعيف أمامي وهذا كان سبب غضبه العنيف. لقد فهم أنه لا يوجد قوة ممكن أن تفعل ضد مقدرتي. فأنا أستطيع بنظرة واحدة مني أن أجعل أقوى حصونه يتداعى، وهذا هو سبب فورته وهياجه، فكان لا بد له أن يلجأ إلى التهديد. اكتفيتُ بابتسامة احتقار صامتة. استطعتُ اليوم وبعد فترة قصيرة من الخبرة أن أعلو عليه حيث أصبح مستوى موقفي أقوى من موقفه – أتمنى ألا افقد هذا الموقع أبداً

ولا أن أهبط ثانية، فأنا أطمح في هذه الظروف البائسة، أن أبقي على كرامتي واحترامي لنفسي.

فقال سانديب:

- «أعلم أنه كان صندوق حليك».
- «لك أن تستمر بالتخمين ما تشاء ولكنك لن تظفر بشيء مني».
- «هل تثقين بآموليا أكثر مني؟ أتعلمين أن هذا الفتى هو ظل لظلي وصدى لصداي، وأنه لا شيء إن هو بعد عني»؟
- «يتجلى آموليا الحقيقي الأصيل عندما لا يكون صداكَ، وعندها أثق به أكثر مما أثق بصداك».
- «لا تنسي أنك أخذتِ على نفسك عهداً بأن تهبي كل حليك لعبادة الأم المقدسة، بل إنك في واقع الأمر قدمتِ هذه الهبة فعلاً».
- «إن أبقى الله لي على حليّ سأهبها قرباناً لقداسته، لكن كيف أهب حلياً سرقت مني؟»
- «انظري، أرجوكِ لا تحاولي المراوغة بهذه الطريقة، لقد حان وقت العمل العبوس، لدي مهمات كثيرة الآن ينبغي عليّ إنجازها ثم سأتفرغ للرد على حيلكِ النسائية وكيدكِ والمشاركة في تسليتك وفيما يبهج فؤادك».

منذ أن سرقتُ نقود زوجي وأعطيتها لسانديب، هبط الانسجام الداخلي في علاقتنا إلى أبعد مدى. لقد فقدتُ كرامتي وقيمتي وأصبحتُ رخيصة كعملة قديمة وفوقها فقدتْ قدرات سانديب مجال نشاطها في ممارسة التأثير حتى عليَّ أنا. فالإنسان لا يستطيع أن يصوِّب رمحاً على هدف هو في قبضته. فسانديب لم يبدِ سلوك أبطال، بل دخلت في كلماته نبرة سوقية ومزعجة في التحدي والتشاجر.

ظل سانديب مثبتاً عينيه اللامعتين على وجهي حتى بدتا وكأنهما تلتهبان بكل ظمأ سماء العصر، وصار يحرِّك أقدامه بطريقة عصبية قلقة، فأدركتُ أنه

يهم مسرعاً ليحاول ضمي؛ بدأتْ أحشائي كلها بالترنح وعروقي تنبض وصعد الدم الحار إلى رأسي، وشعرتُ أني إن بقيتُ جالسة هنا فلن يعود باستطاعتي الوقوف أبداً، وبجهد جبار انتزعتُ نفسي من الكرسي وأسرعتُ نحو الباب؛ فدمدم سانديب بتذمر فخرجت هذه الدمدمة من أعماق صوته المخنوق:

- «أين تهربين يا ملكة؟»

وفي لحظة من الزمن نهض عن كرسيه وقفز ليمسكني غير أنه تراجع مسرعاً لسماعه وقع خطا خارج الباب، فعاد أدراجه مسرعاً وجلس على المقعد. فتوجهت بأنظاري نحو رف الكتب ووقفتُ أحملق في العناوين؛ وحالما دخل زوجي الغرفة صاح سانديب قائلاً:

- «ألا تحتفظ يا نيكهيل بكتب برونينغ بين كتبك؟ لقد كنتُ أحدِّث الملكة عن نادينا في الكلية، هل تذكر كيف تبارينا نحن الأربعة حول ترجمة قصائد برونينغ؟ لا تقل لي إنك نسيت! مطلعها كالتالي:

ما كان لها ان تنظر إليّ

لو كانت تقصد ألا أحبها

كثيرون هم ... من يدعون رجالا

من الذين تكشف لهم سر روحها

ولكنها تترك معظمهم كما وجدتهم

أما أنا فلست مثلهم

لقد علمت ذاك

حين رنت إليّ وعيناها تجولان حولهم. (١)

---

(١) هذه الأسطر هي المقطع الشعري الأول من قصيدة «كريستينا» للشاعر الشهير "روبرت برونينغ (١٨١٢- ١٨٨٩) Robert Browning".

لقد بذلتُ جهداً كبيراً ودفعتُ بقوة لأقدمها بالبنغالية، لكنها ليست من النوع الذي يتذوقه البنغاليون حيث لم يجدوا فيه متعة. وقد حسبت مرة أني على وشك أن أصبح شاعراً لكن العناية الربانية أنقذتني بلطف من هذا البلاء. أما صديقنا داكشيناشاران لو لم يصبح مفتشاً على الملح لكان شاعراً لقد قام بترجمة ممتازة، فعندما تقرؤها تشعر وكأنك تقرأ بنغالي؛ وهي لا تنقل ترجمة للغة بلد إلا وتجدها في السجلات الجغرافية[١].

كلا يا ملكة النحل، لا فائدة من بحثك في هذه الأرفف يبدو أن نيكهيل قد توقف عن قراءة الشعر منذ زواجه – ولعله لم يعد بحاجة إليه، أنا أيضاً أهملته لكن يبدو أن حمى الشعر هي شيء أساسي عند البشر[٢] وتوشك أن تنتابني أنا أيضاً».

فقال زوجي:

- «لقد جئتُ أحذركَ يا سانديب».

فسأل سانديب:

- «من نوبة حمى الشعر؟»

لم يأبه زوجي بمحاولة الهزل هذه واستمر يقول:

- «إن الوعاظ قد أخذوا يطوفون في المنطقة ذهاباً وإياباً منذ بضعة أيام انطلاقاً من داكا، وقد فهموا مغزى الاتفاق المشترك المبرم مع جهود هذه المقاطعة لاستثارة الناس؛ إنهم حانقون عليكَ وقد يهاجمونكَ بأي لحظة».

- «هل جئت تنصحني بالهروب من هنا لأنجو بنفسي؟»

- «لقد جئت لأعلمك بالأمر لا لأنصحك».

---

(١) التعديل البنغالي الذي يرويه هنا سانديب في هذا الظرف، قد ألغي لوجود سبب واضح هو إمكانية ان يكون للنص نسختان باللغة الانكليزية.

(٢) يستخدم سانديب القول السنسكريتي المأثور: "كافياجوارا مانيوشانام Kavyajwara manyushanam" ليدعم انفجار غضبه بشعر مناسب وبالنقاش الذي سينشأ عنه.

- «لو كنتُ هنا من ملاك الأراضي لكان الوعاظ هم المحتاجين للتحذير لا أنا، فبدلاً من أن تحاول تخويفي وتشعرني بعدم الارتياح، حري بك أن تضغط عليهم كي يشعروا بالقلق، وبهذه الطريقة تخدم مصالحك ومصالحي؛ هل تعلم أن بضعفك وبفشلك قد أضعفتَ أيضاً جيرانك من ملاك الأراضي؟»
- «طالما أني لم أقدم لك نصحي يا سانديب، فأودّك أيضاً أن تمتنع عن تقديم نصحك لي لأنه غير مجد. كما أن هناك شيئاً آخر أريد أن أخبرك به، إنك وأتباعك تقومون بمضايقة سكان منطقتي وباضطهادهم سراً، وهذا ما لا يمكنني أن أسمح باستمراره – لهذا ينبغي عليك مغادرة منطقتي فوراً».
- «هل لأنك تخاف الوعاظ أم أن هناك آخرين تخاف منهم؟»
- «هناك أنواع من الخوف يكون في انعدامها جبنٌ. فباسم تلك المخاوف آمرك يا سانديب بأن ترحل، سأكون في طريقي إلى كالكتا في غضون خمسة أيام فينبغي عليك أن ترافقني، ولك طبعاً أن تقيم في منزلي هناك فلا اعتراض لي على ذلك».
- «حسناً، لا يزال لدي خمسة أيام لأفكر بالموضوع، دعيني خلالها يا ملكتي أدندن لك لحن فراقي لخليتك. آه يا شعراء الحداثة البنغاليين! افتحوا أبوابكم ودعوني أستولي على كلماتكم بل السرقة هي شأنكم لأنكم عزفتم قصيدتي في أغنياتكم. فلتكن السمعة والمفخرة لكم لكن الأغنية لي».

بعد أن نادى بكل ذلك انطلق سانديب يغني بصوت أجش غليظ يوشك أن يخرج عن الإيقاع، أغنية من مقام الراغ بهيرافي[١].

---

(١) Raag Bhairavi .

في ربيع مملكتك يا مليكتي

تتعاقب اللقيا والفراق في طراد لا ينتهي

وتورق الزهور على آثار اللواتي ذبلن وانتهين في الظلال

في ربيع مملكتك يا مليكتي

لقائي وإياكِ كان له أغانيه

أما لرحيلي هدية يقدمها إليك؟

بلى، هي الأمل الخفي خبأته في ظلال جنة أزهارك

إن تندى أمطار تموز نيران حزيرانك

صفاقة سانديب لم يكن لها حدود، ولم تكن مقنعة ولا بطريقة من الطرق بل عارية كالنار الملتهمة لا يدركها المرء ليوقفها، فهل بمنعها، نحولُ دون برق صاعقة يضحك منا شررها؟ خرجتُ من الغرفة، وبينما كنت أعبر الشرفة نحو الجناح الداخلي من البيت ظهر آموليا فجأة ووقف أمامي وقال:

- «لا تخشي بأساً يا أختاه إني أستأذنك بالرحيل، لا تقلقي سأذهب الليلة ولن أعود خائباً».

قلتُ له وأنا أنظر إلى وجهه الفتي الجاد:

- «لن أقلق عليكَ يا آموليا، لكن هل لي أن أهتم بك وأكون معنية بأمورك؟»

همَّ آموليا بالمغادرة لكني ناديته قبل أن يغيب عن ناظري وسألته:

- «هل والدتك لا تزال على قيد الحياة؟»

- «نعم»

- «هل لك أخوات؟»

- «كلا، إنني وحيد أمي، توفي والدي وأنا طفل صغير».

- «أرجوك يا آموليا أن تعود إلى أمك».

- «لكن يا أختي لقد وجدتُ هنا أماً وأختاً».

- «تعال قبل أن تسافر الليلة لتتناول عشاءك هنا».

- «لن يتسع الوقت لذلك، زوديني بطعام للرحلة مبارك من يديكِ».

- «ما هو أحب طعام لديكَ يا آموليا؟»

- «لو كنت مع أمي لالتهمتُ كميات كبيرة من الكعك بالزبدة، سأتناوله من صنع يديك عندما أعود يا أختي الأميرة».

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الخامس عشر

نيكهيليش

عندما استيقظتُ في الثالثة صباحاً وبشكل مفاجيء، شعرتُ أن عالمي الحميمي الدافيء الذي كنتُ أحياه قد مات، وأن روحه قد استولت على سريري وغرفتي وكل هذه الأشياء التي فيها. فأدركتُ لماذا البشر يخافون من الأشباح أو حتى من أناس مألوفين. إنه لكابوس مخيف عندما يصبح شخص قد عاشرته لمدة طويلة غريباً عنك بلحظات. إذا كان على الإنسان أن يعيد بناء المجرى الطبيعي لسلوكه في الحياة ضمن قنوات جديدة لم يألفها من قبل يؤدي به ذلك إلى الإحساس بأقصى مشاعر الارتباك والحيرة، فيصبح من العسير عليه حماية طبيعته الخاصة، والاهتمام بنفسه إذ يعتقد أنه غدا شخصاً آخر.

لقد علمتُ من أستاذي الماسترموشه منذ بضعة أيام أن أتباع سانديب قد تعمدوا الأذى والإساءة إلى الناس في منطقتنا. لو كنت بطبعي حازماً في معالجة الأمور لطلبتُ منه مغادرة أراضينا نهائياً. غير أني بتُ مثل شخص غريب تجاه كل هذا التشويه والأذى المتعمد الذي يحصل، لم يعد مساري سهلاً أبداً، كما أني أشعر بالحرج إن طلبتُ من سانديب أن يغادرنا. هناك مسألة أخرى برزت في بيتي وتسللت إلى حياتي الخاصة فأذلتني، وتدفعني الآن لاتخاذ مثل هذا القرار.

لم تكن الحياة الزوجية مرحلة واحدة من حياتي ولا وجهاً واحداً من وجوهها – أي لا مرحلة رب البيت - ولا إدارة حياتي المنزلية الداخلية، بل كانت مراحل تفتّح وازدهار حياتي الشخصية نفسها

أمارس عليها الضغط من الخارج، فأشعر حينها وكأني أهين الله إن أنا فعلتُ ذلك. كما أني لا أستطيع شرح هذا الموضوع لأي إنسان. ربما يبدو طبعي غريباً بعض الشيء، وربما تم خداعي لهذا السبب بالذات، لكن كيف أضلل نفسي في أعماقها محاولاً حماية مشاعري الظاهرية من أن تُكشَف؟

لقد عاهدتُ نفسي على مواصلة السعي من أجل الحقيقة التي تخلق الظاهر مما هو في داخل الإنسان نفسه. لهذا السبب ينبغي عليَّ أن أقتلع خيوط الشبكة الخارجية. سيحررني الله من عبودية الخارج، لأني سأبذل دم قلبي للفوز بهذا التحرر. وعندما أنتصر سأتحكم بأعماق كياني الداخلي وأصبح سيد نفسي. أصبح بإمكاني منذ الآن أن أتحسس هذا التحرر. فطائر الصباح في داخلي يشدو أحياناً مخترقاً كل حزن، ومتغلغلاً في كل أحاسيسي. فالرجل الذي في داخلي يواسيني الآن ويقول لي مراراً وتكراراً إنه ليس هناك من خسارة أو ضرر إن أنا استفقتُ من حلم وبرئتُ من ظنٍ واسترحتُ من وهم اسمه بيمالا.

علمتُ من أستاذي الماسترموشه أن سانديب قد تحالف مع هاريش كوندو من أجل إقامة احتفال لعبادة الآلهة مهلكة الشياطين بأبهة وموكب عظيم بحيث يكون عيداً رائعاً وفاخراً. وراح هاريش كوندو يبتز النفقات من سكان أرضه ومن المستأجرين عنده. وطلب من أديب شاعر وعلامة محترم حائز على تقدير كبير أن ينظم نشيداً مزدوج المعنى. وكان الماسترموشه قد جادل سانديب في هذا الموضوع. فيقول سانديب:

«إن الآلهة تتطور تدريجياً ولا بد للأحفاد من أن يعيدوا تشكيل الآلهة التي خلقها أجدادهم لتصبح موافقة لهم وإلا فسيصبحون ملحدين. إن رسالتي في هذه الحياة هي تحديث الآلهة القديمة، ففي الحقيقة أنني ولدتُ لأنقذ الآلهة وأحررها من عبودية الماضي، وإني لمخلصها».

لقد عرفتُ سانديب منذ طفولتي فهو كان على الدوام ساحراً بالأفكار يلعب بالمعاني ولا يهتم باكتشاف الحقيقة ولكنه يطرب للألغاز الموجودة فيها وتكمن سعادته في حقيقة ما يستطيع أن يستحضرها ويشعوذ بها. لو أنه ولد

في أحراش أفريقيا، لقضى وقتاً ممتعاً في إثبات، وفق منطق جديد، أن أكل لحوم البشر هو أفضل السبل لتنمية التواصل الصحيح بين بني البشر وتمتين علاقاتهم الودية الحميمة. لكن موهبته هي في خداع الآخرين والمتاجرة بهذه المخادعة فسينتهي به الأمر شر نهاية لأنه لن يستطيع تجنب خداع نفسه، وكما تقول القاعدة: سيقع في شرِّ أعماله. أعتقد أن سانديب يفكر في قرارة نفسه أنه يكتشف الحقيقة كلما يبتدع فكرة جديدة وسحراً جديداً فيه مغالطة جديدة بواسطة وصفاته الصوفية التي يركبها بكلماته المعهودة، كما أنه ليس لديه أي مشكلة إن كان هناك تناقض بين الاختراعين.

في جميع الأحوال، لن أكون له عوناً أبداً في بناء حانة تبيع جرعات سحرية وهمية خادعة، ولن أشارك وألوث يديّ في دهورة الشبان الراغبين في خدمة قضية بلادهم. أما أولئك الذين يريدون تضليلهم ببعض الأناشيد الحماسية بغية الحصول على بعض الانجازات يرون أن مهمتهم هي ذات أهمية كبيرة، لكنهم لا يهتمون قيد شعرة بعقول الناس التي يستغفلونها. فأنا إن لم أستطع إنقاذ البلاد من نوبة الجنون هذه، فإن عبادة الأمة بهذا الشكل ستكون كمن يتعبَّد لها بقربان مسموم، إن خدمة الأمة مثل براهماسترا[١] ترتد مباشرة إلى صميم الأمة.

كان لا بد أن أبلغ سانديب في حضرة بيمالا بضرورة رحيله من بيتي. ولعل كليهما سيفسران الدافع لي على ذلك تفسيراً خاطئاً. ولكنني ينبغي عليَّ أن أتحرر أيضاً من كل خوف إن أحداً أساء فهمي، حتى بيمالا، فلتسيء فهمي هي الأخرى.

هناك حركة مستمرة ذهاباً وإياباً لعدد من الوعاظ من داكا. ففي مقاطعتنا اعتادت الطوائف الأخرى الامتناع عن ذبح البقر كما يمتنع

---

(١) Brahmastra براهماسترا: سلاح براهما، او السهم المقدَّس... (الموسوعة الحرة).

الهندوس[١] عنه تماماً. لكن أصبحنا نشاهد مؤخراً حوادث التضحية بالأبقار تنتشر هنا وهناك. لقد علمتُ بذلك أولاً من المستأجرين عندي الذين هم من طوائف مختلفة وسمعتُ أنهم أبدوا احتجاجهم واستنكارهم لهذا العمل. أعرف أنه من الصعب إيقافهم الآن، هناك عناد مفتعل وانحراف وفساد في صلب هذه القضية بحيث تحولت تحولاً حاداً خلق موقفاً يصعب علاجه. ففي قراراتهم حمية دينية مصطنعة لكنها لن تبقى كذلك إن هي كبحت وفي هذا كانت عبقرية فصيلنا المعارض في الحركة.

استدعيتُ رئيس المستأجرين الهندوس وبعض السكان في المنطقة وحاولتُ أن أشرح لهم الوضع على حقيقته. فقلتُ لهم:

- «نحن أحرار في ممارسة عقائدنا الدينية، لكن لا سلطة لنا على عقائد الآخرين الدينية. إن كنتُ أنا من الفيشناف هذا لا يعني منع الشاكتا من إراقة الدماء[٢]! فماذا بإمكاننا أن نفعل في مثل هذه الأحوال؟ ينبغي أن نترك كل طائفة تمارس حرية عبادتها وفق عقائدها الخاصة بها، فأرجوكم لا تكونوا أنتم من يقوم بإثارة الشغب والاضطرابات».

فأجابوا:

- «يا مهراج، إننا لم نواجه في حياتنا مثل هذه المعوقات الشرعية».
- «ذلك لأنهم لم يتمنوا خلقها، إنها طبيعة الأمور. وبالطريقة نفسها سنحاول البحث عن مخرج يمكنهم من خلاله أن يكفوا عن ذلك طوعاً وليس عن طريق المواجهة والإكراه».

---

(١) تعتبر حالة سامية من الإخاء بين الهندوس الذين يعتبرون البقرة «أم» لأنها تعطي الحليب، وبين الطوائف الأخرى التي تأكل لحم البقر، إن هي منعت ذبح البقر فيما بينها مراعاة لمعتقدات الهندوس.

(٢) الفيشناف Vaishnavs مذهب تقشفي يأكل أتباعه الغذاء النباتي فقط. أما الشاكتا، لأنهم من عبدة «كالي» وليس رادها وكريشنا مثل الفيشناف، فهم يذبحون الحيوانات في هيكل «كالي» ويأكلون اللحوم.

- «لا يا مهراج، لقد ولتّ أيام الهدوء والمسالمة، ولن يقف هذا الأمر إلا بممارسة سلطتك».
- «إن ممارسة القوة والاضطهاد والقمع لن يوقف قتل الأبقار، بل قد يؤدي إلى إضرام ثورة وحشية متعطشة لدماء البشر».

وكان أحدهم قد تلقى تعليماً انكليزياً وتعلم ترديد العبارات الاصطلاحية الشائعة في يومنا هذا، فقال:

- «إنها ليست قضية معتقد خرافي فحسب، بل إن بلادنا تعتمد في الأساس وبشكل رئيسي على الزراعة، والأبقار هي...»

فقاطعته قائلاً:

- «إن الجاموس في بلادنا يعطي أيضاً حليباً ويستخدم أيضاً في الحرث وفي الأعمال الزراعية.لكن عندما نرقص حول حدائقنا الداخلية وعلى أكتافنا رؤوس الجواميس المقطوعة وقد سالت دماؤها على أجسادنا، فإن الدين سيسخر منا لو تنازعنا مع الطوائف الأخرى بهذا الشأن، والحقيقة الوحيدة الأهم التي ستبقى هي النزاع، فإن كانت البقرة وحدها دون الجاموسة هي المقدسة التي لا تذبح فإن هذا لا يكون ديناً بل تعصباً».

وتابع الرفيق المختص باللغة الانكليزية يقول:

- «لعلك تعلم من وراء كل ذلك؟ إن هذه الممارسات لم تصبح ممكنة وسهلة التنفيذ إلا لأن الطوائف الأخرى ظلت آمنة حتى عند خرقها للقانون. هل سمعت ما حصل في بانشورة؟»
- «إنه أمر واقع أن يصبح من الممكن محاربتنا باستخدام الآخرين كأدوات ضدنا ، وهذا شأن نحن مسؤولون عنه، ألسنا نحن الذين دفعناهم إلى ذلك بتعصبنا؟ إنها عدالة القدر، فاليوم نجني ثمار ما زرعته أيدينا عبر العصور».
- «حسناً فليحدث ما يحدث لكننا لدينا ما نتمتع به فنحن اليوم منتصرون – «لقد دمرنا كلياً القانون الذي كان السلطة الكبرى

وأكبر منهم جميعاً، لقد كانوا ملوكاً حقاً لكننا الآن حولناهم إلى قطاع طرق. قد لا يسجل التاريخ هذه الحقيقة لكننا سنتذكرها على الدوام».

تناقلت الصحف سيرتي بالسوء وشوهت سمعتي، وفي منطقة شاكرابارتيس سمعتُ أنهم أحرقوا تمثالاً لي علانية في محرقة جثث الموتى على ضفاف النهر بما ينبغي من احتفال وحماسة، كما نظم ضدي في الوقت نفسه العديد من أساليب الإهانات. كان سبب هذه المتاعب أنهم جاؤوا لإقناعي بالمساهمة في مصنع لنسج القماش القطني أرادوا إنشاءه، فطلبوا مني شراء أسهم فيه على سبيل المغامرة المشتركة، فاضطررت أن أقول لهم:

- «إني لا أبالي بخسارة نقودي الضئيلة فلن أندم عليها ولن يؤنبني ضميري بشأنها. لكن إن بدأتم بتشغيل مصنع، كثير من الناس سيخسرون أموالهم وأنا لا أحب الاشتراك في إنزال الخسارة بكثير من المساهمين الفقراء، لذلك سوف لن أشتري أسهماً».
- «لماذا يا سيدي المهراج؟ ألست مهتماً بإنعاش اقتصاد البلاد؟»
- «إن الصناعة قد تؤدي إلى ازدهار البلاد لكن مجرد الرغبة في تقدمها لن يؤدي بالضرورة إلى نجاح الصناعة. إن صناعتنا لم تزدهر عندما كانت أحوالنا ورؤوسنا أهدأ من ذلك، فهل ستزدهر أعمالنا دون أي إعاقة ولا تأخير فقط لأننا مثارون وغاضبون؟»
- «نرجوك، أن تقتصر في الموضوع وأفدنا بالنتيجة النهائية، وقل لنا هل ستشتري الأسهم أم لا؟»
- «سأشتري الأسهم عندما أرى وأفهم تماماً أن مشروعكم هو فعلاً عمل حقيقي وأنكم مهتمون بالصناعة حقاً. وإن كنتم قد أشعلتم النار لكني لا أرى أي بيّنة ملموسة ولا أستنتج من ذلك أن لديكم طعاماً تطهونه عليها».

يعتقد هؤلاء الناس أنني بخيل شحيح وأنني أعمل حساباً لكل قرش أصرفه. فشعرتُ أنه ينبغي عليَّ أن أريهم دفتر حساباتي المتعلقة بأعمال

السواديشي. وكأنهم لا يعرفون قصة محاولتي تحسين محاصيل وطني! فأنا طيلة سنوات عديدة استوردتُ قصب السكر من جاواه وموريتيوس وزرعته هنا في أرضنا. ووفق توصيات السلطات الحكومية في وزارة الزراعة، لم أترك أي نوع من أنواع الزراعة والري دون اهتمام ومتابعة ولم أكن أعتمد على المناخ والحظ. لكن ماذا كانت ثمرة الجهد من كل هذا العمل؟ لقد ظلَّ ضحك وسخرية المزارعين الخفية في منطقتي سراً حتى هذا اليوم.

وعندما ترجمتُ لهم البيان الزراعي الرسمي وحاولتُ أن أتحدث عن الفاصولياء العريضة اليابانية أو عن المزروعات القطنية الأجنبية رأيتُ أن ضحكتهم القديمة المكبوتة لا يمكن أن تبقى مكبوحة بعد اليوم. في تلك الأثناء لم نعد نسمع عن أشخاص يخدمون البلاد، ولا حتى نشيد باندي ماتارام بقي له ذاك الصدى. ومركبتي التي جعلتها آلية – فلتذهب إلى الجحيم! ما نفع التحدث عن كل هذه الأمور؟ نستطيع أن نعتبر أنفسنا قد افتدينا طالما أن مجرد حرق تمثالي يمكن أن يخمد النار التي أشعلوها في كل الأرجاء من أجل مصلحة البلاد.

ما هذه الاخبار! عصابات السلب والنهب (الداكوا) قد أغارت على مكتبنا في «تشاكوا» ونهبت المال من الخزنة هناك! حيث كان قد تم إيداع دفعة من مال العائدات الليلة المنصرمة. وكان من المقرر أن ترسَل بأقصى سرعة بالمركب إلى المكتب الرئيسي للإدارة العامة. ويبدو أن المدير الإداري قد أخذ النقود من الخزنة وبدلها بأكداس من الأوراق النقدية من فئة العشر والعشرين روبية. أغارت عصابة اللصوص على المكتب وسرقت المال عند منتصف الليل تماماً، وأصابوا الحارس «قاسم السرادار» بطلقة مسدس؛ لكن الغريب في أمر لصوص هذه العصابة أنهم لم يأخذوا سوى ستة آلاف روبية وتركوا مبلغ ألف وخمسمائة روبية والباقي كله مبعثراً على الأرض مع أنه كان من السهل عليهم أن يأخذوه كله أيضاً. على كل حال انتهت غارة عصابة اللصوص لتبدأ غارة الشرطة ولم يعد السلام بالإمكان.

عندما دخلتُ الجناح الداخلي من البيت وجدتُ أن الخبر قد سبقني إليه. صاحت أرملة أخي:

- «ما أفظع هذا الحدث يا أخي، يا للكارثة! ماذا نستطيع أن نفعل؟»

حاولتُ أن أبدي عدم اكتراث لأهوِّن عليها الأمور، وقلت لها مبتسماً:

- «لا تزال الطريق أمامنا طويلة كي نواجه كارثة حقيقية. رغم كل ما حدث، أعتقد أنه لا يزال لدينا بعض النقود نستطيع أن نتدبر بها أمورنا».
- «كلا أنا لا أمزح، ولا تجعل منها ملهاة، فلماذا يصبّون كل جام غضبهم عليك؟ يا أخي العزيز، أليس بإمكانكَ استرضاؤهم قليلاً؟ لماذا تجعل الجميع ضدك؟»
- «لا يمكنني أن أترك البلاد تسير إلى الخراب ولو كان في ذلك مصلحة الجميع».
- «لم أسمع سوى البارحة عما فعلوه بتمثالك وكيف أحرقوه على ضفاف النهر. يا للإهانة! هذا شيء فظيع، عار أن يعاملوك هكذا! إنني ارتعد خوفاً عندما أفكر بهذا الأمر. إن بيمالا قد تعلمت على يد معلمة انكليزية وهي قد تخلصت من جميع مخاوفها بفضل هذا التعليم وهذه الطريقة التي تتبعها. أما أنا فكان لا بد لي من استدعاء الكاهن كينارام[١]، حيث شعرتُ بشيء من الراحة بعد أن رتب طقس عبادة للابتهال والتوسل في طلب السلام. أرجوك يا أخي العزيز إرحل إلى كالكتا إني أرتجف من التفكير فيما يمكن أن يفعلوه إن بقيتَ هنا».

تأثرتُ تأثراً عميقاً لمشاعر أرملة أخي الصادقة فقد بدا قلقها وخوفها عليّ وكأنه البلسم الشافي لأعماق روحي. نحن الرجال لا نكف أبداً عن الامتنان لصنع المعروف والإحسان الذي نتلقاه من القلوب النقية.

وقالت:

---

(١) Kenaram

- «يا أميرنا العزيز: ألم أحذرك من الاحتفاظ بهذه النقود الكثيرة في الغرفة المجاورة لغرفتك؟ إنه من غير المستبعد أن يكتشفوا سرها، فأنا لا تهمني النقود، لكن من يدري...»

ولكي أطمئنها وعدتها بنقل النقود إلى الخزينة على الفور ثم أرسلها إلى المصرف مع أول حارس يذهب إلى كالكتا. وذهبنا معاً إلى غرفة نومي فكان باب غرفة الملابس مغلقاً وحين طرقته صاحت بيمالا: «إني ألبس...»

فقالت أرملة أخي في دهشة:

- «عجباً لأميرتنا الصغيرة، تلبس في هذا الوقت المبكر! لعله أحد اجتماعات «باندي ماتارام»! ونادت بيمالا ممازحة:

- «أيتها الملكة السارقة! هل تعدّين غنائمك هنا؟»

فقلتُ وأنا خارج إلى غرفة مكتبي:

- «سأعتني بأمر النقود بعد قليل».

وجدتُ مفتش الشرطة في انتظاري فسألته:

- «هل من اثر للصوص؟»

- «إني أظن ذلك»

- «من...؟»

- «قاسم ساردار، الحارس».

- «ماذا تقصد؟ قاسم؟ ألم يجرح بقدمه في هذا العراك؟»

- «جرح غير ذي بال، إنه كدمة سطحية في الساق، لعله هو الذي أحدثها».

- «لا أستطيع أن أصدق ولا بحال من الأحوال أنه قاسم الذي فعل ذلك، إنه بمنتهى الأمانة».

- «إنني مستعد كل الاستعداد لأصدق إنه أمين وأنك تأتمنه لكن ذلك لا يمنع أنه لص. لقد رأيتُ رجالاً يؤتمنون عشرين سنة ثم في الليلة الظلماء يتحولون...»

- «حتى إن صحَّ ذلك فإني لا أستطيع أن أرسله إلى السجن».
- «لماذا عليك أن تقوم بهذه المهمة؟ دع هذه المسؤولية عليه هو».
- «ولكن لماذا أخذ قاسم الستة ألاف روبية وترك بقية النقود أمامه؟»
- «بغية تضليلك. مهما تقل يا مهراجا إنه لص محترف. إنه يقوم بالحراسة في نوبته هذا صحيح، ولكني واثق أن له يداً في جميع السرقات التي تحدث في هذه المنطقة».

وبدأ المفتش يسرد الطرق المختلفة التي يمكنه بها أن يشترك في سرقة على بعد عشرين ميلاً أو ثلاثين ثم يعود قبل موعد نوبته.

فسألته:

- «هل أحضرتَ قاسم إلى هنا؟»
- «كلا إنه في الحجز في مركز الشرطة. وسيحضر المحقق لاستجوابه».
- «أريد أن أراه».

وحين ذهبتُ إلى زنزانته ركع عند قدمي باكياً وقال:

- «أقسم بالله إني لم أفعل هذا الشيء يا مهراج».

فطمأنته قائلاً:

- «ليس عندي أي سبب يجعلني أشك بك يا قاسم. لا تخشَ شيئاً، سوف لن أدعهم يعاقبونك إن كنت بريئاً».

لكن قاسم عجز عن أن يقدم وصفاً مترابطاً للحادث وكان من الواضح انه يبالغ في سرد الوقائع، فقد تحدَّث عن أربعمائة رجل أو خمسمائة، ومدافع كبيرة، وسيوف لا تعد ولا تحصى. فأدركتُ أن ذلك لا بد أنه يعود إلى اهتياج عقله أو إلى رغبته في تفسير انهزامه السريع. وكان رأيه أن هذا كله من تدبير هاريش كوندو بسبب الخصومات التي حصلت لي معه، بل لقد زعم إنه سمع صوت «إكرام ساردار» كبير خدم آل كوندو. فاضطررتُ إلى تحذيره بقولي:

- «اسمع يا قاسم، لا تجر أناساً آخرين في حكاياتك. إنك غير مطالب بتوجيه اتهام إلى هاريش كوندو أو إلى غيره».

حين عدتُ إلى البيت دعوتُ أستاذي الماسترموشه الذي هزَّ برأسه وقال:

- «لا شيء ينبىء بالخير بعد اليوم. فطالما نحن نضع الأمة مكان الثقة التامة، فكل آثام الأمة ستبرز وسيتم تقييمها بكل غطرسة وعنجهية ودون أي خجل».
- «هل تعتقد أنه ما يفعلونه...»
- «لا أعرف، لكن الآثام تستشري، أرجوك اطرد هؤلاء الناس من مقاطعتك».
- «لقد أعطيتهم مهلة يوم واحد وسيرحلون بعد يوم الغد».
- «دعني من فضلك أقترح أمراً أراه مهماً – أرجوك خذ بيمالا إلى كالكتا. فهي من هنا تنظر إلى العالم الخارجي بنظرة ضيقة جداً ولا تستطيع أن تقدر صفات الناس في نسبها الصحيحة، أرجوك دعها ترى العالم الخارجي، دعها تراقب وترصد وتميز الكائنات البشرية ومساحات العمل، أتح لها هذه الفرصة لتكوِّن نظرة أوسع لشؤون الحياة».
- «هذا بعينه ما كنتُ أفكر به».
- «لكن لا تتوان عن تنفيذه. انظر يا نيكهيل، إن تاريخ الإنسان قد بني بتضافر جهود كل الأمم والأعراق. فبناء عليه، حتى في السياسة لا ينفع أن يضحي الإنسان بمثله العليا ليضع مكانها مشاعر غطرسة وغرور في الأمة. إنني أعلم أن أوروبا لا تسلم بذلك ضمنياً، لكني لستُ مستعداً للقبول بأن تفرض علينا زعامتها في هذا الشأن. إن البشر الذين يموتون في سبيل الحق سيخلدون في تاريخ البشرية، كذلك بالنسبة إلى كل عرق من الأعراق فهو إن استشهد أيضاً في

سبيل الحق سيخلد في تاريخ الإنسانية. وفي هذا العالم، ووسط ضحك الشيطان الساخر الذي يخترق السماء، فلتعلُ في الهند المشاعر الطاهرة النبيلة المؤمنة بالحق ولتمارس على أرضها التجارب المؤدية إلى الحقيقة النقيّة. لكن ما هذا الوباء المستشري الذي اجتاح بلادنا، إنه وباء المعاصي والآثام الذي أتى إلينا من خارج البلاد».

مرَّ اليوم كله في دوامة التحقيق. وفي الليل حين آويتُ إلى فراشي كنت منهكاً لدرجة أجلتُ إرسال نقود أرملة أخي إلى كالكتا حتى الصباح التالي.

صحوتُ من نومي في سكون الليل وكانت الغرفة مظلمة خلتُ أني أسمعُ أحداً يبكي في مكان ما. استطعتُ أن أسمع أصوات النحيب مثقلة بالدموع كعصفة الريح في ليل مطير. فخيّل إلي أن الصراخ ينبعث من قلب غرفتي بالذات. كنتُ وحيداً فقد نقلت بيمالا سريرها منذ بضعة أيام إلى غرفة مجاورة لغرفتي، نهضتُ من سريري وحين خرجتُ إلى الشرفة وجدتها مستلقية ووجهها فوق الأرض العارية.

لا يمكن لكل إنسان أن يروي مثل هذه الأمور ببساطة، إذ لا يدركها إلا من حُصِر وانغمس في روح العالم متقبلاً آلامه؛ لكن الإنسان يستطيع أن يسمع دموعاً وحيدة تمطر في سهاد تحت هذه السماء الصامتة، والنجوم البكماء، والليل الساكن.

إننا نحاول على الدوام أن نصنف كل هذه الأفراح والأتراح بالعودة إلى شرائعنا الوطنية وكتبنا المقدسة، ثم نصنفها بإعطائها أسماء «حسنة» أو «رديئة» «صحيحة» أو «خاطئة». لكن هل هناك ثمة اسم لنبع الألم هذا الذي يبدو أنه تسلل إلى قلب الظلمة وأدركها في الصميم؟

وقفتُ بين حشود من النجوم الهادئة في تلك الليلة الظلماء، التفتُ ونظرتُ إليها، فهمس قلبي عالياً خائفاً، «من أنا حتى أدينها؟» آه! يا حياة!،

يا موت! أيها الكون المؤبد! يا الله القادر على كل شيء، يا إله الكون، إنني أكتف يدي وأحني رأسي إجلالاً أمام سرّك.

فكرتُ أول الأمر أن أعود أدراجي لكني لم أستطع. فجلستُ على الأرض بهدوء قرب بيمالا ووضعتُ يدي على رأسها. عند أول لمسة بدا جسمها متصلباً كالخشب، لكن الصلابة استرخت في لحظات وذابت في غمرة أمواج من دموع، إنه مشهد لا يصدق، أين كانت كل هذه التنهدات وهذا البكاء أكان كل هذا الحزن مكتوماً في قلب إنسانة؟ إنها حالة لمن الصعب تصورها. بدأتُ أمرِّر يدي برفق على شعرها؛ فحاولتْ بعد قليل أن تتلمس أقدامي لتطوقها وتضمها إلى صدرها بقوة، شعرتُ أنها كادت تمزق قلبها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السادس عشر

بيمالا

من المفترض أن يعود آموليا من كالكتا هذا الصباح. أمرت الخدم بإعلامي عن ساعة وصوله، لكني لم أستطع أن أهدأ في مكاني فذهبتُ إلى قاعة الاستقبال في الجناح الخارجي وجلستُ هناك أنتظره.

تراني لم أكن أفكر إلا في نفسي عندما أرسلته ليبيع حليّي؟ فلم يخطر ببالي أن مثل هذا الفتى الصغير قد يتعرض للشبهة حالما يحاول بيع مجوهرات ثمينة كهذه؟ نحن النساء مغلوبات على أمرنا وضعيفات الحيلة ولا سبيل لنا إلا أن نحمِّل غيرنا عبء الخطر المحدق بنا، فحتى ونحن ننساق إلى موتنا نجر معنا من حولنا.

لقد اعتقدتُ بغطرستي أنني سأكون قادرة على إنقاذ آموليا – كأنما إنسانة مثلي على وشك الغرق تزعم أنها ستنقذ غريقاً آخراً! وا حسرتاه! ربما كنت أنا من أرسله إلى موته.

أواه يا أخي العزيز، أي أخت كنت لك! لقد صليتُ وتضرعتُ لأجلك وأحطتكَ ببركات يوم الأخ في قلبي، لكن إله الموت[1] «ياما» ضحك مني ساخراً، وأنا أحمل اليوم عبء كل هذه البلايا.

---

(١) التراتيل التي تتلى في شعائر ذكرى يوم الأخ فيها معاني مفادها أن أمنيات الأخت ترسل إلى معبد «ياما» Yama إله الموت، طالبة منه أن يضع حواجز تمنع دخول شقيقها إليه إلى الأبد.

يبدو لي اليوم أن الإنسان منا يصاب بوباء من الكواكب الملعونة، تنشر بذورها وتبعثها لتجد طريقها إلينا، فيطبق علينا الموت قبل أن يذرف الليل آخر قطرات ظلامه. أليس ممكناً في ذلك الوقت إبعاد هذا الإنسان عن العالم؟ أنا على الأقل أستطيع أن أرى بوضوح كيف تكون العدوى وكم هي مفزعة. إنها شعلة إنذار الخطر، تخور بلهبها كي تضرم النار في باقي العالم.

دقت الساعة التاسعة، وأنا أنتظر لكني لم أستطع التخلص من شعوري الذي يحدثني بأن آموليا في مأزق وأنه قد وقع في قبضة الشرطة. لا بد أن هناك تساؤلات عديدة في مركز الشرطة حول صندوق حليي. عليَّ في النهاية أن أجيب إن سألوا من صاحبة الحلي؟ ومن أين أتى بها آموليا؟ وكيف.. وكيف...؟؟ أي جواب سأقدمه أمام كل العالم؟ هل سيكون بإمكاني أن أجيب علناً وعلى رؤوس الأشهاد؟

آه يا سلفتي! لقد تجاهلتك كل تلك المدة واستخففت بك فعلاً! هذا يومك يا عزيزتي! اليوم ستعلنين لكل العالم انتقاماً لنفسك مني. آه يا إلهي! أنقذني الآن وجنبني تلك الساعة، وأنا أعدكَ بأن أطرح كل كبريائي وأرتمي عند قدمي سلفتي.

لم أعد أطيق صبراً، فدخلت تواً إلى سلفتي في الجناح الداخلي حيث كانت في الشرفة تحت أشعة الشمس تقطع كعادتها جوز التنبول وكانت ثاكو بجانبها، انقبض قلبي لرؤية ثاكو لكني تغلبت على كل تردد شعرت به، وارتميت على أقدام سلفتي مقدمة احترامي.

تراجعت إلى الوراء وقالت:

- «ماذا في الأمر يا أميرتنا الصغيرة؟ ماذا أصابك؟ لماذا كل هذا التبجيل؟»
- «اليوم هو عيد ميلادي يا أختي. لقد ارتكبتُ أخطاءً كثيرة في حياتي، امنحيني بركتكِ، أرجوكِ، وهذا وعد مني بأنني لن أسيء إلى أحدٍ فيكم بعد اليوم؛ فأنا إنسانة بسيطة ضيقة الأفق».

كررتُ لمس قدميها بعد أن قلت هذه الكلمات وخرجتُ مسرعة لكنها أخذت تناديني من الخلف قائلة:

- «أواه! إنك لم تخبريني في حياتك أن هذا هو يوم ميلادك يا حبيبتي يا أميرتنا الصغيرة! إنني أدعوك إلى الغذاء عندنا اليوم، لا تنسي يا أختي الحبيبة، أرجوك تعالي».

صليتُ لربي وتضرعتُ إليه أن يجعل من هذا اليوم يوم مولدي الحقيقي. ألم أولد اليوم من جديد؟ التمستُ من ربي وإلهي أن يغفر لي ويطهرني من كل خطيئة وذنب ارتكبته وأن يختبرني مرة أخرى اعتباراً من الآن.

بينما أنا أدخل قاعة الاستقبال ظهر سانديب فجأة وكأنه ينتظر. بمجرد رؤيته شعرتُ بالغثيان من شدة الاشمئزاز في نفسي تجاهه. لم تعد هناك هالة القداسة السحرية التي تحيط بوجه الأشخاص المتميزين عادة، بل رأيتُ وجهه اليوم مختلفاً تماماً في ضياء شمس الصباح. فبادرتُ بالقول:

- «أرجوك اذهب من هنا».

ضحك سانديب وقال:

- «ما دام آموليا غير موجود فأظن أنه قد حان دوري لحديث خاص».

يا لقدري البائس التعيس! كيف أجد حدوداً لسلطة أعطيتها لنفسي؟

فقلتُ له:

- «أودُّ البقاء وحدي».

- «يا ملكتي، إن وجود شخص آخر لا يفسد عليك وحدتك. لا تحسبيني واحداً من الدهماء – أنا سانديب، لو كنتُ بين حشود الملايين، فأنا دائماً وأبداً وحيد».

- «أرجوكَ أن تعود ظهراً لأنني...»

- «أتنتظرين آموليا؟»

بينما كنتُ أحاول الخروج من الغرفة لشدة انزعاجي فإذا بسانديب يخرج صندوق حليي من بين ثنايا عباءته ويضعه بعنف على الطاولة الرخامية. تملكتني الدهشة وسألت:

- «ألم يذهب أموليا إذاً؟»

- «يذهب؟ إلى أين؟»

- «إلى كالكتا».

فقال سانديب وهو يبتسم ابتسامة طفيفة:

- «كلا».

يا لهذا الفرج! فقد استجيب تضرعي وصحَّت بركتي في الأخوة، فعلى الرغم من كل شيء لقد أنقذ آموليا. أنا السبب أنا من سرق فليقع عقاب الله عليّ وليبقَ آموليا في آمان. عندما رأى سانديب التغير في تعابير وجهي قال بازدراء وبلهجة تهكمية:

- «كل هذا السرور يا ملكة؟ أهذه الحلي ثمينة جداً إلى هذا الحد؟ كيف استطعتِ إذاً أن تتغلبي على نفسك حتى تهبيها لعبادة الآلهة؟ لقد أعطيتِ هبتك فعلاً أتحبين أن تستردِيها من بين يديها الآن؟»

إن الكبرياء تدافع عن نفسها حتى الموت، وترفع مخالبها إلى اللحظة الأخيرة، لقد وضح لي أنه ينبغي عليَّ أن أبدي لسانديب استهانتي بهذه الحلي وأني لا أبتغي منها حتى قطعة صغيرة من زاوية الصندوق، فقلت له:

- «إن كانت تهمك لهذه الدرجة وكان لك فيها مصلحة كبيرة فلماذا لا تأخذها؟»

- «إن طمعي اليوم يشمل كل ثروة البنغال. هل هناك قوة أعظم من الطمع؟ إن آلهة الحرب الهندية «اندرا[1]» وربّات الحرب في العالم لديهنّ طمع كما الرسالة تماماً. مغزى الموضوع في النهاية، أليست هذه الحلي كلها لي؟»

بينما كان سانديب يتناول الصندوق ويعيده تحت عباءته، اندفع آموليا إلى داخل الغرفة مضطرباً. كانت تحت عينيه حلقات سوداء وكانت شفتاه جافتين وشعره مشعثاً وكأنما ذبلت نضرة شبابه في يوم واحد، فاعتصر الألم قلبي حين نظرتُ إليه، لكنه، ودون أن ينظر إليَّ اتجه مباشرة نحو سانديب وقال له:

- «هل أخذت صندوق الحلي من حقيبتي؟»

فسأله سانديب ساخراً:

- «هل صندوق الحلي هذا هو صندوقك؟»

- «كلا لكن الحقيبة هي لي».

فانفجر سانديب ضاحكاً وقال:

- «يبدو أنك تملك حساً مرهفاً في التمييز بين ما هو - لك- وما هو - لي- في الحقيبة يا آموليا. فأنا أتنبأ لك أيضاً بأنك ستصبح واعظاً دينياً قبل أن تموت».

جلس آموليا على المقعد وأخذ وجهه بين يديه وخفض رأسه على الطاولة، فاقتربتُ منه ووضعتُ يدي على رأسه وسألته:

- «ماذا حدث يا آموليا وما الذي يحزنك؟»

فوقف على الفور واعتدل وقال:

- «لقد منيت نفسي يا أختي الأميرة، أن أرد لك هذه الحلي بيدي. وكان سانديب بابو يعلم ذلك لكنه سبقني»..

---

(١) Indras.

فقلتُ له:

- «وماذا سأفعل بصندوق الحلي، لم يبق له قيمة عندي، فلتذهب الحلي إنني لا أضار».

فسأل آموليا مذهولاً:

- «إلى أين ستذهب؟» فقال سانديب:

- «هذه الحلي هي لي إنها قربان لوفاء النذر من ملكتي!»

فاعترض آموليا بجنون وقال:

- «كلا، كلا، أبداً. لقد أعدتها لك يا أختي الأميرة فلا يمكنك أن تعطيها لأي إنسان آخر».

فقلتُ له:

- «إنني أقبل هديتك وسوف أتذكرها على الدوام يا أخي الصغير، لكن دع من يطمع بالحلي أن يأخذها».

فحملق آموليا في وجه سانديب كوحش ضار وزمجر يقول:

- «اِسمع يا سانديب بابو، أنت تعلم أنني لا أخاف الشنق نفسه، فلو تجرأتَ على أخذ هذا الصندوق...»

فقال سانديب وهو يحاول أن يصطنع ابتسامة سخرية:

- «ينبغي أن تكون قد علمت أنت أيضاً يا أموليا أني لست بالرجل الذي يخاف تهديداتك». ومضى يقول ملتفتاً إليّ:

- «يا ملكة النحل، إني لم آتِ إلى هنا اليوم لآخذ هذه الحلي، بل لأقدمها إليك. فلو أخذتِ هديتي من يدي آموليا لكنتِ مخطئة، لقد كان عليَّ أن أستردَها أولاً من يديه لأنه من الظلم أخذ شيء كان ملكاً لي، والآن أهدي إليك جواهري هذه. تفاهمي مع هذا الفتى كما تشائين، فإني ذاهب، فعلى أي حال لقد شغلتما بأحاديثكما الخاصة طيلة هذه الأيام وجعلتماني بمعزل عنها، فإن حدثت أمور خاصة أو حوادث صعبة فلا تلوماني. وأردف:

- «آموليا! لقد أرسلتُ حقيبتكَ وكتبكَ وكل ما كان لكَ في غرفتي إلى غرفتك المفروشة في السوق الشرقية، فلا يمكنك أن تبقي شيئاً مما تملكه في غرفتي بعد اليوم».

خرج سانديب مسرعاً من القاعة بعد أن عبَّر عن موقفه. فقلتُ لآموليا:

- «لم أعرف راحة القلب منذ أن بعثتك لتبيع حليي».

- «لماذا يا أختي الأميرة؟»

- «خفتُ أن تقع في متاعب عويصة بسببها، فيشكُّ بعضهم أنك لص قد سرقتها لتبيعها. وكان أهون عليَّ أن أستغني عن الستة آلاف من الروبيات هذه. والآن ينبغي عليكَ أن تفعل شيئاً آخر من أجلي، أرجوك، عد إلى بيتك حالاً عد إلى أمك».

فأخرج آموليا حزمة صغيرة من داخل شاله وقال:

- «لكني أحضرتُ الستة آلاف يا أختي الأميرة».

- «من أين أتيت بها؟»

- «لقد اجتهدتُ في أن أحصل على عملة ذهبية لكني لم أستطع، فاضطررت أن أحضِرَ هذه العملة الورقية». ومضى يتحدث دون أن يجيب على سؤالي.

- «قل لي الحق يا آموليا، احلف بحياتي، من أين حصلتَ على هذه النقود؟»

- «هذا ما لم أخبركِ به».

فصحتُ به قائلة:

- «ما هذه الأمور الفظيعة التي أتيتها يا آموليا؟»

ورأيتُ كل شيء مظلماً أمام عيني، معنى كل ذلك أنه هو الذي...؟

فردَّ آموليا بحسم:

- «أعلم ما ستقولين، بأني حصلتُ على هذه النقود بطريقة غير شريفة. حسن جداً، إني أعترف لك بذلك، وكلما كبرت الخطيئة كبر

معها الثمن الذي علينا دفعه، وأنا قد دفعتُ ثمن إساءتي كاملاً، فلهذا السبب، النقود هي لي الآن».

تضرعتُ إليه قائلة:

- «خذها يا آموليا وردها كما أخذتها».

لم تعد بي رغبة إلى معرفة المزيد، توترت كل أعصابي وشعرتُ بقلق شديد وخوف من شر مرتقب. وأجابني آموليا:

- «هذا جد عسير».

- «كلا يا أخي العزيز، إنه ليس بهذه الصعوبة. يا لها من ساعة منحوسة تلك التي جئتني فيها أول مرة، فحتى سانديب لم يستطع ان يؤذيك كما أذيتك أنا». وكأنما كان اسم سانديب طعنة له فصاح:

- «سانديب! إنك أنتِ وحدك التي جعلتني أعرف هذا الرجل على حقيقته. أتعلمين يا أختي الأميرة أنه لم ينفق مليماً واحداً من تلك الجنيهات الذهبية التي أخذها منكِ في ذاك اليوم؟ خرج من هنا ودخل على الفور غرفته وأغلق على نفسه بابها وكدَّس العملة الذهبية على الأرض أكواماً وراح يتأملها بعينين مشدوهتين وكأنه مسحور أو منوَّم مغناطيسياً وراح يقول:

- «إنها ليست نقوداً، إنها أوراق القطيفة الوفرة، إنها زهرة سالف العروس، إنها أنغام نايات تعزف في مسكن إله الثراء، إنها أخذت شكلها الواقعي وهي تتقلب على الأرض. لا يطاوعني قلبي على تبديلها بعملة ورقية، فهي خلقت لتصاغ في قلادة نسائية جميلة. آه يا آموليا! لا تنظر إليها بطريقة شعبية جافة، إنها ابتسامة «لاكشمي»، إنها ضياء ملكة «آندرا» الساطع، لا، لا، إني لا استطيع تسليمها لذلك الوكيل الجلف، أنا واثق يا آموليا أنه يكذب علينا، إن الشرطة لم تهتد إلى الرجل الذي أغرق القارب، والوكيل هو الذي يريد أن يخرج بشيء من الصفقة، ينبغي علينا أن نسترد تلك الخطابات منه».

وسألته كيف يمكننا أن نقوم بذلك؟ فقال لي:

- «باستخدام العنف والتهديد».

- «وقبلتُ أن أنفذ أمره إن هو رد لك الذهب، فقال إنه سيفكر بالأمر. ولن أطيل عليك يا أختي الأميرة بالحديث عن كل ما فعلته لأخيف الرجل حتى سلمني تلك الخطابات حيث أحرقتها، إنها قصة طويلة. عدتُ في تلك الليلة نفسها إلى سانديب وقلت له:

- «لم يعد هناك من شيء نخافه، نحن الآن آمنون، أعطني الجنيهات الذهبية لأردها غداً إلى الأم الأميرة».

لكن سانديب صاح وقد تملكه الغضب:

- «ما هذا الوهم والضلال الذي تملكك؟ هل يحجب ثوب أختك الكبيرة مصلحة الأمة عن عينيك؟ أنشد باندي ماتارام، واستيقظ من هذه النشوة التي سلبت لبك».

- «إنك تعلمين يا أختي الكبيرة قوة سحر سانديب، لقد بقي الذهب معه، وفي عتمة الليل، جلست على درج صخري بالقرب من البحيرة وأنا انشد باندي ماتارام. وعندما أعطيتني البارحة حليك لأبيعها، ذهبتُ إليه ثانية في المساء، مع علمي أنه كان لا يزال في ثورة غضب عارم، لكنه حاول ألا يظهر ذلك بكلامه إذ قال لي: «انظر، إن وجدتَ في صناديقي أيَّاً من هذه الجنيهات الذهبية فلكَ أن تأخذها» ورمى لي بالمفاتيح ، لكني لم أعثر على أثر لها، فسألته أن يطلعني على مكانها وأين خبأها، فقال: «سأخبرك عندما تبتعد عنك الظنون وتعود إلى رشدك، لكن ليس الآن». وعندما تبين لي أنني لن أستطيع إقناعه بما أريد اضطررت اللجوء إلى أساليب أخرى، حيث عرضت عليه أوراقي المالية أي الستة آلاف روبية مقابل أن أسترد منه الجنهيات الذهبية، فقال لي: «سآتيك بها»، ثم غاب في غرفة نومه وتركني انتظر خارجها، وهناك فض حقيبتي وحمل اليك صندوق الحلي من طريق آخر. لقد أبى عليَّ أن

أحضره لك والآن يجرؤ على أن يسميه هديته! لا يمكنني وصف فداحة حرمانه لي من هذا الشرف! إنني لن أغفر له هذا العمل ما حييت. لقد صدمني وخيب أملي وفقد كل سلطانه عليَّ يا أختي وكان ذلك كله بفضلك أنت، لقد أزلْتِ عني هذا الوهم».

فقلتُ له:

- «يا أخي العزيز، إن صح ما تقوله فإن حياتي لم تذهب عبثاً بل أصبح لها معنى وصارت جديرة بأن أحياها. لكن يا آموليا، لا تزال هناك أعمال أخرى ينبغي إنجازها. فلن يكفي تدمير السحر حتى يغسل دنسه، علينا أن نغسل الحبر الأسود الذي لوثنا نفسنا به، لا تؤجل الأمر أكثر من ذلك اذهب من فورك ورد النقود من حيث أخذتها.ألا يمكنك أن تفعل ذلك يا أخي العزيز؟»

- «ببركتك كل شيء ممكن».

فقلتُ له:

- «تذكر أن ذلك لن يكون تكفيراً عنك وحدك بل عني أيضاً، فأنا امرأة والعالم الخارجي مغلق أمامي وإلا لكنت ذهبت بنفسي، إن أشد عقاب أتحمله هو أني أحمِّلك وزري».

- «لا تقولي هذا يا أختي الأميرة، إن الطريق الذي اخترتهُ لنفسي لم يكن طريقك لقد اجتذبني بأخطاره ومصاعبه، والآن وقد ناديتني لأسير في دربك وحتى لو كان أصعب ألف مرة وأشد خطراً فبركاتك ستساعدني على الظفر. أتأمرين الآن أن أرد هذه النقود من حيث أتيتُ بها؟»

- «أنا لا آمر يا أخي العزيز، ولكنه أمر السماء».

- «لا أعلم شيئاً عن هذا، لكن يكفيني أن هذا الأمر السماوي قد تم التعبير عنه بصوتك أنتِ. ثم أحسب يا أختي أنكِ قد دعوتني للطعام اليوم وأنا قبلت الدعوة فلن أمضي قبل أن تعطيني كعك «البراساد»، ثم سأحاول أن أنجز العمل المناط بي هذا المساء».

ففاضت عيناي بالدموع حين حاولتُ أن أبتسم وقلتُ له:

- «حسناً، فليكن ما تريد».

لما رحل آموليا شعرتُ بإحباط وكآبة تعتريني، إلى أي مهلكة أرسلتُ هذا الابن الوحيد؟ وا ربّاه! لماذا تصنع كفارة ذنوبي لنفسها طقوساً كارثية؟ ألا يسمح لي بأن أتعذب وحدي دون أن أدعو هذا الجمع ليشاركني في عقابي؟ لماذا لم أقم بذلك وحدي؟ لماذا أجعل الآخرين يتحملون العبء معي؟ رباه، لماذا كتب عليَّ أن أدمِّر هذا الفتى؟ أتضرع إليك يا الله لا تدع هذا الولد البريء يسقط ضحية لذنوبي».

عدتُ وناديته ثانية:

- «آموليا!» وكان صوتي ضعيفاً فلم يبلغه، فاقتربتُ من الباب وناديته ثانية: «آموليا!» لكنه كان قد غادر المكان.
- «أيها الوصيف، أيها الوصيف، هل من أحد هناك؟»
- «نعم يا أميرتنا؟»
- «اذهب وقل لآموليا إني أريده».

من المحتمل أن الوصيف الذي أرسلته إليه لم يكن يعرف من هو آموليا، فطلب من سانديب الحضور.

فقال سانديب بعد أن دخل القاعة:

- «لحظة طردتني أحسستُ أنك ستناديني ثانية، فجاذبية القمر تحدث المد والجزر، لقد كنت واثقاً أنك ستستدعينني حتى أني انتظرتُ في الدهليز جالساً بقرب الباب، وما كدتُ ألمح الخادم وقبل أن يستطيع النطق بكلمة واحدة، بادرتُ بالقول: «نعم، نعم، أنا آت، أنا آت على الفور! فدهش هذا الرجل التافه البهوجبوري[1] وحملق فيَّ

(١) الطبقات الأدنى من مجموعة العاملين في خدمة منازل الأرسطقراطية البنغالية والطبقة العليا في المجتمع، تكون عادة مكونة من أفراد ريفيين من خارج البنغال. وتأتي هذه الطبقة الخاصة من الخدم من منطقة ببهوجبور Bhojpur في بيهار Bihar. وتتم عادة الإشارة إليهم بطريقة فيها ازدراء واحتقار.

فاغراً فاه، وكأنه حسبني عالماً بالسحر.. يا ملكة النحل، المعركة الكبرى في العالم هي النزاع بين هذه القوى، سحر يبطل سحر، نبالها لا تخترق الصوت فحسب بل تخترق الصمت أيضاً، وتصل إلى أهداف لا تبصرها العين. وأخيراً وجد سانديب من هو مكافيء له في المعركة. فجعبتك مليئة بالنبال، أيتها الملكة المحاربة! أنت وحدك في هذا العالم الواسع الرحيب استطعتِ أن تطردي سانديب بمحض إرادتكِ وتستدعيه ثانية وأيضاً بإرادتكِ وحدك. إن صيدك يمثل أمامكِ – قولي لي ما أنت فاعلة به الآن؟ هل تسحقينه بالكامل أم تحبسينه في قفصك؟ لكن دعيني أحذرك مقدماً يا ملكة، ستجدين التعجيل بسحق هذا المخلوق صعباً كاستبقائه في الأسر. ومن ثم، لا تتواني عن اختبار الأسلحة الرائعة المقدسة التي تمتلكينها».

أخذ سانديب يثرثر دون توقف ودون أن ينتظر جواباً ربما لأنه شعر بألم يوخزه من ظل الهزيمة المقتربة. وأحسبه كان يعلم أني بعثتُ رسولاً في طلب آموليا، ولا بد أن الرجل قد ذكر اسمه، ومع ذلك تعمَّدَ أن يلعب لعبته، وهو الآن يحاول ألا يدع لي فرصة لأخبره أن آموليا هو من أردت وليس هو. لكن هذه الحيلة لم تنجح فقد استشففتُ ضعفه كرجل، وينبغي علي الآن ألا أتزحزح قيد أنملة عن الأرض التي اكتسبتها. فسألته:

- «يدهشني كيف تستطيع ان تتقيأ بهذا الشكل خطبك التي لا تنتهي يا سانديب بابو، هل تحفظها مقدماً عن ظهر قلب؟»

شحب وجه سانديب في الحال غيظاً وغضباً، ومضيت أقول:

- «لقد سمعتُ أن خطباءنا المحترفين لديهم كتاب مليء بجميع أنواع الخطب الجاهزة التي يمكن إدخالها في أي موضوع، هل لديك أنت أيضاً مثل هذه الخطب؟»

أطبق سانديب أسنانه بشدة وقال:

- «ألف شكر وحمد لكرم الله على وفرة الأوضاع والمظاهر الخادعة التي تلعبها النساء لتتسلى بها والتي يبدو أن لا نهاية لها، وفوقها

يجدن عوناً في متاجر الخياطين وصائغي الذهب، لكن لا تحسبن أننا نحن الرجال ضعاف الحيلة فنحن...»

فقلتُ له:

- «خير لك أن تعود بعد أن تذاكر كتابك يا سانديب بابو، لم يأت كلامك بالرسالة الصحيحة، لقد لاحظتُ أنك تناقض نفسك في كثير مما قلته، إنها من أكبر المسائل عندما نحفظ من الكتاب ونردد دون فهم».

فصاح سانديب وقد فقد كل سلطان على نفسه:

- «أنتِ! أنتِ! كيف تجرأتِ وأقدمتِ على إهانتي بهذا الشكل! أخبريني هل بقي شيء يتعلق بكِ لم يكشف أمامي؟ في الواقع أنتِ...» لم يستطع أن يتمم كلامه ولا أن ينطق بأي حرف.

إن سانديب في النهاية هو تاجر كلمات وصاحب رقى سحرية، فهل أصيب بالعجز المطلق حين أبت رقيته أن تحدث أثراً؟ لقد خانته هذه الكلمات عندما احتاجها ليفعل فعله، لقد هوى من مستوى ملك إلى مستوى راعي بقر، أواه! يا للضعف! يا للعجز! ما أحلى رؤية ضعفه! فكلما ازداد ضعفاً وبدأ يتجشأ كلمات فظة وقاسية كلما تدفقت الفرحة في نفسي. إن أحابيله الثعبانية التي أراد أن يأسرني بها قد فقدت قوتها، لقد تحررتُ، ولقد نجوتُ! يا لارتياحي! ويا لهذا الفرج! بإمكانه أن يشتمني إن هو أراد، فهذه هي حقيقته لكني أتمنى ألا يمتدحني بعد اليوم لأن مديحه كاذب.

دخل زوجي الغرفة ونحن على هذه الحال، فلم يتمكن سانديب من استعادة رباطة جأشه ورجاحة عقله كعادته فيما مضى، بسبب تدهور معنوياته واضطراب مزاجه النفسي والذهني. دهش زوجي عندما نظر إلى وجهه، ولو حدث ذلك منذ أيام لشعرتُ بالارتباك، أما اليوم فأنا مسرورة مهما ظن زوجي. لقد أردتُ أن استمتع بضعف خصمي المتهالك. تردد زوجي قليلاً حين وجدنا كلينا صامتين متحفزين، ثم جلس على حافة المقعد وقال:

- «بالمناسبة يا سانديب كنت في الواقع أبحث عنك، فسمعت أنك في هذه الغرفة». فقال سانديب بشيء من التاكيد:
- «أرسلت ملكة النحل في طلبي منذ الصباح الباكر وأنا العامل المسكين في خلية النحل، تركتُ كل شيء حالما سمعتُ أمرها، فعليَّ أن أترك كل شيء جانباً وأحضر لأنفذ ما تأمر به». فقال زوجي:
- «أنا ذاهب إلى كالكتا غداً وعليك أن تأتي معي».
- «ولماذا بربك؟ أتحسبني واحداً من حاشيتك؟؟»
- «حسناً! دعنا نفترض أنك أنت من يذهب إلى كالكتا، وأنا تابعك».
- «ليس لي عمل هناك».
- «هذا أدعى لذهابك الى كالكتا، فإن أعمالك هنا أكثر مما ينبغي».
- «سوف لن أتزحزح من هنا».
- «عندها أقول لك عليك أن تتحرك فأنا أنوي نقلك».
- «بالقوة؟»
- «نعم بالقوة».
- «حسناً، سأرحل، لكن العالم ليس مقسماً بين كالكتا ومنطقتك. هناك أماكن أخرى على الخريطة».
- «لم يكن ظاهراً على مسلكك أن في العالم مكاناً آخر غير منطقتي».

فنهض سانديب وقال:

- «يحدث أحياناً أن ينحصر عالم الإنسان في بقعة صغيرة جداً، وقد وجدتُ عالمي في قاعة استقبالك هذه ولذلك أطلتُ البقاء ولم أفكر في المغادرة»، ثم التفت إلي قائلاً:
- «يا ملكة النحل، لا أحد سيفهم معنى كلامي ربما أنت أيضاً لن تفهميه. إنني أعبدكِ، وإنني راحل لأقدسكِ – لقد تغير نشيدي منذ

أن قابلتك لم يعد باندي ماتارام، بل أصبح «بريام باندي موهينيم»[1]. أمنا تحمينا بينما حبيبتنا تقودنا إلى الهلاك، لكنه هلاك جميل. لقد جعلتِ أصوات خلاخيلكِ في رقصة الموت ترن في قلبي. بعيونك العاشقة حولتِ في الحال صورة البنغال كهمسة النسيم إلى صورة البلد الندي الخصب المعتدل المنعش. إنك قاسية لا تعرفين الرحمة، لقد أتيتني هنا يا حبيبتي بكأسك القاتل وسأشرب هذا السم إلى آخر قطرة فإما أن أموت به معذباً وإما أن أعيش منتصراً على الموت كلياً. لقد مضى يوم الأم يا حبيبتي! لقد جعلتِ المناقب والسماء والعدل والحقيقة نفسها هباء عندي. فكل العلاقات الأخرى في العالم صارت كالظلال، كل الأحكام وضوابط النفس تكسرت قيودها؛ يا حبيبتي! يا حبي! يا أغلى ما في وجودي! سأشعل بقية العالم لهباً وأرقص فوق رماده رقصة الجنون عدا هذه القطعة الصغيرة من الأرض التي تقفين عليها بقدميك الجميلتين. هؤلاء الناس هم سذج، لكن في الحقيقة كرماء جداً وطيبون، يريدون أن يفعلوا الخير لكل البشر كما لو أن كل شيء في هذا العالم هو حقيقي! أبداً! الحقيقة الوحيدة التي أؤمن بها ليس مثلها حقيقة في العالم إنها أنتِ، أنتِ حقيقتي الوحيدة. إنني أعبدكِ، وقد جعلني ولهي الشديد بكِ قاسياً، وتبجيلي لك أضرم نار التدمير الكامنة في نفسي. أنا لستُ فاضلاً، أنا لا أؤمن بالأخلاق الحميدة، ولا أؤمن بأي شيء في العالم إلا بمن استطعتُ أن أفهمَها وأميزَها مباشرة أكثر من أي إنسان على وجه الأرض».

غريب! وعجيب! منذ لحظات قليلة كنت أكره هذا الشخص من كل قلبي. لكن الآن وهذا الشخص بالذات الذي اعتبرته تحول إلى رماد خاب، ومض متقداً، بشعلة نقية دون أدنى شك. آوه! لماذا جعل الله في الإنسان كلَّ

---

(١) «تحيا الحبيبة، تحيا الساحرة» يستشهد سانديب ليس فقط بالكتابات المقدسة السنسكريتية، والنصوص الأدبية والأمثال بل أيضاً بالتلاعب بالكلمات السنسكريتية، يحرِّف أسطراً معروفة جداً يأخذها من قصائد وأغاني بغية توضيح كلامه.

هذه الأخلاط؟ أهي قدرته المعجزة؟ منذ نصف ساعة فقط كنت أفكر في قرارة نفسي أن الرجل الذي ظننته ملكاً لم يكن سوى بطل الأوبرا الشعبية. كلا، وكلا- في بعض الأحيان، يقبع بطل حقيقي في ثياب فنان فولكلوري. إن في شخصية سانديب الكثير من الجشع والسوقية والمخادعة، لكن ضمن جسد الإنسان تبقى هناك أمور خفية كامنة، ونحن لا نزال نجهلها.. إننا حتى الآن نجهلها ونجهل أساسها وبُعدها. فمن المستحسن أن نسلم بأننا لا نعرف أنفسنا.

إن الإنسان هو مخلوق عجيب، إنه معجزة من معجزات العالم. العقاب الإلهي فقط هو الذي يفسر السر الهائل المخلوق حول الإنسان. ووسط هذا كله، اتقد بقسوة وبدون جدوى. يا للخسارة! شيفا هو إله الدمار، أما الآن فهو إله البركة والفرح وهو الذي سيحررنا من كل قيد.

بدأتُ منذ بضعة أيام أشعر أنني أمتلك نوعين من الفهم والإدراك الحسي. النوع الأول يدرك أن الشخصية المدمرة لسانديب هي شخصية خطيرة، والنوع الآخر يجد أنها شخصية فاتنة وجذابة. فعندما تغرق السفينة تجر معها إلى القاع كل من يسبح حولها محاولاً الخلاص. ما أشبه سانديب بتلك السفينة، إنه تجسيد حي للموت. فجاذبيته الساحرة تستولي علينا بقوة قبل أن يتمكن الخوف منا، وفي لمح البصر، يريد كل ضيائنا وكل نعمنا وكل حرية السماء، والهواء الذي نتنفسه، وذخر حياتنا، وقلقنا اليومي، ليأخذها ويختفي في هاوية الفناء.

لا أدري كيف وصل إلينا هذا البلاء الأعظم الذي جعل كل فتيان وشباب البلاد يتجمعون أفواجاً من حوله وهو يرنم في الطرقات تعويذاته فاقدة الحس الأخلاقي. فتصرخ الربة - الأم الجالسة في قلب البنغال صرختها القوية عندما اقتحموا ذخائرها المليئة بشراب التجدد والشباب، وعربدوا فيها بخمورهم المسكرة واحتفالاتهم الصاخبة حتى الثمالة. يريدون كسر كأس الحياة الأزلي وتحويله إلى شظايا، كي يراق إكسيره في التراب. إنني أفهم كل شيء، لكنني مع ذلك لا أملك المقدرة على مقاومة خداعهم. إن ربّ الحقيقة قد

خلق كل ذلك ليختبر تفكيرنا الجاد في نهج الحق. يتنكر السكر في لبوس سماوي ويرقص أمام نصيري الحقيقة قائلاً: «أنتم حمقى – لا يمكنكم أن تجدوا سبيلاً للخلاص عبر التأمل والدراسة، لأن دربها طويل وممل. لذا أرسلني إله العاصفة إليكم، سأستقبلكم كالعريس، إنني جميل، وإني النشوة بذاتها، ستبلغون كل أهدافكم حالما تتبنوني».

هدأ سانديب صامتاً لفترة ثم توجه إليّ بالكلام مرة أخرى:

- «آه أيتها الربَّة! لقد حان الآن وقت رحيلي عنك. فإن مكثتُ أكثر من ذلك سيتهدم كل شيء إلى الأبد. إنها نوع من أنواع الكارثة فعلاً عندما يكون المرء جشعاً ويحاول ابتذال ما هو أثمن شيء في حياته، وبلحظة واحدة يحصراللانهاية في حدود الزمن. وعندما كدنا أن ندمر اللانهاية هبَّت عاصفتك في اللحظة الحاسمة فأحيتْ روعة ذكراك وأغاثت كاهنك المتعبد، وها هو في حفلة وداعه لك يغني مجدك الأعظم ويحررك اليوم أيتها الربَّة. إن معبدي ترابي لن يسعك بعد اليوم فهو مهدد كل لحظة بالانهيار. اليوم، أرحل عنك لأعبد منك صورة أكبر في معبد أعظم. سأتمكن من الاقتراب منك بل والوصول إليك عندما أبعد عنك. هنا حظيت بلطفك فحسب وهناك سأحظى ببركتك وقداستك».

كان صندوق حليي على الطاولة فرفعته قائلة:

- «إنني أعهد إليك أن تحمل هذه الحلي وتقدمها على أقدام من وهبته إياها على يديك».

ظل زوجي صامتاً. وغادر سانديب القاعة. جلستُ لأصنع شيئاً من الكعك لآموليا، وإذا بسلفتي تدخل وتقول:

- «بالله عليك يا أميرتنا الصغيرة، أتقومين بصنع الطعام بنفسك في يوم عيد ميلادك»؟

- «ألا أستطيع أن أطعم سوى نفسي؟»

- «لكن ليس من المفترض أن تطعمي أحداً اليوم، علينا نحن أن نهتم بالوليمة من أجلك. لقد كنتُ عازمة على أن أباشر بتهيئة الوليمة عندما سمعتُ النبأ المذهل الذي روعني وسلب عقلي. يقولون إن عصابة من خمسمائة رجل قد أغارت على إحدى خزائننا وسرقت ستة آلاف روبية. ويتوقعون أنها ستغير في المرة اللاحقة على بيتنا لتنهبه».

شعرتُ براحة عظيمة لسماعي هذه الأخبار، لقد كانت نقودنا تلك المسروقة! فتبادر لذهني على الفور أن أبعث إلى آموليا لأخبره أنه ما عليه إلا أن يسلم النقود لزوجي ويترك لي تفسير الأمر. ولما لاحظت سلفتي أسارير وجهي المنفرجة صاحت تقول:

- «إنك تفزعينني! إنك فعلاً لمخلوق عجيب! ألا تعرفين حقاً شيئاً اسمه الخوف؟»
- «أنا لا أعتقد أنهم سيأتون ليسطوا على بيتنا».
- «لماذا لا تعتقدين ذلك؟ ومن كان يصدق أنهم سيهجمون على خزائننا؟»

لم أجب هذه المرة بل حنيت رأسي ومضيت أكمل الكعك أحشوه بجوز الهند.

ثم قالت سلفتي بعد أن حدقت في وجهي طويلاً:

- «حسناً، إني ذاهبة لأرى أخي نيكهيل وأعمل على إرسال الستة آلاف روبية إلى كالكتا قبل فوات الأوان».

ما أن ذهبت حتى تركتُ طبق الكعك وشأنه وأسرعتُ إلى غرفة الملابس التي فيها الخزانة الفولاذية وأغلقتُ الباب على نفسي. كانت سترة زوجي لا تزال معلقة والمفاتيح في جيبها فقد كان أغلب الأحيان شارد الذهن وشديد النسيان. فأخذتُ مفتاح الخزانة الفولاذية من الحلقة وخبأته في ثنايا ملابسي. في هذه اللحظة بالذات قرع أحدهم الباب فقلتُ على الفور: «إني أبدل ثيابي».

ثم سمعتُ سلفتي تقول"عجباً! منذ دقيقة واحدة رأيتها تصنع كعكاً والآن مشغولة باللبس! ما هذه التقلبات الكثيرة التي أراها هنا في هذه الأيام! إنني متأكدة أنهم ينظمون لاجتماع أتباع باندي ماتارام اليوم. وماذا بعد يا عزيزتي! يا أميرتنا! هل تعدين النقود التي سرقتها؟»

لست أدري ما الذي جعلني أفتح الخزانة جاهدة قدر الإمكان ألا أحدث ضجيجاً. لعلها بقية أمل في أن يكون الأمر كله حلماً، ماذا لو فتحت الدرج الصغير الداخلي ووجدتُ لفافات الذهب هناك في مكانها كما كانت من قبل؟» ... لكن وا أسفاه! لقد كان كل شيء خاوياً كالأمانة التي اغتالها الخائن!...

عليَّ أن أبدل ملابسي رغم أنه لا حاجة لي لذلك لكني اضطررت أن أتمم المهزلة وأن أضفر شعري من جديد. وعندما خرجتُ سخرت مني سلفتي قائلة:

- «كم مرة في اليوم تبدلين ملابسك؟ ما هي المناسبة لكل هذا اللبس؟» فقلتُ لها من اجل عيد ميلادي. ضحكت وقالت:

- «إنك لا تحتاجين لعذر لتبديل ملابسك، لقد صادفتُ العديد من النساء، لكني لم أرَ من تهتم بنفسها مثلك!»

كنت على وشك أن أبعث خادماً في طلب آموليا عندما جاءني أحد الرجال برسالة صغيرة، كانت من آموليا، وقد كتب فيها يقول:

«أميرتي العزيزة، لقد دعوتني عصر اليوم لكني لم أعد أطيق الانتظار ولن يهدأ لي بال إن تأخرتُ عن تنفيذ أوامرك أولاً،ثم بعدها فقط سأقبل الكعك الذي صنعته بنفسك. قد أتأخر في العودة مساء اليوم».

هل كانت الآلهة تعلم لمن سيرد آموليا النقود؟ وإلى أي مأزق جديد يندفع هذا الفتى المسكين؟ أواه! أيتها المرأة الشقية! إنك تستطيعين أن ترسليه كالسهم ولكنك لا تستطيعين أن تستردّيه إن أنتِ أخطأتِ هدفك. كان ينبغي عليَّ أن أعترف وأعلن على الفور أني وراء هذه السرقة. فنحن النساء نعيش على ثقة محيطنا بنا، وهذه الثقة هي كل عالمنا، لذا يصبح من الصعب علينا

أن نحتفظ بمكانتنا ضمن العائلة والمجتمع بعد أن نخون الأمانة في الخفاء حيث نضطر بعدها للوقوف على شظايا ما حطمناه فتجرحنا حروفه المسننة في كل خطوة. إنه ليس من الصعب أن يخطيء الإنسان لكن تقويم الخطأ والتكفير عنه هو أصعب على المرأة مما هو على الجنس الآخر.

لقد مضى زمن منذ أن أغلق أمامي كل سبيل للاتصال الطبيعي بزوجي. وأنا أفكر بصعوبة تلقيه هذه الأخبار التي قلبت الدنيا ولم تقعدها. واليوم بالذات تأخر كثيراً عن موعده في العودة للغذاء، وكانت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر. كان ذاهلاً متحيراً فاقداً كل شهية للطعام. تراني هل فقدت حقي في مداعبته وملاطفته أثناء الطعام؟ آه! وا أسفاه! حولتُ وجهي ومسحتُ دموعي بطرف ثوبي. شعرتُ حينها أنه ينبغي علي أن أتجاوز تلك القطيعة التي حصلت بيننا لأنني كنت مشتاقة أن أقول له: «تعال إلى غرفتنا واسترح قليلاً إنك تبدو متعباً».

ولم أكد أبدأ بسعلة بسيطة لأفتح الموضوع، حتى جاء أحد الخدم مسرعاً ليبلغنا أن مفتش الشرطة قد أحضر قاسم سرادار معه، بدا القلق واضحاً على وجه زوجي فترك طعامه وخرج مسرعاً ليرى ما الأمر. وبعد أن ذهب جاءت سلفتي تلومني:

- «لماذا لم تبعثي لي لتخبريني أن الأمير نيكهيل قد عاد للغداء؟ فأنا ظننت أنه لن يصل قبل أن أنهي حمامي نظراً لتأخره الطويل في العودة إلى البيت هذه الأيام، لكن كيف فرغ من غدائه بهذه السرعة؟»
- «لماذا تسألين؟ هل كنتِ تريدينه في شيء؟»
- «لقد سمعتُ أنكما ذاهبان معاً إلى كالكتا غداً؛ إن صحَّ هذا الخبر، فأنا لن أستطيع العيش هنا وحدي. وسلفتي الكبيرة لا تتحرك أبداً ولن تترك أربابها ورباتها، فأنا في هذه الحالة لا يمكنني حراسة بيتكم الخالي في هذه الأيام العامرة بالجرائم واللصوص الذين

يعجّون من حولنا، سأجنّ من الخوف في كل لحظة أسمع فيها صوتاً، هل عزمتما حقاً على السفر غداً؟»

- «نعم».

قلت نعم مع أني لم أسمع بالخبر قبل الآن، فقلتُ في نفسي إنه قبل الرحيل بوقت قصير ستحاك قصصٌ كثيرة، كما لم أكن واثقة أن قصتنا لن تتحول قبل الغد إلى اتجاه يجعل الرحيل والبقاء في المنزل سواء. من يستطيع التكهن كيف سيصبح بيتنا وحياتنا بعد ذلك، فقد بدا لي المستقبل حلماً بعيداً مختبئاً خلف الضباب ولا أستطيع حتى تصوره. كلما لاحت معالم مصيري بالظهور أتمنى لو أن أحداً يطيل بمدى هذه الساعات الباقية ليعطيني مهلة يوم أو يومين كي أتمكن من إصلاح الأمور، حيث أستطيع إنهاء الكثير من الأشياء بحدود كفاءتي، فأنا على الأقل قد أتمكن بهذه المهلة أن أهيّىء نفسي والعالم للخبر الصاعق الذي سوف يتلقفونه.

عندما تزرع بذور الدمار تحت الأرض، فهي تقضي زمناً طويلاً كامنة في الأرض قبل أن تنبت، وكلما طال الزمن يتهيأ للمرء أنه ليس هناك من خطر يخاف منه. لكن حالما تنبثق شتلة صغيرة فوق الأرض، فهي تنمو بسرعة كبيرة ومن ذلك الحين فصاعداً لا يمكن إخفاؤها لا بقلوبنا ولا بأرواحنا ولا حتى بحاشية الساري الذي نرتديه.

قررتُ ألا أفكر في شيء أبداً، بل سأبقى صامتة في سلبية وجمود، وأدع الأمور تأتي متى تشاء وسأتقبل نصيبي العاثر مهما كانت نهايته. وأعتقد أنه مع كل هذه العقد والصعوبات سيكون بعد غد كل شيء قد انتهى. تناقل الأخبار عني التي ستطلق فضيحة رنانة، الضحك والدموع والأسئلة والأجوبة عليها مع الشروح ومع كل شيء... لكني لا أستطيع أن أنسى وجه آموليا الجميل المشرق بالتضحية والولاء. فهو لم ينتظر بيأس حلول القدر، بل أسرع إلى زحمة الخطر. أحيّيه من أعماق ضعف المرأة وأحني راسي احتراماً له وتبجيلاً. لقد كان لي الطفل - الرب، لقد أتاني هنا وتولى بفرح مهمة نكبتي،

فكيف أعاني من مثل هذه النعمة الإلهية التي أرسلت آموليا لينقذني من عقوبتي ويتلقاها هو بصدره المسؤول؟

آه يا ولداه يا آموليا! آه يا أخي الصغير! إنني أعزك وأحيّيك كنتَ نقياً جميلاً شجاعاً باسلاً – إنني أبجلك وأصلي لمباركتك وأتضرع إلى الله أن يمنحني من نعمته ابناً مثلك في جيل آخر.

نشطت الشائعات من كل جانب، وكان أفراد الشرطة دائمي الدخول والخروج، وخدم المنزل في اضطراب وقلق كبير. جاءتني وصيفتي «خيما» وقالت:

- «أرجوك يا أميرة أن تضعي خلخالي الذهبي وسواري في خزانتك الفولاذية.»

لمن أستطيع البوح أن أمكم الصغيرة، أم بيتكم، قد نسجت هذه الشبكة من القلق التي انتشرت في كل أنحاء البلاد وأوقعت نفسها فيها؟ لا بد لي الآن من قبول وديعة «خيما» من الحلي ووديعة ثاكو من النقود، لحمايتها مع المحافظة على مظهر براءة وجهي. كما أحضرت زوجة بائع الحليب بدورها صندوقاً صغيراً فيه ساري من صنع «بنارسي» وبعض المقتنيات الأخرى لتحفظه عندي وقالت لي: «لقد حصلتُ على هذا الساري كهدية يوم زفافكِ».

عندما تفتح خزانتي الفولاذية غداً أمام هؤلاء الأشخاص أنفسهم – خيما وثاكو وزوجة بائع الحليب وأهل البيت أجمعين.... فليحدث ما يحدث... ما نفع التصورات والتكهنات؟ إنني لا أريد التفكير في هذا! خير لي أن أفكر كيف سيكون الحال في العام القادم وفي اليوم الثالث من «ماغ[1]» Magh هل ستكون كل الجراح في بيتي نازفة كما هي عليه الآن؟

كتب آموليا أنه سيعود في المساء، لكني لا أستطيع أن أبقى وحدي جالسة في غرفتي مع أفكاري وظنوني لا أفعل شيئاً، ربما خير لي أن أجلس

---

(١) Magh.

بهدوء وأتابع له صنع الكعك. لقد صنعتُ منه الشيء الكثير ولكن ينبغي أن أصنع منه أكثر وأكثر. لكن من سيأكل كل هذه الكمية؟ إنها تكفي كل الحاشية من وصيفات وخدم في هذا المنزل. ينبغي أن أطعمهم منه هذه الليلة بالذات لأنها مهلتي الأخيرة، أشعر وكأنها ملك يدي أما الغد فهو بعيد، أمد يدي لأضمه لكنه يتوارى خلف الظنون.

مضيتُ أعمل دون ملل أقلي الكعكة تلو الأخرى؛ خيل إليّ كما لو أن هناك اهتياجاً قرب الجناح الداخلي للمنزل، ترى هل افتقد زوجي مفاتيحه عندما أراد فتح الخزانة الفولاذية؟ وهل استدعت سلفتي كل الوصيفات والخدم لمساعدته في البحث عنه؟ كلا، ينبغي ألا التفت إلى هذه الأصوات، فلأغلق الأبواب وأهدأ قليلاً. وما كدت أنهض متجهة نحو الباب حتى أقبلت ثاكو لاهثة وقالت: «يا أميرتنا الصغيرة!»

فقلت لها:

- «أرجوك اتركيني وحدي ولا تزعجيني، ليس لدي وقت للكلام الآن»، لكنها مضت تقول:
- «الأميرة الكبيرة تريد أن تراكِ لقد أحضر ابن أختها «ناندا بابو» معه من كالكتا آلة تتكلم كالإنسان تعالي واسمعيها».

لم أدرِ في تلك اللحظة هل أضحك أم أبكي وسط كل ما يجري معي ومن حولي. إنه الحاكي «الغراموفون» أكان ينبغي أن يظهر في مثل هذا الوقت بالذات ليردد أغانيه بالنبرة المخنّة نفسها كلما أديرت آلته غير مبال بالعالم؟ عندما تقلد الآلة الحياة يصبح الموضوع مهزلة كبيرة.

بدأت ظلال المساء تخيّم على الأجواء وكنت أعلم أن آموليا لن يتوانى عن بعث رسالة في حال عودته، لكني لا أستطيع الجلوس والانتظار. فناديتُ خادماً وطلبتُ منه أن يذهب ويستدعي آموليا، فبحث الخادم في أرجاء المكان وعاد يقول:

- «آموليا بابو ليس هنا».

لم يكن في تلك الكلمات الشيء الكثير، لكن ألماً مبرحاً اجتاح كياني، بمجرد أن قال الخادم: «آموليا ليس موجوداً» لقد كان وقعها في أذني كالنحيب في ظلمة الليل.

إنه ليس هنا! لم يعد! لم يعد موجوداً! لقد ظهر في حياتي كشعاع الشمس الغاربة، هل ظهر لي ليختفي ثانية؟ لقد كانت عظمته أنه لا يهاب شيئاً، فمرَّت ببالي كل أنواع الحوادث والمخاطر المحتملة وغير المحتملة التي قد يتعرض لها؛ هل أرسلته بنفسي إلى قدره الغاشم؟ وكيف سيمكنني العيش بهذا الحمل بعد اليوم؟

لم يكن لدي تذكار من آموليا سوى ذلك المسدس الصغير الذي قدَّمه لي هدية احترامه وتوقيره. أعتقدُ أن هناك إرادة سماوية مقدسة في هذا الشأن، ففي شخص هذا الفتى أرسل لي القدر الوسيلة التي بها أتمكن من إزالة خزيي الذي تسلل إلى جذور حياتي نفسها، طهرني ثم غاب كنسمة في الريح. يا لها من هدية حب! يا لها من رسالة طوباوية كُتِبتْ لهذا القصد!

فتحتُ صندوقي وأخرجتُ منه المسدس ورفعته بخشوع إلى جبيني تحية وإجلالاً. في هذا الوقت بالذات دقت أجراس معبدنا فركعت على الأرض سجوداً لله.

في ذلك المساء دعوتُ من في البيت جميعاً ليتناولوا من الكعك الذي هيأته. أتت سلفتي تقول:

- «لقد احتفلتِ بعيد ميلادك بطريقتك الخاصة وبمجهودك الخاص إنها وليمة رائعة هل هذا يعني أنك لا تريدين منا أن نساعدك بشيء؟ قالت ذلك وأدارت الحاكي «الغراموفون» الذي عزف الحاناً موسيقية سريعة بأصوات رفيعة وحادة لمختلف المطربين. فخيّل إليّ أن كورس فرسان الطرب في إسطبل ربات الموسيقى قد بدأ صهيله الشجي.

تقدم الليل قبل الانتهاء من واجب إطعام الجميع وتكريمهم. وشعرتُ بشوقٍ إلى أن أختم عيد ميلادي بملامسة قدمي زوجي في الليل. فذهبتُ إلى غرفتنا ووجدته مستغرقاً في النوم. لقد كان يومه شاقاً مرهقاً إذ كان عليه الذهاب والمجيء لمرات عديدة بالإضافة إلى القلق من الأحداث الحاصلة. فرفعتُ طرف الناموسية بلطف ووضعتُ رأسي عند قدميه، فلامسهما شعري وحالما أحسَّ به دفع قليلاً برأسي بعيداً عن قدميه وهو غاف مرهق.

ثم خرجتُ وجلستُ في الشرفة باتجاه الجانب الغربي من البيت. كانت هناك شجرة قطن حريري منتصبة وقد نفضت كل أوراقها فبدت عن بعد وكأنها هيكل عظمي! كان القمر قد ظهر من خلفها بهدوء وهو في اليوم السابع من دورته، فشعرتُ فجأة وكأن نجوم الليل جميعها قابعة في سمائها خشية مني بل الكون الليلي كله ينظر إليّ بارتياب لأني وحيدة.

لا شيء في الخليقة أغرب من إنسان وحيد، فحتى من مات أقرباؤه وأحباؤه كلهم واحداً تلو الآخر، فهو ليس بوحيد، إنه يتلقى سنداً من خلف ستار الموت؛ لكن ماذا عن الإنسان الذي يكون أقرباؤه وأحباؤه جميعهم بجواره لكنهم ليسوا قريبين منه، أو الإنسان الذي انقطع عن مصاحبة كل من يحيط به، ألا ترتجف منه حتى العظم كل مجموعة الكواكب عندما يرنو إليها في عتمة الليل؟ فأنا لست بعيدة عمن يحيطون بي، أدور حول نفسي وأعيش في تنافر يتجاوز الكون كله، كلؤلؤة الندى على ورقة اللوتس.

لكن لماذا لا تتغير المخلوقات البشرية تماماً من رأسها لقدمها عندما تقاسي وتخضع لعملية تحوّل؟ حين أفكر بكياني وقلبي أجد أن كل شيء لا يزال كسابق عهده إلا أنه تعرَّض لهزة عنيفة جداً قلبته رأساً على عقب، فما كان فيه مرتباً وجميلاً، أضحى مبعثراً ومتناثراً، وما كان قد نظم في قلادة هرَّ نثراً فوق التراب. ألا تكفي هذه الحالة لتدمي قلبي؟ إنها الموت بعينه، لكن كل شيء يستمر في هذا القلب ولا أرى النهاية في موتي بل أخال أن في الموت

مزيداً من الرعب والذعر، فما يلزم تصفيته من حسابات ينبغي أن يتم في الحياة وليس من مخرج آخر لنا.

فبدأتُ أصلي: «آه يا إلهي الغالي، أرجوك سامحني لآخر مرة، ما وضعته من مسؤولية على عاتقي ومن ثروة بتصرفي قد عرضتها كلها للضياع، فأنا اليوم لم أعد أستطيع تحمل هذا العبء ولا نبذه. أرجوك يا ربي اعزف بنايك كما عزفت لي قديماً تحت سماء الصباح الذهبية في ذاك اليوم السعيد فتذهب عني همومي، فبغير أنغام نايك لا يُجبر ما تكسَّر ولا يُطهَّرُ ما تدنس ولا يعاد بناء بيتي الذي تدمَّر، وبغير رنيمكَ حياتي تهدر.

استلقيتُ ووجهي على الأرض وأجهشتُ بالبكاء، أطلب الرحمة والملاذ ودليل غفران يجلب لي العزاء والسلوان فيطمئن قلبي بغسل الآثام. وقطعتُ على نفسي عهداً أن أرقد هنا خضوعاً وتسليماً لربّي طوال الليل والنهار، لا أمس طعاماً ولا شراباً إلى أن تبلغني بركته.

سمعتُ في هذه الأثناء وقع خطى، فبدأ قلبي يرتجف حدساً وتوقعاً. من قال إن الآلهة لا تتجلى لبني الموت؟ لم أجرؤ على رفع وجهي لأنظر إليه، قد لا يحتمل رؤيتي. تعال وتجلَّ أمامي! والمس جبيني بقدمك وقف فوق قلبي النابض يا رب وعندها دعني أموت.

جاء أحدهم وجلس قرب رأسي، من تراه؟ زوجي؟ لقد اهتز في قلبه عرش إله لم يعد يحتمل بكائي، فشعرتُ بدوار عند أول لمسة من حضوره، وانفجرت عروقي تدفقاً وجرف فيض دموعي القاهر أدران الألم من قلبي. فضممتُ قدميه بشدة إلى صدري، أواه! لماذا لا يغرسان فيه إلى الأبد؟

حان الوقت لأكشف كل شيء، لكن ماذا يمكن قوله بعد كل الذي جرى؟ فليكن، سأعترف له بما حصل. بدأ يداعب شعري بلطف، لقد منحني بركته. فغداً عندما تكشف فضيحتي ويرفع عاري على رؤوس الأشهاد سأقبل هدية مذلتي أمامه وأمام الجميع وألمس قدمي إلهي، بريئة مخلصة.

لكن ما يؤلم قلبي هو أن نايات الفرح التي عزفت في زفافي قبل تسع سنوات مرحبة بقدومي إلى هذا المنزل لن تعزف ثانية في حياتي الباقية. لقد دخلتُ هذه الغرفة كعروس! آه! لمن أتضرع وأتوسل ليعيدني فأقف من جديد على عتبة هذه الغرفة كعروس مزينة بوشاح زاهي الألوان؟ كم من الأيام والعصور والأدوار الزمنية ينبغي أن تمر حتى يتسنى لي العودة إلى ذلك اليوم من تسع سنين مضت!؟ يستطيع الله أن يخلق الجديد ويخلق من جديد وبقدرته وحدها يعاد بناء ما تهدَّم.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل السابع عشر

نيكهيليش

اليوم هو موعد سفرنا إلى كالكُتا. أشعر بضيق في صدري، هل هو تراكم أفراحي وأتراحي الذي يثقل بنيره عليّ؟ إنه لوهم خادع أن أستمر في جمع الثروات؛ والحقيقة هو أني رحّال في مسيرة الحياة، أما بوصفي رب البيت، فهو ترتيب كي أطعنَ مراراً وتكراراً إلى أن تقتلني الطعنة القاضية.

كان ارتباطي بك يا بيمالا دوراً من دورات الأبدية – وإليك عرفاني وشكراني لهذه المدة التي قضيناها معاً، لكن الاستمرار فيها عبر حدود زمنها يحوِّل الوثاق إلى استرقاق. واليوم أطرحُ الأصفاد أرضاً لأسير قدماً، وسأكون ممنوناً للقاء عينيك وملامسة يديك، لكن ماذا بعد؟ ستستمر رحلة الكون الأبدية ولحظة الحياة القاسية. ما ألطف خداعك لي يا حبيبتي! نغمات جميلة ترسل إلي برذاذ معانيها عبر طيات الفراق. ولعربدة الآلهة صدى في بكائنا تهشم كؤوس أفراحنا لأنها تعلم خزان خلاصنا الذي لن ينضب أبداً. لن أتوقف لالتقط كسرات من كأسي المهدور – بل سأمضي في مسيرتي وإن بقلب مثقل. ظهرت أرملة أخي أمامي وقالت:

- «أخبرني من فضلك يا أخي العزيز ما قصة كل هذه الكتب التي توضَّب في صناديق وتُحمَّل على عربة استعداداً لترحيلها؟»
- «هذا يعني أنني لم أتمكن من التخلص من نقطة ضعفي تجاهها».
- «في مثل هذا الضعف قد يكون نعمة خلاصك، لكن هل تعني أنك لن تعود إلى دارك أبداً؟»
- «سأذهب وأعود باستمرار لكني لن ألتزم بالبقاء هنا طوال الوقت».

- «هل هذا قرارك الأخير؟ هل يصح ذلك؟ تعال إذاً إلى غرفتي وانظر بعينيك كم من الأشياء هنا مولعة أنا بها؟»

قالت ذلك وأمسكتني من يدي ودفعت بي إلى داخل غرفتها، لأرى العديد من أنواع الصناديق والصرر، الكبيرة منها والصغيرة، فتحت إحداها وقالت:

- «انظر يا أميرنا إلى كل معداتي الخاصة التي أضع فيها بهارات الطهي، لقد طحنتُ وعبأتُ نوعاً خاصاً من الكاشو ذي النكهة اللذيذة، وتلك هي علب توابلي الصغيرة. وهنا وضعتُ ورق اللعب، وحتى أني لم أنسَ لعبة «العشرة» ولعبة «الخمسة والعشرين» فإن شغلتما عني ولم يكن أحد منكما مستعداً للعب، فبوسعي أن أجد هناك أصدقاء يشاركونني اللعب. انظر، هنا وضعت مشطاً، إنه أحد أمشاط السواديشي،... أتذكر، إنه صناعة محلية كنتَ قد اشتريته لي...؟»
- «لكن ما هذا الذي تفعلينه يا أختي؟ لماذا تحزمين كل هذه الأشياء»
- «سأذهب معكما إلى كالكتا.»
- «ماذا تقولين؟»
- «لماذا هذا الرعب وهذا القلق؟ لا تخف لن أحاول مصاحبتك ولن أتشاجر مع بيمالا. لكن طالما أني سأموت عاجلاً أم آجلاً، فالأفضل لي أن أجد ملاذاً آوي إليه على ضفاف «الغانج» المقدس قبل أن يفوت الأوان. أشعر بالتقزز لفكرة أنه بعد موتي ستحرق جثتي تحت شجرة التين في الأرض المكشوفة، لذلك أبيْتُ الموت وها أنا أعيش لأقلق عيشكم».

بعد كل هذا الزمن الطويل عادت الحياة إلى بيتي ناشطة وبدأت تتحدثْ. كانت أرملة أخي في التاسعة عندما دخلت إلى هذا البيت عروساً وكنت أنا حينها في السادسة من عمري، فكنا نلعب معاً كل يوم عند الأصيل في ركن من الشرفة تحت ظلال السور؛ كنت أتسلق شجرة «الأمرا» في الحديقة وأرمي لها بثمارها الخضراء من الأعلى فتقطعها قطعاً صغيرة وتمزجها

بالملح والفلفل الأحمر وأوراق الكزبرة وجوز الهند لتصنع منها طعاماً شهياً لكن مؤذياً بعض الشيء. وكان عليَّ أن أجمع لها بالسر كل المواد التي تحتاج إليها ولو كانت من المحرمات من حجرة المؤن لتستخدمها في زفاف دماها، فقد كنتُ أنا وحدي المعفى من العقاب في أحكام جدتي الإدارية لشؤون المنزل. وكنت أعيَّن رسولاً من قبلها إلى أخي كلما أرادت أن تظفر منه بشيء فاخر أو حلي ذي قيمة خاصة، لأنه لم يكن يستطيع أن يقاوم إلحاحي فينزل عند طلبها كي يتخلص من إزعاجي له.. وإني لأتذكر أيضاً حين كنت أقاسي شدة نظام أطباء تلك الأيام الذين ما كانوا ليسمحوا لي بشيء غير الماء الدافىء وحبات الهال (الهيل) أثناء نوبات الحمى التي كانت تعتريني، فكانت زوجة أخي لا تحتمل رؤيتي محروماً من كل أنواع الطعام، فتأتيني خفية بأطيب الأصناف، وما أقسى التوبيخ الذي نالها حين ضُبِطت ذات يوم! وكانت أفراحنا وأحزاننا المشتركة تكتسب نغمات من الألفة أكثر عمقاً كلما كبرنا، لكن كم من مرة تشاجرنا! كان الصراع على المصالح الدنيوية أحياناً يثير الغيرة والريبة والعداء ويصيب حبنا وألفتنا بهزات عابرة، لكن عندما ظهرت بيمالا على الساحة ودخلت بيننا بدت لي الصدوع أقوى من السابق وكأنها لن تلتئم أبداً، إنما كان يثبت دوماً أن القوى الشافية الراقدة في الأعماق هي أقوى من الجروح السطحية.

وهكذا نمت العلاقة الحقيقية بيننا صحيحة وتفتحت منذ طفولتنا حتى أصبحنا متلازمين لا نفترق عن بعضنا بعضاً، وازدهرت أكثر فأكثر وامتدت دوحتها وتفرعت أغصانها حامية بظلالها كل غرفة وكل شرفة وكل حديقة وكل ساحات هذا البيت الكبير. وعندما رأيتها تستعد للرحيل عنه بكل ما تملك مكدسة أكواماً من صناديق الشحن ووسائل لهوها وكعكاتها اللذيذة، وأدارت له ظهرها وكأنها لن تفكر بالرجوع إليه، ضاربة عرض الحائط بالجذور الأصيلة لهذه العلاقة التي بقيت لنا، هزت الصدمة قلبي في الصميم.

لم يخفَ عليَّ السبب في عزمها على السير مع التيار نحو المجهول محطمة كل أغلال عاداتها اليومية في المنزل الذي لم تفارقه يوماً منذ دخلته أول مرة وهي في التاسعة من عمرها؛ ومع ذلك فقد أبت أن تسمح لنفسها بالتحجج بهذا السبب مؤثرة التعلل بعذر تافه أياً كان.

لم يبقَ لها في الدنيا كلها سوى هذه العلاقة الوحيدة تحرص عليها بكل ما اختزنه قلبها من صدق وحنان وهي الأرملة العاقر المسكينة سيئة الطالع، المحرومة الشقية لكني لم أدرك عمق إحساسها بفراقنا المرتقب وحدّة انفعالها كما أدركتهُ وأنا واقف بين صناديقها وصررها المبعثرة. وأعتقد أن الخلافات الصغيرة والمشادات الكلامية التي كانت تنشأ بينها وبين بيمالا حول مقاسمة النقود والأملاك وحول المسائل الصغيرة في الإدارة المنزلية، والتي كانت تحدث أحياناً بيني وبينها أيضاً، لم تكن عن حب وضيع للدنيا بل عن شعورها بأن حقوقها نحو هذه العلاقة الوحيدة في حياتها قد صودرت أواصرها وأصبحت واهية بدخول هذه الإمرأة الأخرى التي لا يعلم من أين جاءت إلا الله ! لقد كانت تُجرح في كل خطوة ولم يكن لها الحق في أن تشكو.

وبيمالا؟ لقد شعرت هي أيضاً بان حق أرملة أخي عليّ لم يكن قائماً على الرابطة الاجتماعية بيننا فحسب بل كان أعمق من ذلك بكثير وكانت تمتعض من هذه العلاقات الممتدة إلى طفولتنا وتحنق منها في كثير من الأحيان.

واليوم، يخفق قلبي ألماً يمتد إلى أعماق كياني ذاته. فجلستُ على أحد الصناديق وقلت لها:

- «أشعر يا أختي الأميرة وكأني عائد إلى اليوم الذي تقابلنا فيه لأول مرة في هذا البيت».

تنهدت الأرملة تحسراً وقالت:

- «كلا، لا أريد أن أعود كامرأة إلى الحياة مرة أخرى، فما كان عليَّ أن أقاسيه لهو كاف لحياة واحدة فلينته هذا العذاب، من ذا الذي يستطيع احتمال ذلك مرة أخرى؟»

- «إن الحرية التي تنبثق من الألم هي أعظم من الألم نفسه».
- «ربما ما تقوله صحيح يا أخي الأمير، فأنتم الرجال تمتلكون الحرية، لكن نحن النساء نريد الوثاق ومصممات على تقييد أنفسنا. لذلك لن تفلتوا منا بهذه السهولة. فإن أردتَ أن تفرد جناحيك وتطير محلقاً فعليك أن تأخذنا معك لا أن ترمينا خلفك، لهذا السبب حزمت كل هذه الأمتعة. هل سيكون هناك التفاتة إلى الوراء إن نحن تركناك تغادر بحمل خفيف؟»

فقلتُ مبتسماً:

- «هكذا إذاً، إنني أشعر فعلاً بثقل حملك، لكن لأنكن أنتن النساء تعوِّضننا أحسن تعويض لتحملنا هذه الأعباء، فلهذا نحن معشر الرجال لا نشتكي».
- «إن أعباءنا هي من أشياء صغيرة، فمهما أردتَ أن تبعد عبئاً سيقول لك لماذا فأنا لست سوى عبء زهيد لا قيمة له؛ ما هو ثقلي بالله عليك؟ فبهذه الطريقة نحن نثقل عليكم بكثير من الخفة. متى نرحل يا أخي الأمير؟»
- «الليلة في الساعة الحادية عشرة والنصف، لا يزال أمامنا وقت كاف».
- «اسمع يا أمير، كن طيباً لمرة واحدة واحترم كلامي، أرجوك أن تتغدّى باكراً، ثم خذ قيلولة مريحة بعد الظهر فأنت تعلم أنك لا تنام ليلاً في القطار أبداً، إنك تبدو مرهقاً توشك أن تتداعى إجهاداً وضغطاً، هيا اذهب أولاً إلى الحمام لتشعر بشيء من الراحة».

وبينما كنا نسير نحو غرفتي جاءت الوصيفة «خيما» وقالت لنا بنبرات خفيضة مستعيذة وهي تجذب برقعها بحياء مفرط:

- «إن مفتش الشرطة قد جاء بأحدهم إلينا، ربما سجين، ويريد مقابلة المهراجا».

فصاحت أرملة أخي غاضبة:

- «هل المهراجا لص أو سارق حتى تزعجه الشرطة بهذا الشكل؟ اذهبي وقولي للمفتش إن المهراجا في الحمام».

فقاطعتُها قائلاً:

- «دعيني أذهب لأرى ما الخبر، قد يكون أمراً عاجلاً». فأصرّت قائلة:

- «لا، لا، لن أدعك تفعل ذلك. لقد صنعت بيمالا كعكاً كثيراً ليلة أمس سأرسل بعضاً منه إلى المفتش لنعدل له مزاجه إلى أن تستعد – قالت ذلك ودفعتني من يدي إلى داخل غرفة الحمام وأقفلت الباب، صحتُ محتجاً من الداخل بأن ملابسي النظيفة ليست معي ...» فأجابت على الفور:

- «لا تقلق، سأحضرها لك حالاً، أما أنت فاستحم من فضلك».

لم يكن لدي القدرة على تجاهل أو استخفاف مثل هذه الأوامر الجريئة، إنها قليلة جداً في هذه الدنيا. فليمض المفتش وقته في أكل الكعك، ثم ماذا لو أهملتُ عملي قليلاً؟

كان المفتش قد اعتقل في الأيام الأخيرة بعض الأشخاص بتهمة سرقة خزانتي؛ فكان كل يوم يجلب شخصاً بريئاً ليبقي المحضر مفتوحاً؛ من المرجح إنه جلب اليوم شخصاً بائساً سيء الطالع، فقلتُ في نفسي:لماذا يستمتع المفتش وحده بالكعك؟ كلا، هذا غير عادل ولا يليق أبداً، فقرعتُ الباب فقالت أرملة أخي من الخارج:

- «اُسكب بعض الماء إن كان الدم قد صعد إلى رأسك إنه يهدئك».

فقلتُ:

- «تدبري الأمر وابعثي كمية وفيرة من الكعك تكفي لشخصين، لعل الشخص الذي جيء به على انه لص أحوج إليه».

واستحممتُ بأقصى سرعة ممكنة، وعندما خرجتُ وجدتُ بيمالا جالسة على الأرض خارج الغرفة. أهذه بيمالا نفسها، المفعمة بالكبرياء الحازمة في

تصميمها والحاسمة بقراراتها واحترام نفسها؟ أي معروف تبغي طلبه حتى جعلها تجلس هكذا على الأرض عند بابي؟ حين وقفتُ مقابلها نهضت وأطرقت بوجهها وقالت:

- «أريد أن أخبرك بشيء». فقلتُ لها:
- «تعالي إذاً إلى داخل الغرفة».
- «لعل لديك أموراً خاصة؟»
- «نعم، لكن هذه الأمور يمكن تأجيلها، أما الحديث معكِ فهو...»
- «لا، أرجوك اذهب وانظر في أمور عملك أولاً - الحديث معي يمكن تأجيله إلى ما بعد تناول غدائك».

ذهبتُ إلى غرفة الجلوس لأجد طبق المفتش خالياً من الكعك تماماً إلا أن الشخص الذي أحضره معه لا يزال منهمكاً في الأكل. أخذتني الدهشة عندما رأيتُ آموليا فقلتُ:

- «أهو أنت يا آموليا؟»

فقال آموليا وفمه مليء بالكعك:

- «نعم إنه أنا يا سيدي... لقد أكلتُ كثيراً منه وإذا أذنت لي آخذ الباقي معي». قال ذلك وبدأ يصرّ الكعكات الباقية في منديله.

سألتُ وأنا أحملق في وجه المفتش:

- «ما هي المشكلة؟ ما معنى هذا كله؟» فابتسم المفتش وقال:
- «إن لغز اللص لم يكشف ولم نقترب من حل المشكلة قيد أنملة، بل يزداد هذا السر غموضاً كلما حاولنا البحث. ثم أخرج شيئاً مربوطاً بصرة ظهر حين حله أنه رزمة أوراق نقدية». وقال:
- «هذه يا مهراجا هي الستة آلاف من الروبيات».
- «أين وجدت؟»
- «في أيدي آموليا بابو. لقد ذهب مساء البارحة إلى وكيل مكتبك في «تشاكوا» ليخبره أن النقود وجدت. لكن الوكيل بدا أشد هلعاً

لاسترداد النقود مما كان عند سرقتها. فقد خاف أن يشك بأنه سرق النقود وجاء الآن ليخترع قصة خرافية لذلك اضطرب خوفاً من اتهامه. فسأل آموليا أن ينتظر متعللاً بإحضار شراب له ثم جاء مسرعاً إلى مركز الشرطة، فقمتُ على الفور وأخذتُ آموليا وحاولتُ معه طوال فترة الصباح لكنه رفض التصريح بأي معلومة عن مصدر النقود، فحذرته أنه سيظل محجوزاً حتى يعترف، فقال إنه سيضطر إلى الكذب في هذه الحالة. فقلتُ له فليكذب إن أراد. فقال إنه وجد النقود في حقل بين شجيرات. فقلتُ له: «ليس بهذه السهولة يتم اختراع الكذب، إذ ينبغي عليك أن تحدد لنا أي شجيرة من الشجيرات كانت؟ وأين كانت النقود، تحتها أم فوقها أم في داخلها؟ وأين هي هذه الشجيرة؟ ولماذا ذهبت إلى هناك؟ عليك أن تخبرنا بالتحديد كل هذا. فقال لا تقلق، هناك متسع من الوقت لاختراع هذا كله». فسألتُ المفتش:

- «لماذا يا سيد «هاريشاران بابو» تضايق هذا الشاب النبيل المحترم آموليا بابو؟»

فتابع المفتش حديثه وهو يقول:

- «أنا لا أبغي إزعاجه، إنه ليس نبيلاً فحسب بل هو أيضاً ابن زميلي في الدراسة نيباران غوشال؛ دعني يا مهراج أروي لك بالضبط ما حدث. إن آموليا يعرف اللص ولكنه يريد حمايته بتعريض نفسه للشبهة فهو يحب هذا النوع من الشجاعة إنها حماسة باندي ماتارام.

يا ولدي، أتقوم بكل هذه البطولات دفعة واحدة، لقد كنا في ماضي الزمان في سن الثامنة عشرة، وكنتُ طالباً ادرس في كلية «ريبون»؛ وكدت أن ادخل السجن لمحاولتي إنقاذ سائق عربة من يد شرطي، لكني نجوت بأعجوبة». ثم التفت إلي قائلاً: «يا مهراج، إنه من الصعب علينا الآن أن نحدد من هو اللص، لكني أستطيع أن أخبرك من وراء هذا كله».

فسألته:

- «من؟» فقال:

- «وكيلك «تينكاري دوتا» وقاسم سرادار».

ذهب المفتش بعد أن عرض كل الحجج المنطقية الداعمة لشبهاته وظنونه.

قلت بعدها لآموليا:

- «إن أخبرتني من أخذ النقود فاني أعدك بألا يضار أحد».

فقال:

- «أنا أخذتها». فسألتُ مستغرباً:

- «لكن كيف يمكن هذا وعصابة الرجال المسلحين؟»

- «فأجاب»: «بل أنا وحدي».

وكان ما اخبرني به آموليا بعد ذلك عجيباً. إن الوكيل كان قد فرغ لتوه من عشائه، وكان في الشرفة يغسل فمه، والمكان معتم، وكان آموليا يحمل مسدسين في كلا جيبيه، أحدهما محشو بطلقات فارغة والآخر بالرصاص، وقد وضع قناعاً على وجهه، فصوب ضوء مصباح كاشف إلى عينيه، وأطلق طلقة فارغة، فأغمي على الرجل، وجاء بعض الحراس مسرعين مع أنه لم تكن نوبتهم، لكن آموليا أطلق طلقة فارغة أخرى نحوهم فسارعوا بالاختفاء. ثم جاء قاسم، صاحب النوبة يلوح بعصا، وفي هذه المرة صوَّب آموليا رصاصة إلى ساقيه، فجرح وتداعى على الأرض مرتعداً. أمره آموليا بعد أن أفاق ونهض أن يفتح الخزانة ويسلمه مبلغ ستة آلاف روبية. ثم انطلق فاراً على حصان يعود لمكتبنا ووصل إلى بيتنا مطمئناً صباح اليوم التالي.

فسألته:

- «وما يجعلك تفعل كل هذا يا آموليا؟» فأجاب:

- «كانت لدي مهمة عاجلة وجب علي تنفيذها».

- «لماذا إذاً تحاول رد النقود؟»

- «أرجوك بأن تستدعي الإنسانة التي نفذتُ أوامرها. سأخبرك بكل شيء بحضورها».

فسألته:

- «من هي؟» فقال:

- «الأميرة الصغيرة».

فأرسلتُ بطلب بيمالا. فجاءت ودخلت الغرفة ببطء شديد حافية القدمين وقد غطت رأسها بشال أبيض. عندما رأيتها شعرت وكأني لم أشاهدها بهذه الإطلالة من قبل حيث بدت كنور الفجر متدثرة بضياء النهار.

ركع آموليا تحية واحتراماً ولمس قدميها ثم قال وهو ينهض:

- «لقد نفذت أمرك ورددت النقود».

فقالت:

- «لقد أنقذتني فعلاً يا أخي». فقال آموليا:

- «كانت صورتك في مخيلتي فلم أكذب ولا مرة. وإني القي بشعاري باندي ماتارام عند قدميكِ إلى الأبد. وعند عودتي إلى هذا المنزل تلقيتُ مكافأتي، كعك البراساد الذي تبارك بلمسات يديك».

نظرت إليه بيمالا نظرة فارغة فيبدو أنها لم تفهم تماماً معنى كلماته هذه. أخرج آموليا منديله وحله كي ترى الكعكات التي وضعها فيه وقال:

- «لم آكلها كلها، استبقيتُ هذه حتى تقدميها إلى بيديك».

شعرتُ حينها أنه لا حاجة لهم بي هنا، فغادرتُ الغرفة وأنا أفكر بنفسي بصوت أجش، إنهم وضعوا إكليلاً من الأحذية البالية حول عنق تمثالي وأحرقوه على ضفة النهر. أنا لا أستطيع سحب أي إنسان من درب الموت. أما الذين يمتلكون القدرة على ذلك يفعلونه بإيماءة أو بإشارة، أما كلماتي فليس لها ذلك الإيحاء المعصوم. أنا لست شعلة بل مجرد فحمة منطفئة، خامدة

لدرجة لا يمكن لها أن تشعل مصباحاً. قصة حياتي كلها تثبت ذلك فالقنديل الذي صنعته لم يضيء أبداً.

عدتُ إلى الجناح الداخلي وئيد الخطى. شعرتُ أن روحي تسبقني إلى غرفة أرملة أخي. إني أحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الشعور بأن حياتي قد استطاعت أن تسكب عاطفة حقيقية ملموسة في عروق حياة أخرى في هذا العالم، فالإنسان لا يمكن له اكتشاف وجوده وهويته في داخله فحسب بل ينبغي عليه أن يبحث عنها عند الآخرين. ولما مررتُ أمام غرفة أرملة أخي خرجَتْ قائلة:

- «آه يا أميرنا العزيز، لقد خفتُ أن تتأخر اليوم أيضاً لكنك لن تنتظر لقد أمرتُ بإعداد غدائك حالما سمعتك قادماً، سيكون جاهزاً بعد دقائق».

فقلتُ:

- «خلال ذلك أذهب لأخرج النقود استعداداً لأخذها معنا».

وبينما كنا سائرين نحو غرفتي سألتني:

- «هل جاء مفتش الشرطة بخبر عن السرقة؟»

لكني لم أشأ إخبارها بكل التفاصيل عن رد الستة آلاف روبية التي سرقت، فقلت مراوغاً:

- «هذا كل ما رواه عن الحادثة». وعندما دخلتُ غرفة ملابسي وأخرجتُ سلسلة مفاتيحي، لم أجد مفتاح الخزانة الفولاذية ضمن الحلقة؛ إني حقاً مُبتلىً بالنسيان! ففي هذا الصباح بالذات كنت أفتح كثيراً من الصناديق لكني لم ألحظ أبداً أن هذا المفتاح غير موجود. سألتني: «ماذا حدث لمفتاحك؟»

ورحتُ أفتش في هذا الجيب وذاك ولكني لم أستطع أن أجيبها، وبحثتُ في المكان الواحد مرات عديدة، ثم خطر لكلينا أن الأمر لا يمكن أن يكون

خطأ في مكان المفتاح بل لا بد أن أحداً أخذه من الحلقة. ترى من يكون؟ من غيرنا يمكن أن يدخل هذه الغرفة؟ فقالت لي:

- «لا تشغل بالك به، هلم إلى طعامك أولاً، فلا بد أن بيمالا تحتفظ به لعلها لاحظت أنك أصبحت كثير النسيان».

لكني كنت شديد الانزعاج، فلم تكن من عادة بيمالا أن تأخذ مفتاحاً من مفاتيحي دون أن تخبرني بذلك. ولم تحضر بيمالا الغداء معي فقد كانت مشغولة بإطعام آموليا في غرفتها. أرادت أرملة أخي أن تبعث إليها لتأتي ولكني سألتها ألا تفعل.

لم أكد أفرغ من غدائي حتى دخلت بيمالا وكنت أفضل ألا أتحدث معها بشأن المفتاح بحضور أرملة أخي، ولكنها ما إن رأت بيمالا حتى سألتها:

- «أتعلمين يا عزيزتي أين مفتاح الخزانة الفولاذية؟» وكان الجواب: «إنه معي».

فصاحت الأرملة منتصرة: «ألم أقل لك؟ أميرتنا الصغيرة تتظاهر أنها لا تبالي بهذه السرقات ولكنها تحتاط منها في الخفاء».

ورأيتُ على وجه بيمالا ما بعث في نفسي الشك. فقلت:

- «دعي أمر المفتاح الآن سأخرج تلك النقود في المساء». فقالت الأرملة:

- «أراك تؤجل أخذها مرة أخرى، لماذا لا تخرجها وتبعثها إلى الخزانة؟»

فقالت بيمالا:

- «لقد أخرجتُ تلك النقود من الخزانة».

أما أنا فجمدت مندهشاً. فسألَتْ الأرملة:

- «أين احتفظت بها بعد أن أخرجتها؟» فأجابت بيمالا:

- «لقد صرفت كل هذه النقود».

اسمع، اسمع، صرخت الأرملة بقوة:

- «وأين صرفتِ هذا المبلغ الضخم من النقود؟»

لكن بيمالا لم تجب؛ ولم أوجه لها سؤالاً آخراً.

وهمت الأرملة بإبداء ملاحظة أخرى لبيمالا لكنها ردت نفسها عن ذلك وقالت وهي تنظر نحوي:

- «حسن، لا بأس على أي حال، لقد فعلت خيراً بأخذها، وتصرفت تماماً كما كنت أفعل بنقود زوجي، فكنتُ أسرقها من جيوبه وصناديقه وأخبّئُها بعيداً عنه لأني كنت أعلم أن لا فائدة من تركها معه، لأن الله وحده يعلم من كان سيقوم باختلاسها وتبديدها. أنتَ مثله يا أميري العزيز لقد هدرتَ أموالكَ على نزواتك الكثيرة وما أكثر الطرق التي تعرفونها معشر الرجال لصرف النقود. ولا يمكن المحافظة عليها إلا بأن نسرقها نحن. هيا قم لتستريح وتنام قليلاً».

وقادتني الأرملة إلى غرفتي ولكني كنت غير واع إلى أين أنا ذاهب، وجلستْ بجانب سريري بعد أن تمددتُ عليه، وابتسمتْ لبيمالا وهي تقول:

- «أعطني كعكة من كعكاتك يا حبيبتي. ماذا؟ لم يبقَ منها شيء؟ لقد أصبحت ِأكثر إسرافاً من عقيلة الحاكم. فاطلبي إذاً بعضاً من غرفتي».

فسألتُ أرملة أخي قلقاً:

- «هل تناولت ِغداءك ِ؟»

فأجابت:

- «نعم لقد تغديتُ منذ دهور».

لكن كان واضحاً أنها كذبة. وظلت الأرملة بجانب فراشي تثرثر في أمور شتى، وجاءت الوصيفة وقالت لبيمالا إن غداءها جاهز وكاد يبرد، لكنها لم تبدِ أي انتباه ولا أي اثر لسماع ذلك، فقالت الأرملة:

- «ألم تتناولي غداءكِ بعد! كيف هذا؟ لقد تأخرتِ جداً». وخرجت مع بيمالا.

وأخيراً أدركتُ أن هناك علاقة بين سرقة الستة آلاف روبية وبين سحب بيمالا للنقود من الخزانة الفولاذية. لكني غير راغب في معرفة هذه الصلة ولن اسأل عنها. إن القدر قد صمم خطة حياتنا بطريقة ضبابية لأنه أراد منا أن نضع بأنفسنا اللمسات الأخيرة ونعطيها الشكل النهائي وفق ذوقنا ومزاجنا. لقد كنت دوماً في توق إلى خلق حياتي وفق توجيهات الخالق، وإلى التعبيرعن فكرة عظيمة تبرز كل مكنونات فكري. لقد أمضيتُ أياماً عديدة في هذه التأملات، ولا يعلم بأمري إلا من خلقني، المطلع على قلبي وعقلي، بأي قسوة أنكرتُ مزاجي وكبحتُ رغباتي وقمعت نفسي في كل خطوة. لكن العسير في الأمر هو أن حياة المرء ليست ملكه وحده. فمن يبنِ حياته دون الأخذ بعين الاعتبار محيطه سيفشل حتماً؛ لهذا كانت رغبتي الدائمة أن أجتذب بيمالا حتى تشاطرني في هذا الخلق، ولأني كنت أحبها من كل قلبي وروحي فكان لا بد لي أن أنجح في كسبها لهذا الغرض، وكنت مؤمناً بهذه الفكرة. ثم اكتشفتُ أن الذين يستطيعون في يسر وبلا تكلف أن يجتذبوا من يحيط بهم إلى الاشتراك في صنع حياتهم، أولئك ينتمون إلى نوع من الجنس البشري وأنا أنتمي إلى نوع آخر. إني قد بنيت نفسي وفقاً لعقيدة لم أستطع نقلها إلى الآخرين. أما الذين أفضيتُ لهم بسريرة نفسي وقلبي فقد استوعبوا كل شيء عدا أعمق ما في كياني. إن اختباري لعسير، فعندما احتجتُ إلى معين لم أجد نفسي إلا وحيداً. لكني آليت على نفسي إلا أن أنتصر في هذه القضية حتى آخر نفس من حياتي، وسأسير في هذا الدرب الوعر وحدي حتى النهاية.

أدركتُ اليوم أن في طبعي ميلاً للظلم، كان هناك شيء من القمع عندما رغبتُ بناء علاقتي ببيمالا لأجعلها مثالاً دقيقاً من الكمال. لكن حياة البشر لم تُسوَّ بهذا الشكل لتنظم ضمن قوالب. وإذا اعتقدنا أن الفضيلة هي شيء كتيم أصم وحاولنا تشكيلها كالمادة تماماً، فإنها تحطم نفسها وتنتقم منا انتقاماً رهيباً.

لقد نمت شخصيتنا متباعدة الواحدة عن الأخرى دون أن ندرك ذلك، ربما بسبب هذا الظلم الذي مارسته. فشخصية بيمالا لم تنمُ وتزدهر وفق مقدرتها وإمكانياتها لأنني قمعتها ولم أدع لها المجال في ذلك. وبسبب ما أصاب نفسيتها من جرّاء رضٍّ ناجمٍ عن رهاب الاحتجاز في حياتها هذه، لجأتْ إلى خرق هذه القيود من الداخل. فهي قد سرقت الستة آلاف روبية مكرهة، لأنها لم تستطع أن تعبر عن نفسها بحرية معي فظنت أنني أختلف عنها كثيراً.

إنه لأمر جيد أن يتوافق بعض الناس مع الرجال العنيدين المتشبثين بأفكارهم مثلي أنا، لكن الذين لا يمكنهم موافقتنا فإنهم يلجؤون إلى خداعنا. لقد صنعنا حتى من الناس الأبرياء أفراداً مراوغين محتالين. فنحن بمحاولتنا لخلق شريكات منسجمات متناغمات، شوهنا زوجاتنا ومسخناهن.

هل يمكننا أن نبدأ دربنا من جديد؟ لو صحَّ الأمر، لاتبعتُ هذه المرة خطوات دمثة حنونة وهادئة. ولن أحاول أن أقيد رفيقتي في رحلة الحياة بأغلال أفكاري، لعزفتُ فقط على أوتار ناي الحب ولكنت قلت لها «أحبيني، أرجوكِ، وفي ضياء هذا الحب فلتنمُ شخصيتك وتزدهر بمداها كلياً، وليذهب عني بعيداً الإطار الذي أردتُ حصرك فيه، ولتنتصر إرادة الله فيك، وليرتد عنادي خائباً».

هل الشيم والأعراف قادرة على رأب الصدع الذي كبر بيننا والذي امتد وطفا على السطح جرحاً مفتوحاً نازفاً؟ لقد سقط الستار الذي كانت قوى الطبيعة الصامتة تصلح الأمور تحت ستره؛ فينبغي علينا أن نوقي جرحنا بأنفسنا، سأحميه بحبي، وأداوي آلامه بقلبي، وأبعده عن كل التأثيرات الخارجية حتى يحين يوم يبرأ فيه وتختفي ندبته. لكن هل لا يزال الوقت مناسباً؟ ألم يفت الأوان؟ ما أطول الوقت الذي ضاع في سوء الفهم! حان الآن وقت تفكيك الأخطاء فكم نحتاج لتصحيحها؟ وبعدها؟ قد يشفى الجرح لكن أيمكن إصلاح ما أفسده؟

خيل إليَّ وكأني سمعت صوتاً قرب الباب، فلما نظرت من حولي رأيتُ بيمالا تتراجع بعيداً عن الباب المفتوح، لا بد أنها كانت منتظرة قربه بصمت مترددة بالدخول إلي الغرفة فوثبتُ مسرعاً إليها وناديتها:

- «بيمالا»

جمدت في مكانها وظهرها إليّ، فأمسكتها من يدها وقدتها إلى داخل غرفتنا. ما إن أصبحت داخل الغرفة حتى استلقت على الأرض وأخذت وسادة غطت بها وجهها وأجهشت بالبكاء. أنا لم أقل شيئاً، لكني جلستُ قرب رأسها وأمسكتُ يدها. فعندما هدأت شدة تنهداتها واستوت جالسة حاولتُ أن أشدها إلى صدري لأضمها بقلبي ولكنها حاولت بقوة أن تتحرر من قبضتي وركعت عند قدمي وراحت تلمسهما برأسها بخشوع وتبجيل. فسحبتهما مسرعاً لكنها كانت أسرع مني فعانقتهما وقالت بصوت منفعل: «لا، لا، أرجوك لا تبعد قدميك دعني أتمم عبادتي».

بقيتُ ساكناً صامتاً، من أكون أنا لأمنعها من هذا التبجيل؟ فالإله الذي يبجل بمثل هذا الإجلال الصادق هو أيضاً إله حقيقي. وهل أنا أكون ذلك الإله حتى أشعر بهذا الحرج الشديد؟

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثامن عشر

بيمـالا

تعال إليَّ الآن - تعال إلى التلاقي حيث يتحد الحب كله في أعماق بحر العبادة، ويختفي الوحل في زرقة سحيقة بلا دنس.

أنا الآن لا أخاف شيئاً، لا نفسي ولا أحداً غيري. لقد تم اختباري بالنار، وما كان ينبغي أن يحرق صار رماداً، أما ما ظلَّ فهو حي باق لا يموت. لقد نذرتُ نفسي لقدميّ من استوعب كل أخطائي وسط آلامه العميقة وعذابه المبرح.

الليلة نذهب إلى كالكتا. لم أكن قادرة على الاهتمام بحزم أمتعتي في غمرة هذه التقلبات وهذا الجيشان الذي حصل في داخلي وعند الآخرين. لكن في النهاية، أخرجتُ حقائبي وبدأت بترتيبها وحزمها. دخل زوجي الغرفة بعد فترة بسيطة وأخذ يساعدني في إعداد الحقائب. فقلتُ له:

- «كلا، هذا غير معقول ولا يمكن أن يكون أبداً، لقد وعدتني بأن تستلقي في قيلولة قصيرة كي ترتاح».

- «لعلي أنا الذي وعد وليس نومي، فأنا لم أتلقَ منه أية إشارة».

- «لا، هذا ليس سبباً، اِستلقِ لترتاح على الأقل».

- «كيف ستتمكنين من القيام بهذا كله وحدك؟»

- «إني أتدبر ذلك جيداً، لا تخف».

- «حسناً، إن أردتِ أن تتفاخري بالاستغناء عني، فأرجوكِ افعلي ذلك ولا تتواني، لكني أصارحك القول أني لا أستطيع الاستغناء عنك. حتى النوم أبى أن يوافيني وحدي في غرفة النوم».

ثم عاود إلى العمل بعد أن قال ذلك الكلام المنعش. في هذه الأثناء دخل خادم وأخبرنا عن وصول سانديب بابو، وأنه طلب منه إبلاغنا بحضوره. لم أجرؤ على سؤال الخادم من يريد سانديب بابو أن يقابل. وفي لحظة واحدة انقلبت السماء وارتدت على ضيائها كما ترتد أوراق الزهور لتخفي العطور. فقال زوجي:

- «تعالي يا بيمالا لنذهب ونسمع ما يريد سانديب قوله لنا. لا بد أن لديه أمراً هاماً ما دام قد عاد بعد استئذانه بالرحيل».

خرجتُ ذاهبة مع زوجي لا لشيء إلا لأن امتناعي عن ذلك سيكون أكثر حرجاً لي. كان سانديب في قاعة الاستقبال يحملق في رسم على الحائط. وما إن رآنا ندخل القاعة حتى بادر بالقول:

- «لا بد أنكما تتساءلان فيما عاد بهذا الرفيق إلينا. لكنكما تعلمان أن الأرواح لا يمكن أن تطرد إلا بعد إتمام كل طقوس التطهير».

ثم أخرج من جيبه صرة بمنديله ووضعها على الطاولة، وحل العقدة، فظهرت تلك الجنيهات الذهبية. فقال:

- «لا تسيء فهمي يا نيكهيل، لا تحسبن أن مصاحبتك لي قد حولتني بين ليلة وضحاها إلى قديس، فسانديب ليس بالرجل الذي يرجع كالأطفال تائباً متباكياً ليرد مبلغاً قدره ستة آلاف روبية، لكن...»

لم يكمل سانديب ما كان يريد قوله، إنما توقف قليلاً عن الكلام ثم التفت نحوي وقال:

- «يا ملكة النحل، بعد كل هذه السنين وجد شبح الندم طريقاً إلى حياتي التي لم يكن يشوبها شائبة؛ ففي كل ليلة كنت أستيقظ في الثالثة لأقوم بمعركة ساخرة معه لأتحقق أنه ليس خدعة، فأجد أن لا مفر

لسانديب إلا أن يوفي دينه؛ وها أنا أدع قرابيني بين أيادي آلهة القوة المدمرة؛ لقد بذلتُ قصارى جهدي واكتشفتُ أني من ثروتها وحدها دون العالمين لن أستطيع أن انتزع شيئاً؛ آه يا ربة الآلهة! لن أغادرك إلا وحالي عدم؛ أرجوكِ اقبلي مني هذه الأشياء».

وفيما كان يقول ذلك اخرج صندوق الحلي من تحت عباءته ووضعه على المنضدة وخرج مسرع الخطى. فناداه زوجي:اسمع يا سانديب!

فقال سانديب وهو يقف بالباب:

- «إن وقتي ضيق يا نيكهيل، هناك شباب خططوا ليخطفوني كالجوهرة الثمينة ويدفنونني في مدافنهم، ولكني أشعر أنه من الضروري لي أن أبقى على قيد الحياة. ليس أمامي سوى خمس وعشرين دقيقة لألحق بالقطار المسافر إلى الشمال. لذلك ينبغي عليَّ أن اذهب الآن، ولاحقاً عند أول فترة استراحة لي سأرتب جلسة لنتحدث بالأمور الباقية. وإذا أردتَ نصيحتي فلا تؤجل سفرك أنتَ أيضاً. أحييكِ يا ملكة النحل يا ملكة القلوب الدامية، يا ملكة الدمار[1]».

ذهب سانديب بعد ان قال ذلك وهو يكاد يعدو. فوقفتُ كالمصعوقة لم أدرك من قبل كما أدركتُ اليوم كم هي حقيرة وتافهة هذه الجنيهات الذهبية وهذه المجوهرات. منذ لحظة كنت مشغولة بالتفكير فيما ينبغي أن آخذه معي، وكيف أضعه في الحقائب أما الآن فشعرت أن لا حاجة لي لأخذ شيء. نهض زوجي من كرسيه واقترب مني وأخذ بيدي وقال:

- «الوقت يداهمنا ولم يبقَ لدينا متسع لنتمم معدات الرحلة».

وهنا دخل فجأة تشاندرانات بابو، فلما وجدنا مجتمعين تراجع لحظة ثم قال:

---

(١) «تحية للربة المدمرة التي تغذي صميم قلبي» يعود هنا سانديب للتحدث بالسنسكريتي مرة أخرى ليعبر عن مدي افتتانه ببيمالا وكم هو مسحور بها؛ إنه نوع من التزلف. "Bande Pralayarupinim Hridpindamalinim".

- سامحيني أيتها الأميرة الصغيرة إن تطفلت. إن السكان قد ثاروا في مقاطعة هاريش كوندو!

فقال زوجي:

- «أنا ذاهب».

فأمسكته من يده وتوسلتُ إليه:

- «ماذا بوسعك أن تفعل هناك؟»

ثم قلتُ للماستر موشه:

- «أرجوك امنعه من الذهاب».

فقال تشاندرانات بابو:

- «لا يمكننا في هذه الظروف أن نوقف أحداً، الوقت لا يسمح يا صغيرتي».

فقال زوجي محاولاً طمأنتي

- «لا تخافي يا بيمالا».

فذهبتُ إلى النافذة لأرقبه وهو يغادر على حصانه مسرعاً لكن بغير سلاح. بعد بضع دقائق أقبلت سلفتي مسرعة وصاحت:

- «ماذا فعلت يا بيمالا يا حبيبتي؟ كيف تركته يذهب؟»

ثم التفتت إلى أحد الخدم وقالت له:

- «ناد لي رئيس الديوان حالاً!»

لم تكن الأميرات يظهرن أمام رئيس الديوان، لكن سلفتي الصغيرة هذه خرقت اليوم كل تقاليد العائلة وقالت حالما حضر رئيس الديوان:

- «أرسِل فارساً ليعيد المهراجا على الفور».

فقال رئيس الديوان:

- «قد توسلنا إليه جميعاً أن يبقى يا أميرتنا الكبيرة، لكنه أبى أن يلتفت إلينا».

فصاحت سلفتي بجنون:

- «ابعثوا إليه بأنني مريضة وأني على فراش الموت!»

وعندما خرج رئيس الديوان التفتت إلي ثائرة وهي تقول:

- «أنتِ يا غولة، يا مدمِّرة، لم تموتي، لكنك أبيت إلا أن ترسلي الأمير لحتفه»!...

وبدأ ضوء النهار يذبل وغابت الشمس خلف شجرة الـــ «شوجنه» المزهرة بأوراقها التي تشبه الريش. مازلتُ إلى اليوم أرى كل لون من ألوان ذلك الغروب. تعانقت على كلا جانبي القرص الغارب عناقيد سحب في غصنين واحد إلى الشمال وآخر إلى الجنوب فبدت كطائر هائل بسط جناحيه بريشه المنسق والمخضب بلون النار. وخيل إليَّ أن ذلك اليوم الرهيب يطير ليعبر محيط الليل.

واستتب الظلام، وكانت ضجة بعيدة تنبثق في موجات تتردد تحت جنح الليل كألسنة نار في قرية بعيدة أصابها الحريق، فتثب كل حين فوق الأفق.

ورنَّت دقات صلاة المساء من معبدنا وكنتُ أعلم أن سلفتي جالسة هناك جامعة يديها في صلاة صامتة ولكني لم أستطع الابتعاد خطوة واحدة عن النافذة المطلة على الطريق.

فالطرق الأمامية والقرية، والحقل القاحل خلفها وصفوف الأشجار البعيدة وراء الأفق غدت كلها غائمة بل غامضة. وكانت البُركة في أراضينا شاخصة إلى السماء بلمعان كثيب كعين ضرير وكان البرج إلى اليسار يبدو مشرئباً ليلمح شيئاً يحدث.

إن أصوات الليل تتنكر في صور شتى لانهاية لها. ينكسر غصن فتحسب أن أحداً يجري هارباً من الموت، ويُغلَقُ بابٌ بعنف في الريح فيُحدِث اهتزازاً كزلزال في قلب السماء كلها.

أنوار تضيء تحت ظلال الأشجار الداكنة ثم تختفي، حوافر أحصنة تدق من حين إلى آخر ثم يتبين أنها فرسان يخرجون من أبوب القصر.

انتابني شعور بأني لو استطعتُ إلى الموت سبيلاً لانتهى كل هذا الخطر، فطالما بقيتُ على قيد الحياة ستظل آثامي في عنفوانها تنثر الدمار في كل حدب وصوب. وتذكرتُ المسدس في صندوقي، ولكن أقدامي أبت أن تغادر النافذة المطلة على الطريق للبحث عنه، ففي النهاية، كنتُ أترقب منها قدري!

دق جرس ساعة الرواق الخارجي من القصر بصخب ليعلن العاشرة ليلاً. وبعد قليل لاحت في البعد أنوار كثيرة وزحف حشد من الناس على الطريق أقبلوا أفواجاً والتفوا نحو باب القصر فبدوا وكأنهم ثعبان هائل الحجم أسود اللون. وأسرع رئيس الديوان إلى البوابة لدى سماع صوت الناس عن بعد، فإذا بفارس يركض بجواده فسأله:

- ماذا وراءك يا «جاتادهار»؟

وكان السؤال بصوت ملؤه ذعر وارتياب. فكان الجواب:

«أخبار سيئة».

استطعتُ أن أسمع كل كلمة من هذه الكلمات بجلاء من نافذتي في الطابق العلوي، ولكني لم أستطع أن ألتقط الهمسات إذ لم تكن مسموعة. ثم دخلت نقالة من باب القصر. وكان الطبيب «ماتور» يسير خلف النقالة وسأله رئيس الديوان:

- «ما رأيك يا دكتور؟»

فأجاب الطبيب:

- «لا أستطيع أن أبت في الوضع الآن، فالجرح في الرأس خطير».

وسأل:

- «وآموليا؟»

- «أصيب برصاصة في القلب - لقد توفي على الفور».

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

ملاحظة المترجمة

نيفيديتا سين

لقد عُرف رابندرانات طاغور خارج البنغال أولاً كشاعر وغالبية رواياته التي تعد بما يزيد عن الإثنتي عشرة رواية قد ترجمت إلى اللغة الانكليزية لتصبح بمتناول القراء غير البنغاليين. وقد ترجمت رواية البيت والعالم إلى الانكليزية عام ١٩١٩، ولم تُعَد ترجمتها منذ ذلك الحين.

رغم إنه من السهل رفض ترجمة سورندرانات طاغور على أنها قديمة أو غير كاملة، فإنه ليس من السهل ترجمة النص الأصلي بالكامل بمصطلحات سهلة القراءة. لقد جاهدتُ مع القضايا الأصلية في الرواية عندما كنت أدرِّس الترجمة الانكليزية القديمة لسنوات عديدة، ومحاولتي لترجمة الرواية إلى اللغة الانكليزية الحديثة هي مجرد خطوة متواضعة باتجاه إنتاج البديل ونسخة معدَّلة لترجمة النص.

لقد وجدتُ ترجمة سورندرانات طاغور غير ملائمة، ليس فقط لأنها أسقطت بعضاً من النثر الشعري الذي هو عملياً غير قابل للترجمة، بل لأنها أهملت مسائل هامة في النص.

عقدة نيكهيل ومشاركته المرهفة مع العالم الأوسع، المعبر عنها باهتمامه ببونشو تستحق التزاماً أكثر حزماً مع النص الأصلي. في نهاية الفصل ١١ على سبيل المثال، نيكهيل، وصلته الحميمة مع الطبيعة وإيقاعاتها اليومية لم يكن لديه سوى أوقات قليلة ليختلي بنفسه، ويتألم لشدة ما يواجهه الفقراء الذين لا أرض لهم في البنغال وما يصيبهم من استنزاف ومرض وجوع وحرمان. كذلك في النسخة الأصلية، قصة ماضي شاندرانات بابو، المشروحة في الفصل ٩، تنقل إنسانية الشخصية بكل غناها. هذه أيضاً قد بترت في الترجمة الانكليزية. من ناحية أخرى، قد تم اختصار السلفتين بواحدة فقط، وهذا الأمر يلغي التناقض المشروح بتأن بين السلفة الكبيرة المتظاهرة بالتقوى والتي هي في الحقيقة ينصب اهتمامها على المال والأملاك وبين السلفة الصغيرة الأنيسة والاجتماعية والمليئة حيوية وقوة، والتي تقيم مع نيكهيل علاقة عاطفية ذات ماض مؤثر.

لقد احتفظتُ بكل ذلك كما ورد في النص الأصلي، كما حاولتُ ترجمة كل الصور المجازية الشعرية التي تمازجت مع السرد ومع الحوار والتي تنقل الحركة والتغيير في الرواية. في بداية الفصل ٩، هناك تناقض بين طبع نيكهيل وبين محيطه تطوَّر عبر سلسلة من التشابيه البليغة. تبدأ بلوحة حية من الصور والتي خرّبت الواحدة تلو الأخرى الصور الواردة في النص البنغالي بطريقة ملفتة ومتناقضة. لقد جاهدتُ لتذليل كل ذلك لأن بتر كامل الوصف وما يحيط به يفسد حججه نفسها.

كان عليَّ أن أسقط رسم تصويري من هنا وهناك لأن ذلك مرفوض بشكل قاطع أن ينقل إلى الانكليزية. في الفصل الخامس، شريط بيمالا الأحمر، الذي يظهر مزقزقاً من خلال غزارة شعرها الأسود وقد تلون من أشواقها الخفية، يوازي ما قد يكون في الأداء الفني الحرفي «لساناً شبقاً لعواصف بيساخ الغاضبة». ورغم أني قد استمتعتُ بفكرة استخدام كلمة "لسان" كان عليَّ أن أقرِّر نهائياً بالنسبة إلى «الشريط الشهواني لبرق ينبىء منذراً بعاصفة». فقد المجاز الكثير من ميزته التصويرية والحسية في مسار هذه العملية، لكن ذلك هو من طبيعة الأمور التي تحصل دائماً.

إنني واعية ومدركة أن ترجمة طاغور لا تستوجب فقط الإلمام القوي بالنص، ومفاهيمه الضمنية وسياقه، بل أيضاً معرفة صحيحة لكتاباته غير الأدبية، من فلسفة ومعتقدات.

إن ترجمة كالترجمة الحالية وجب أن تلتزم بتاريخ البنغال خلال الفترة المشروحة في سجل الأحداث بغية الأخذ بعين الاعتبار تغير مواقف طاغور.

رغم أنني عملت ما بوسعي، لكنني ربما لم أحدد هاتين الفقرتين. غير أن لغة الشاعر تضع التحدي الأكبر للمترجم. فعلى سبيل المثال الأسماء الرموز في هذا النص، والتعابير التجريدية لـــ: بيدهاتا، ساتي، تيج، راش، آبيك وآبيكيا، وأفعال مثل: بآجا، بوهجا، بانشا، وديوا، تحتمل فوارق دقيقة متنوعة. لقد حاولتُ ترجمتها وفقاً لظهورها في مواقع خاصة في النص، دون نسيان استخدام طاغور لها في أعمال نثرية أخرى. هذه الأوضاع اللغوية العادية في زمنه من المحتمل أنها تعرضت لبعض التشوه بانتقالها من لغة

وزمن معين إلى لغة أخرى وزمن آخر. من ناحية أخرى، هناك مسألة اللغة المعقدة الحاصلة نتيجة المجانسة الصوتية والتورية التي استعملها الكاتب:

في الفصل الثالث: " لوبه ولابه lobh and labh "

في الفصل العاشر: "بانكا وبانكا banka and Banka "

في الفصل الحادي عشر: "براتا وبيبراتا brata and bibrata. وميترا وآميتراكشار mitra and amitrakshar "

في الفصل الثالث عشر: "شهابا وشهابييه جاوا chhapa and chhapiye jawa"

في الفصل الرابع عشر: "إيشوار و آيشواريا ishwar and aishwarya "

في الفصل السادس عشر: "نيشذا ونيشذور nishtha and nishthur" "آدريشتا ودريشتا adrishta and drishta"

الفصل الثالث عشر: "سواناما وبيناما swanama and binama"

الفصل الخامس عشر: "آخياتي وبيخياتا akhyati and bikhyata"

الفصل السابع عشر: "بوجها وبوجهانو bojha and bojhano"

من الواضح أن هذه التعابير لا يمكن أن نحتفظ بها باللغة الانكليزية. لقد حاولتُ التعويض عن ذلك بعض الشيء بالتلاعب ببعض الألفاظ الانكليزية ولو أنه لمحاولة إيصال بعض من الصفة المميزة للنص البنغالي.

النص مليء بسخرية زائفة عن فايشناف بادافاليس. أنا لا أترجم شعراً ومع ذلك حاولتُ أن أنقل الأبيات كلها، لأني لو أغفلتُ بعضاً منها قد يضعف اكتشاف الدراما. كذلك مداخلات سانديب بالسنسكريتي بين الفينة والأخرى، سواء عندما يستشهد بحكم ونصوص كلاسيكية، أو عندما يخترع مزيجاً من السنسكريتي والبنغالي ليجزم وجهة نظره. لقد ترجمتُ الأولى إلى الانكليزية ووفرت حاشية لها، بينما حافظتُ في الأقوال الأخيرة على الشكل الأصلي من أجل مفعولها المسرحي، وكتبتُ في الحاشية معناها باللغة الانكليزية.

صيغة الفعل كانت أمراً صعباً للتعبير بطريقة السرد التي تراوح في الزمن. فحيثما كنتُ أحتار بما قد يبدو لي تناقضاً في الصيغة، كنت أحاول إنقاذ صيغة الفعل من داخل السياق نفسه، لكن قد أكون أخطأت في بعض المواقع.

لقد اخترتُ بتأن أن أحدد أرقام الفصول بغية جعل النص أكثر تحبباً وملائمة للطلاب. كما أني اخترتُ بنفسي أن أسمي الفصول بأسماء الشخصيات لأنه لم يكن باستطاعتي إيجاد التعبير الانكليزي المعادل للتعبير «آتماكاثا[١]» الذي هو سرد استبطاني عن الذات، لكنه ليس حرفياً «آتماجيباني[٢]» أو السيرة الذاتية بقلم الكاتب.

الحوار كان أسهل للترجمة. لقد استخدمتُ المصطلحات باللغة العامية التي هي اقرب إلى إيقاع كلامنا اليومي أكثر مما هي لنثر إنشائي قديم

---

(١) atmakatha.

(٢) atmajibani.

الطراز. آمل بألا تتناقض بعض الجمل والتعابير أو تبدو خارج السياق مثل «جعل منه غناء ورقصاً» أو «تحريك عش زنابير». بالنسبة إلى اللغة الانكليزية نفسها، خارج نطاق عالم رواية «البيت والعالم» لمطلع القرن العشرين، تم تركيبها وتطابقها على نص علينا أن نقرأه ونتعامل معه بأناة.

كل الإشارات إلى الأساطير والأدب، والأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية التي حبكت حولها الرواية قد يكون من الصعب أن تكون معروفة أو مألوفة بالنسبة إلى القراء أو الطلاب من خارج البنغال الذين ربما لم يدرسوا التاريخ ولا اللغة السنسكريتية ولا الممارسات الاجتماعية لطبقة ملاكي الأرض البنغاليين في مطلع القرن العشرين.

رغم أني لم أضف حاشية توضيحية للأسماء العامة والأسطورية مثل شيفا وسيتا، لكني أضفت إلى الترجمة قائمة بالأسماء والكلمات غير المألوفة. كما أني أضفتُ هوامش عن مصادر أدبية و كلمات وتعابير وأفكار تعبر عن تراث ثقافي - إثني قد لا يكون متيسراً للقاريء العادي.

هذه ملاحظات توضيحية مختصرة ولا أدّعي المعرفة الدقيقة التي تتطلبها حواشي النسخة. وفيما يتعلق بموضوع الترجمة، إن مسؤولية التفسير الخاطيء للكلمات، والترجمة الخاطئة للجمل والتعابير، والقراءة الخاطئة للقصائد واللغة الشعرية، كما أن عدم الدقة، والإضافات والحذف، وغياب الوضوح هي أخطائي وحدي.

مصطلحات في التراث البنغالي وأساطيره

- آهاليا Ahalia: كانت أميرة من أميرات السلالة الحاكمة في البورو ثم أغواها «أندرا» بملابس زوجها «كوتاما». ثم لعنها زوجها فرسخت حجراً.
- آمرا Amra: برقوق أو خوخ.
- آنابورنا Annapurna: توزيع الطعام في أساطير البنغال الشعبية ومنطقة البيناراس. وكانت تعتبر أيضاً ربة الوفرة.
- باتاشا Batasha: نوع طعام يومي من الحلويات كان يقدَّم أيضاً للآلهة.
- بهادرا Bhadra: الشهر الواقع بين منتصف آب ومنتصف أيلول، على وجه التقريب.
- براهماسترا Brahmastra: سهم إلهي...
- تشاندراماليكا Chandramallika: الأقحوان أو زهرة الذهب.
- دامايانتي Damayanti: في المهابهاراتا ابنة ملك فيداربا التي وقعت في غرام «نالا» أمير نيشادا. تزوجا رغم تحديات الآلهة إندرا وفارونا وآني وياما.
- إيكلافيا Eklavia: رامي سهام لا مثيل له في الـــ «ماهابهاراتا» وذلك بإرشاد «درونا»، وحيث كان عليه أن يضحي بحقه كي لا ينافس ارجونا. التشبه هنا مع نيكهيل بسبب هيبته ووضعه المهمش.
- كوهاك Guhak: في الرامانايا، قدم نصيرو راما والملك نيشهادها، أعشاباً وجذور نباتات بينما هم في المنفى كما قدموها إلى سيتا ولاكسمان. يعتقد نيكهيل نفسه أنه قريب من الملك وراثياً لأنه تعاطف مع بونشو. الحياة الملكية ومحيطها والمستوى الأرستقراطي هو الذي دفع انتباه نيكهيل للتشبه بهم.

- هامانتا Hamanta: الفترة القصيرة بين الخريف والشتاء من الفصول الستة.
- اندرا Indra: الإله الذي يحكم السماء وإله المطر أيضاً.
- اندراني Indrani: إلاهة، زوجة اندرا.
- جاكادهاتري Jagaddhatri: أم العالم، أو الإلهة دورغا.
- كيلاش مانساروفار Kailash Mansarovar: سلسلة جبال المفترض أنها موطن اللورد شيفا.
- ماغ Magh: الشهر الواقع بين منتصف كانون الثاني ومنتصف شباط تقريباً.
- ماهاديفا Mahadeva: اسم آخر لشيفا.
- ماهيسهاماردیني Mahishamardini: اسم آخر للإلهة دورغا.
- مانو Manu: في الريكفيدا، أبو البشرية الذي يعتبر في الكثير من الكتابات على أنه «آدم». وهو كحاكم الـــ «سوريافانشا» عرف أيضاً على أنه ذو روح حماسية، وقد شبه نيكهيل بيمالا به على أنها من أحفاده لروحها الحماسية والمتقدة.
- الأم ماهامايا Mother Mahamaya: الاسم الآخر للربة دورغا.
- باراشار Parashar: الأب لـــ «فيد فياسا» ويعتقد أيضاً أنه الجد الأعلى للجنس البشري.
- بوش Poush: الشهر الواقع بين منتصف كانون الأول ومنتصف كانون الثاني.
- بوشباك راذا Pushpak ratha: العربة السماوية للإله «كوفيرا» والتي لا تحتاج إلى دفع كي تسير.
- أبناء ساكارا Sons of sagara: ساكارا هو ملك السلالة الشمسية (سوريافانشا) في الرامانايا، حكم آيودهيا. وبعد مائة عام في جبال الهيمالايا، أصبح له ٦٠,٠٠٠ ولد من سوماتي وولد واحد من كيسفيني. بقيت رفاة أبناء ساكارا مغمورة في مياه نهر بهاجيراتي أما أرواحهم فقد تم خلاصها.
- شيمول Shimul: خيوط قطنية تشبه الحرير.

- شوجنه Shojne: عصا الطبل.

- تيلوتاما Tilottama: بتول سماوية شهيرة، ابنة برادها وكاشيبابا. كانت تجسيداً للجمال الفائق الوصف.

- فيبهيشان Vibhishan: شقيق رافانا وخانه في خطف سيتا والتغلب على راما.

- فيشفاكارما Vishwakarma: إله المهارة في العمل، الذي جمع برعاية وتوجيهات براهما، الأجزاء الجميلة من الأشياء الحية والجامدة وخلق منها تيلوتاما الفاتنة.

- ياما Yama: إله الموت.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

n

الصفحة

نشأة طاغور وثقافته ٥

مقدمة وشرح نيفيديتا سين ١٥

الفصل الأول

بيمالا ٢٥

الفصل الثاني

نيكهيليش ٦٥

الفصل الثالث

سانديب ٧٥

الفصل الرابع

بيمالا ٨١

الصفحة

الفصل الخامس

سانديب ٨٧

الفصل السادس

نيكهيليش ١٠٧

الفصل السابع

بيمالا ١١٣

الفصل الثامن

سانديب ١٣١

الفصل التاسع

نيكهيليش ١٤١

الفصل العاشر

بيمالا ١٥٣

الفصل الحادي عشر

نيكهيليش ١٦٧

الفصل الثاني عشر

سانديب ١٨٥

الصفحة

الفصل الثالث عشر

نيكهيليش ٢١١

الفصل الرابع عشر

بيمالا ٢٢٥

الفصل الخامس عشر

نيكهيليش ٢٥٧

الفصل السادس عشر

بيمالا ٢٧٠

الفصل السابع عشر

نيكهيليش ٢٩٧

الفصل الثامن عشر

بيمالا ٣١٣

ملاحظة المترجمة نيفيديتا سين ٣٢١

مصطلحات في التراث البنغالي ٣٢٧

الهيئة العامة السورية للكتاب

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب

«إنها ليست محاولة لحكاية رمزية مقصودة: إنها مجرد قصة. فهي تصف رجع الصدى للدموع والضحك عبر الفعل ورد الفعل بين حياة الإنسان الداخلية والخارجية وبين شخصيته ذاتها وعلاقتها بالآخر. إن كان هناك شيء آخر قد ظهر أو تم استنتاجه فلا علاقة له بالموضوع وإنما يكون قد نشأ بمحض الصدفة»

رابندرانات طاغـور

The Home and the World
Ghare Baire

RABINDRANATH TAGORE

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٢٣٠ ل.س أو ما يعادلها